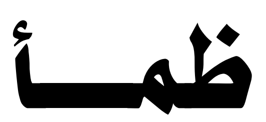
مريـم خلـف



اسم الكتاب: ظمأ

تأليف: مريم خلف

الإخراج الداخلي: القسم الفني بالدار

تدقيق لغوي: أ/ منى القاضي

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الطبعة الأولى: 2023

رقم الإيداع: 2022/23419

الترقيم الدولي: 978-977-86391-3-1





ج.م.ع
الإسكندرية
Email: mazagelkotob@gmail.com
Mobile: 01024541339

❤ إهــداء

"ظمأ" هو أقسى شعور يمر بجوارح الجسد بالإنسان كذلك ظمأ المشاعر هو الأسوأ والأشد ألمًا يمر بداخله.. كلمات أهداها لي صاحب الأمل وأُهديها أنا لكل من يشدو الأمل.

***

الفصل الأول

بجوار كومٍ كبيرٍ جدًا من القمامة والزجاجات الفارغة، مختلفة الأحجام والأنواع، بالإضافة إلى عددٍ لا يُحصى من القطط الضالة، والحيوانات التي فقدت الراعي والمُنعم، توجد مدرسة إعدادية!

مدرسة بنات كالحة قديمة الطراز، لابد أنها بُنيت في الستينيات، حيث كان المد القومي يعمل عمله في تحويل الوطن بأكمله إلى مكعبات متشابهة من (الطوب والإسمنت)، وإن لم تخل من بادرة إبداع وتفرد، لم تعد تتمتع بها المنشآت التي أُسست في مراحل تالية، خاصة مدارس التسعينات الكئيبة المرعبة بألوانها المتطابقة وجهامة أسوارها، وغلظة الملمح الذي يتراءى للناظر إليها من جهاتها الأربع، في منشأة كتلك توجد كل أنواع المشارب والتباينات، وكونها مخصصة لتعليم النساء الصغيرات، البنات في أوج سن المراهقة اللعين المتعب الشاق، جعل توقع أي شيء يجري بين أسوارها أمر وارد وطبيعي للغاية، فيما عدا أنه لم يكن لتلك المدرسة سورًا حقيقي، فقد تداعى سورها القديم منذ خمس سنوات، ولم تشملها عمليات الصيانة والترميم من قِبل هيئات المنشآت التعليمية بنظرة رضا حتى الآن، بنايةٌ عتيقةٌ تقف على أساساتها خمسين عامًا أو تزيد، لابد أن تحوي داخل هيكلها المتداعي مشاكل وهنات، توازي في قدمها ورسوخها وعصيانها على العلاج والإصلاح، ما لهذا الأثر العتيق من عمرٍ يتجاوز الافتراضي المأمول، إلى الإضافي وبدل الضائع أيضًا!

على مقربة، وفي الشوارع الجانبية الصغيرة المتفرعة، كانت هناك كافة مراكز الخدمات التقليدية التي تحيط بأية مدرسة تستحق أن تحمل هذا اللقب،

سوبر ماركت كبير مكدس بكل أصناف وأشكال البضائع، عدة أكشاك خشبية أقيمت على عجل، بعضها يتجاوز عمره الأربعين عامًا، وأخرى تحمل شعار إحدى المؤسسات الخيرية التي تساعد الفقراء، وتحتال في توفير لقمة عيش نظيفة، ومصدر دخل دائم لهم عبر منحهم قروضًا صغيرة ومشروعات مقننة على قدر طاقاتهم ليبيعوا ويشتروا، وقد حدد أصحابها هذا المكان موقعًا لرمي قواعد آمالهم المتواضعة، على أساس أن وجود مدرسة بالقرب يؤمن لهم سيلًا لا ينقطع من الموارد وأسباب الرزق، خاصة خلال الفترة بين سبتمبر ومايو، الشهور التي تُفتح فيها الدراسة وينتصف العام، ثم يبدأ الفصل الدراسي الثاني وفترة الامتحانات النهائية المباركة، واختبارات آخر العام التي يتحول فيها التلاميذ إلى غيلان شراء حقيقي، يلتقطون كل ما يقع تحت أنظارهم من سلعٍ ونعم، على اعتبار أنهم سُيحرمون من كل تلك الطرف التافهة مدة أربعة شهور بين إغلاق المدرسة أبوابها، ومفتتح العام الدراسي الذي يليه، ولم يكن المكان مكتظًا بالمنافذ الشرعية والمقننة من قِبل مؤسسات الدولة للبيع فقط، بل تناثرت أيضًا عدة (فُرشات) تقوم على رأس كل منها امرأة مسنة أو في منتصف العمر، معظمهن أراملة أو يعتمدن اللون الأسود في هيئتهن، ولا يبدلنه أبدًا لسببٍ لا يعلمه أحد.

وفي كل فرشة كانت توجد حصيرة أو كرتونة كبيرة على الأرض مباشرةً، وفوقها تتكدس أشد السلع تفاهة ورخصًا في السعر، أنواع مختلفة من المقرمشات، شيبس وعصائر ملونة تكفي لقتل عظاية ضخمة مرعبة، من جسامة ما تحمل من ألوان السموم، ممثلة في الألوان الصناعية مع قدرٍ وافرٍ من المواد الحافظة غير المصرح بها حتى من وزارة الصحة في بلاد الواق الواق، توك وبنس للشعر خصيصًا لكون المدرسة مدرسة بنات، بسكويت بألوانٍ ومذاقات مختلفة، وكانت تلك الفرشات تخص نفسها ببيع كميات من البسكويت المدرسي المدعم،

بسكويت الوجبة المدرسية المسروق بأريحيةٍ من قِبل إدارات المدارس وموظفي الإدارات التعلمية، وخلافا لكل ذلك فقد وُجد بالقرب من باب المدرسة الخلفي حيث يوجد زقاقٌ ضيقٌ لا يفضي إلى أي مكان، بل عليك اجتيازه طولًا وعرضًا لتجد منفذًا يكاد لا يُرى يقودك إلى شارعٍ هادئ وساكن، وكأنما لا يعمره أحدٌ من البشر، وهذا الأخير يقودك إلى شارع ثانٍ ثم إلى حارة، ثم إلى شارعٍ طويلٍ جدًا ومقفر على الدوام، لتنتهي أخيرًا إلى طريقٍ رئيسيٍ مزدحمٍ وصاخب، هذا المتجر الأخير كان يحمل اسم (بوتيك)، وقد وجد صاحبه الأريب أن خير طريقة لتحقيق الربح من متجره المنزوي المعتم على الدوام، حتى في رابعة النهار هو إثارة خيال الفتيات المراهقات، فجمع في دكانه كل أنواع الطرح والعطور الرخيصة، وكان يوفر أيضًا تشكيلة من طلاء الشفاه والأظافر، بأشد الألوان فجاجة وصخبًا، كان يتعمد تخفيض ثمنها خصيصًا لتلميذات المدرسة، كما أنه اقتنى ماكينة تصوير، وراح يطبع ويبيع تلخيصات للكتب المدرسية ومراجعات ليلة الامتحان من عشر صفحات، يبيع النسخة منها بخمسة جنيهات في الأيام العادية، وأحد عشر جنيهًا للمتأخرين، الذين يستفيقون قبيل موعد الامتحان بساعات؛ فيحملهم بمغنم إضافي، ولم يكن أحد يفهم لماذا يصر صاحب البوتيك على الجنيه الزائد فوق العشرة، ولما لا يكتفي بمضاعفة سعر بيع المذكرة وحسب؟!

في كل الأحوال كانت تلك مدرسة مصرية نموذجية، من ناحية التكرار والانتشار والنمطية، وتقوم حولها التشكيلة النموذجية من الخدمات والعروض والإغراءات، وتحفل بالنوعية النموذجية من المشكلات التي يمكن أن توجد في مدرسة كتلك.

أما في داخل جدران البناية المتهالكة فقد كانت الأمور اعتيادية بدورها، الفروض اليومية الثقيلة لعبء التدريس والسيطرة على طالباتٍ مراهقات، رحن يتطلعن نحو مرحلة النضج بشغفٍ واقتحام سابق لأوانه، بينما لا زلن أطفالًا،

يفتقدن لكل مقومات المرحلة العمرية التي يتهجمن عليها، ستة عشر فصلًا، وثلاثمائة وخمس وأربعون فتاة من الصف الأول حتى الثالث، أكثرهن جئن من البيئة المحيطة بالمؤسسة التعليمية، التي تضمهن بين جدرانها، وينتمين إلى ذات الطبقة التي تُخرج أكثر من نصف سكان مصر، الطبقة العاملة الكادحة والمتوسطة وما فوقها بقليل، الفئة الأكثر ولعًا بنشر جيناتها وتوريث مفارقاتها وكدها ومشاكلها لأجيالٍ عريضة وكثيفة، وفي منشأة مخصصة أصلًا للبنات، بما جُبلن عليه من طبع المباهاة وحب الاستعراض والولع بالظهور والتميز، كانت تلك الفروقات الطفيفة الهينة لتظهر وتستفحل بدلًا من أن يعمل الجميع على قمعها وتجاهلها، في كل فصل كانت توجد المجموعة الشائعة من الطالبات، مجموعة الفتيات النابهات وعددهن لا يزيد عن الخمس، وسط جمعٍ من البليدات الغافلات لا يلقين إلى الأمر بالًا أصلًا، وفريق مشجعات المراهقة بكل نكباتها ومصاعبها العسيرة، هؤلاء اللاتي يتفنن في اتقان الطبخ في حصص التدبير المنزلي، لا يزيد الأمر عادة عن تحمير الكفتة المُعدة سلفًا في بيوت معلمات الاقتصاد المنزلي على الوجهين بالطريقة المثلي، ويشغلن بالهن بالمعلمين الذكور، ويتسابقن في الظهور بمظهر النسوة الناضجات اللائي يرغبهن الجميع، حتى دون أن يدركن تمامًا ما يعنيه ذلك، ويعشقن الاختلاط برجالٍ يفوقهن سنًا بكثير، بل يفوقون آباء هؤلاء الفتيات سنًا في بعض الحالات ويحفظن تواريخ أعياد ميلاد الأستاذ "فاروق" معلم الرياضيات، المتزمت والقاسي بعض الشيء، لكن جاذبيته ووسامته المصرية المعتادة تعوضان نقصه من ناحية الجاذبية السلوكية، والأستاذ "محسن" مدرس العلوم، الذي تأخذ جميع البنات عدا أشدهن فقرًا وبؤسًا درسًا عنده، برغم أن العلوم ليست مادة يتسابق الجميع على نيل دروس خاصة بها.

كما أن فئة الناضجات المبكرات تلك لا تفوت فرصة للاحتفال بعيد ميلاد أحد المعلمين، بجلب الكيك والشمع من منازلهن، غالبًا يحضرن الكيك بحجة أكله في الفسحة أو في حصص النشاط، بينما يسرقن الشمع من أدراج المطبخ خلسة عن أمهاتهن، ويحاولن إحضار هدايا بسيطة تتفق مع ميزانياتهن، التي لا تتعدي جنيهاتٍ قليلة كل يوم، وناهيك عن فئة (المتخلفات)، اللاتي لا يوجد أملٌ مطلقًا في تحسين مستوي تحصيلهن ولا يهتممن بالأمر أصلًا، وينتقلن من عامٍ دراسي إلى آخر عن طريق قوانين التعليم العقيمة في البلاد، أخيرًا وفوق كل ذلك توجد (ألفا) واحدة كالعادة، أشد البنات ذكاءً وتفوق، وغالبًا فإما أن تكون منعزلة تمامًا وتواجه صعوبات في التأقلم والانخراط في المجموع المحيط بها، أو الحالة الأسوأ أن تكون مغرورة ومتباهية بنفسها، وتقيم حاجزًا بينها وبين باقي زميلاتها مما يدفعهن إلى كراهيتهن، ومحاولة توريطها في المشاكل عبر التظاهر باحترام قيمتها كألفا لا يوجد لها في الفصل نظير.

كل ذلك كان اعتياديًا حتى الملل وجملة المعلمين والعاملين في تلك المدرسة كانوا نمطيين ومستهلكين حتى الموت، معظمهم بلا رؤية من أي نوع، والتعليم عندهم يوازي التلقين والحفظ والتسميع، يخافون المشاكل، ويتعوذون بالله من شر الإدارة التعليمية، كما يستعيذ المدير الخامل بدوره، والذي يدرك دقة موقفه كمديرٍ لمؤسسة تشرف على تعليم فتيات مراهقات، من زيارات الموجهين الماليين والإداريين، ويخشى أن يمسكوا عليه بعض المخالفات وأشكال الفساد الصغيرة، المدرسات كن على العكس يجدن أنفسهن في وسطهن الطبيعي، ويتصدين لمشاكل البنات التافهة المتكررة بقلبٍ من حديد، إذ كنَّ في مأمنٍ من الظنون السيئة، التي يمكن أن تلاحق المعلمين الرجال، ويستطعن ضرب البنات الجامحات، وإمساكهن من أكتافهن أو رؤوسهن أو دفعهن في الصدور بقوة، كما

كان مسموحًا لهن بإخراج المخالفات من الطابور، ووضعهن لصق الحائط وتوبيخهن دون أن تتضاحك الفئة الأكثر ميوعة من طالبات الصف الثالث، واللائي يتجهزن للقفز إلى المرحلة الثانوية، أو البقاء في المنزل تمهيدًا للزواج في حالاتٍ لا تُعد قليلة، وهن يتبادلن النظرات المتواطئة ويقلن بأعينهن الصامتة الوقحة:

- "وهو الأستاذ مركز مع "دينا" دي بالذات ليه؟".

من الخطر أن تركز مع فتاةٍ في مدرسة بنات، أما عندما تكون البنت جامحة ومحبة للمشاكل ولا تخاف أحد، فيصبح وجودها في مكانٍ كهذا مع عدم إمكانية التخلص منها بالطرق القانونية عبئًا وثقلًا عظيمين.

كانت "راوية" من تلك العينة الأخيرة، طالبة في الصف الثالث، تحديدًا ثالثة ثاني، آخر فصل يقع بالقرب من السلم في الدور الرابع، والغريب أن فصل ثالثة ثالث كان يقع قبله في الدور الثالث، لكن لخبطة بسيطة وقعت خلال بداية العام الدراسي جعلت الأمور كلها تتشابك وتتعقد، مراهقة عسيرة على الترويض، شرسة متنمرة، جميلة وهي تدرك ذلك، لكن لم تكن تعتمد على جمالها في الظهور والإعلان عن تميزها وسط زميلاتها، بل على لسانها الطويل، وقلة حيائها وحبها للمشاكل وعدم احترامها لأى سلطة تفوق سلطان أبيها وأمها، حتى الأخيران لم تكن تقيم لهما وزنًا بما يكفي، كانت تأتي إلى المدرسة مسلحة بقائمة من المشكلات التي تنوي افتعالها في ذلك اليوم، ادعاءات بتعرضها للمضايقة من فلانة وعلانة، التظاهر بالإغماء، اتهامات بسرقة مصروفها أو كراساتها، الطرد بسبب عدم احضارها أدوات الرسم، أو كراسة التدبير المنزلي والبالطو الأبيض، خياطة المنزل، الذي تستعمله البنات لدرء البلل والأوساخ عن

مريولاتهن أثناء تأدية الأنشطة المطلوبة في حصص التدبير المنزلي، التحرش اللفظي الوقح ببعض الفتيات، وحتى ألفا الفصل لم تسلم من مضايقات "راوية"، برغم طيبة قلب الأخير وعزلتها الصحية!

- ما هو الحل مع فتاة كتلك؟!

الأخصائية النفسية، السيدة "حمدية" المكتنزة، أم لطفلين، تأتي بهما معها إلى المدرسة غالبًا، وتتركهما في عهدة زميلاتها المعلمات حتى تنتهي من عملها، إن كانت تؤدي عملًا في تلك المدرسة من الأساس، تقبض راتبها لأن اسمها يوجد في كشوف الموظفين في المدرسة، مثلها مثل الأستاذ فلان والأستاذ علان، والأخير كان يتغيب حتى في أثناء أيام الامتحانات التي يكون فيها التدقيق أكبر من الأيام العادية بكثير، لأن عمه الصديق الصدوق لجناب المدير، الأغا الذي يدير المدرسة بطريقة نظار الوسايا في أيام الملكية المنصرمة، عمومًا لا فارق كبير بينها وبين هذه الأيام، وفي مدرسة بنات كان على المعلمات عبء إضافي، نصفه على الأقل كان يجب أن يكون من نصيب الأخصائية النفسية لكونها امرأة، أما الأخصائي الاجتماعي فلكونه رجلًا فكان مستبعدًا عرفيًا من الانغماس في مشاكل التلميذات، درأً للمشاكل وافتراءات بعض البنات، فكان السيد الأخصائي يهتم بتحصيل الرسوم المدرسية وتنظيم رحلات لا يزيد مدى بعد مواقعها عن المدرسة بأكثر من عشرين أو خمسين كيلو مترًا في معظم الأحيان، والبقاء في معمل الحاسب الآلي يحتسي الشاي في أوقات فراغه، وما أكثرها، أما الأستاذة فقد كان ذلك العبء الاعتباري يثقلها، برغم أنها لم تكن تقوم في الحقيقة بشيءٍ كثير منه، تاركة الحمل كله على زميلاتها بكل حيلة ممكنة، بحجة أنهن يدرسن تلك البنات، ويعرفن طبائعهن وأساليب التعامل معهن أكثر منها، لكن في ذلك

اليوم من شهر (مارس)، حيث كانت المراجعات النهائية تجري استعدادًا لـ (إبريل)، الذي تخلو فيه المدارس المصرية على عروشها، توطئة لامتحانات (مايو) النهائية في المرحلتين الابتدائية والإعدادية، فقد كانت المشكلة التي اختلقتها "راوية" أكبر وأخطر من أن تتصدى لحلها معلمة اللغة العربية طيبة القلب، والتي لا تهتم إلا بعملها، والتي وجدت نفسها مطالبة في التحقيق في شكوى "راوية" بأن إحدى زميلاتها قد فعلت حركة غير مهذبة معها!

روعت الأستاذة وكاد يغمى عليها من عِظم ما سمعت، وسريعًا اتخذت قرارها، فطلبت من الألفا الموثوقة أن تهرع لتنادي الأستاذة "حمدية" لتحل هذه المشكلة الغريبة التي هبطت فوق رأسها قبيل ساعتين بالضبط من موعد الانصراف اليومي!

جاءت الأخصائية المتمرسة متثاقلة، واستمعت إلى التفاصيل المبدئية عن الشكوى، قبل أن تقوم بطرد الطرفين، الشاكية والمشكو في حقها بفظاظة نحو مكتبها الواقع بالقرب من مكتب المدير، والذي لا تغشاه إلا لمامًا!

....

كانت الشاكية تقف مطمئنة في مكانها، ويديها في وسطها، تهتز من جانبٍ إلى جانب دون توقف، وترمق معلمتها باستهانة وغرور، وتستدير من حينٍ لآخر لتنظر إلى زميلتها بشماتةٍ ظاهرة وغلٍ واضح، أما الفتاة المسكينة المتهمة والمحاطة بادعاء مرعب فقد كانت في حالة يُرثى لها، فلم يحصل أبدًا أن وجدت نفسها تقف موقف المتهمة من قبل، إنها فتاة هادئة ليست متفوقة، بل متوسطة المستوى، أقرب للبلادة والخمول، ونادرًا ما تتحدث في أثناء الحصص، أو

تقف لتجيب على سؤال يطرحه أحد المعلمين، تكتفي بتلقين الإجابة الصحيحة لنفسها وهي جالسة إن كانت تعرفها أصلًا، كانت هيابة وخوافة وتفتقد كل ثقة بنفسها، والعجيب أن تُجرجر خارج الفصل موصومة بتهمة من أشنع التهم، وتُرمى بالإقدام على فعلٍ فاضح تجاه زميلتها السلفع، التي لم ينج أحد من شرها في فصل ثالثة ثاني، ربما ما عدا ألفة الفصل وحدها، "مروة".. كان اسم المتهمة، وكانت ابنة طيبة لأبوين رُزقا بها بعد طابورٍ من البنات يقطعه ولدٌ وحيد، فلقيت كل اهمال في تنشئتها ولا مبالاة مطلقة بمستواها الدراسي وتحصيلها في المدرسة، شكوى مثل تلك كافية لأن يُقْدِم أباها بكل سرور على سحب ملفها من التعليم، واستبقاؤها في المنزل لتساعد أمها في خدمة العائلة الكبيرة، ريثما يطبخون لها زيجة مناسبة قبل الأوان، هذا ما كانت "مروة" تعمل له ألف حساب، أكثر من مجرد التهمة الفاحشة التي ترميها بها "راوية"، والتي تعتقد أن أحدًا لن يصدقها فيها.

راحت "مروة" تتخيل أباها العملاق وهو يدلف من باب المدرسة، متحفزًا كفيلٍ لدغته ناموسة في جفنه وهو نائم، ويجرها جرًا نحو البيت بيدٍ بينما ملفها في يده الأخرى، ويرميها داخل المنزل لتُحرم من رؤية الشمس واستنشاق الهواء حتى تتزوج، أو إلى أن تموت ربما، أخيلة مرعبة غرقت فيها "مروة" المسكينة، بينما هي تترقب ما ينتظرها على يد المعلمة الفاضلة التي كانت فعليًا أشد ارتباكًا من المتهمة وأكثر حيرة وتخبطًا، إن كل إجراء في مدرسة بنات له ثمنه، فأولياء الأمور والإدارة متفقان على أنه لا يجوز التعريض بأخلاقيات وسلوك بناتهم، يمكنك أن ترمي الأولاد الذكور بكل نقيصة وأن تلكمهم في وجوههم، أو تتسبب لهم في عاهة مستديمة، ولن يناقشك أحد في الحساب، خاصة في الأماكن

الشعبية والقري، حيث يتربى الذكور من سنٍ مبكرة على أنهم مماسح للأقدام، يجب أن يتحملوا كل ألوان الإساءة والعنف والقسوة اللفظية، دون أن تهتز لهم شعرة أو يرف جفن، يمكنهم أن يردوا العدوان ما شاءوا، بل يستحسن جدًا أن يفعلوا ذلك، لكن أن يشكوا ويبكوا ويبثوا همومهم للأهل فهذا ينقص من رجولتهم المبكرة، واستعدادهم لحمل راية حماية الأسرة والوصاية عليها، خاصة إن الابن الأكبر يعد ولي العهد، المرشح بقوة لأن يحل محل الأب في حالة غيابه أو اختفائه أو وفاته مبكرًا، الشكوى والتذمر هما حق مكتسب وفطري للبنات، وبرغم أن الفتيات في بيئاتٍ كتلك يكن منبوذات بالولادة، حيث يُنظر إليهن كعبءٍ إضافي، وفمٌ يأكل ويستهلك دون أن يضيف إلى موارد الأسرة شيئًا، فإنهن يتمتعن بحق الشكوى والتذمر، وتقديم عرائض الاتهام ضد كل الناس دون كثير لوم أو ازدراء، كانت الأخصائية الاجتماعية سيئة الحظ تدرك أنها في ورطة حقيقية، خاصةً بالنظر لطبيعة الشكوى التي لا يمكن تصور أن تُقال علنا في مدرسة بنات، فكيف يعقل أن تتحرش فتاة بفتاةٍ أخرى؟!

- كيف يمكن معالجة تلك الكارثة؟!

هل ترفع الأمر إلى مديرها الأستاذ "إسماعيل"، المربي الفاضل الذي يقدس الروتين ويعبد اللوائح الحكومية، ويكاد يقدم القرابين لصورة مدير الإدارة المعلقة دون أي داعٍ أو مناسبة، في مكتبه الموقر؟! هل تلجأ "حمدية" إليه وتشرح له طبيعة المشكلة؟!

حينذاك كر ذهن المعلمة راجعًا إلى سلسلة من الحوادث التي وقعت بين جدران المدرسة، وأثبتت بما لا يدع مجالًا للشك، أن المدير الفاضل يؤثر أن يبعد

نفسه عن مشكلات البنات خشية اللوم أو الصدام مع أحد أولياء الأمور العتاولة، فهو يخشاهم بشدة ويكاد يبلل مقعده الفخم تحته من الخوف، إذا ما شاهد ظل أحدهم على باب مكتبه!

إذن فإدخاله في تلك المسألة سيكون غير ذي جدوى، بل ربما فاقم المشكلة وجعل لها أبعادًا أكبر بكثير مما يمكن أن تبلغه هنا، في ذلك المكتب الشاغر دائمًا، وبين جدرانه الضيقة المزينة بالصور والورق الملون اللامع، مع عددين من مجلة المدرسة، التي لا تصدر أبدًا إلا في مكتب الأخصائية، أو في الطرقة الطويلة أمام مكاتب الإدارة!

أي نهار أغبر ذلك الذي ورط الأم الشابة، التي تجاهد لتربية طفلين ورعاية منزل تهيمن عليه الكراهية والخلافات الزوجية، والعلاقات الأسرية المفككة، ولا تنقصها المشاكل ولا المنغصات!

أخيراً.. وبعد طول إعمال للفكر وملاحظة لسلوك كلا الفتاتين، البنت المتهمة التي تبكي وتتوسل وتحاول جاهدة إثبات براءتها، والأخرى التي تتأرجح ويداها تحيطان بخصرها الرقيق بينما تبدو غير مبالية، بل وشامتة بشكلٍ ما، اتخذت "حمدية" الإجراء الوحيد الذي رأته مناسبًا، لتجنيب المدير المشاكل، وانتشالها هي من المأزق الذي يمكن أن يسببه الأخير لها، فصرخت في وجه "راوية" آمرة إياها بأن تحترم نفسها، وأن تقف معتدلة، ومن ثم اتجهت ناحية "مروة" التي تكاد تسقط من طولها ونهرتها قائلة:

- "إلى الفصل يا بنت!".

ثم حولت خطابها إلى صيغة المثنى.. آمرة كلتيهما بالعودة إلى الفصل، وأن تجلس كل واحدةٍ بعيدًا عن الأخرى، مع أنهما كانتا تجلسان متباعدتين فعلًا،

مهددةً باستدعاء ولي أمر كلا منهما في حالة تكرار الشكوى، شهقت "مروة" وكأنما نجت من الغرق، بينما انفتحت "راوية" التي عادت تهتز بشكلٍ مبالغ فيه، قائلة بشكوى وتذمر واضحين:

- "وماذا عما فعلته؟ لقد وضعت يدها على...".

لم تعطها الأستاذة الفرصة لتكمل.. بل صاحت فيها مقاطعةً بحزمٍ أكبر قليلًا مما استعملته في سنوات عملها التي تزيد عن العشر:

- "انتهى! لقد سمعت ما يكفي.. واعلمي أنني لا أصدق ما تقولين يا "راوية"، فتأدبي ولا تضطريني لاستدعاء ولي أمرك!".

بتهجمٍ ووقاحة شوحت البنت بذراعها وصاحت:

- "ما هذا؟! أنا المجني عليها، وعلى حضرتك أن تحققي في الأمر قبل...".

استفزتها طريقة الفتاة، وخاصة لأنها نطقت كلمة حضرتك بتهكمٍ واضح وبطريقةٍ ساخرة، فصاحت لتسكتها وأصرت على أن تعود هي وزميلتها إلى الفصل، وكان هذا قرارًا نهائيًا، ولم تكن إحداهما وخاصة الشاكية الوقحة مُضارة منه، رجعت "مروة" إلى صفها وهي تجرجر قدميها، محاولة تجاهل نظرات البنات الساخرة والمتهمة والمشفقة، فوضعت رأسها بين ذراعيها وانخرطت في البكاء، بينما وفي الصف الذي يليها جلست "راوية" على مقعدها المعتاد، محشورة وسط فتاتين تفوقانها حجمًا بكثير، وراحت تغمز لمن حولها من البنات، وبين حينٍ وآخر كانت تختلس النظر إلى داخل حقيبتها المدرسية، لتطمئن على وجود قلم الروج الفاقع الذي اشترته صبيحة اليوم، بآخر مبلغ ادخرته من مصروفها، وتعتزم استعماله في حمام المدرسة قبل جرس الانصراف، لتكون جاهزة للذهاب إلى مكانٍ ما (على سنجة عشرة!).

الفصــل الثاني

واحدة فقط ضمن قائمة طويلة لا تنتهي، تلك كانت مشكلة اليوم التي اختلقتها فتاة فصل ثالثة ثاني "راوية"، فلم تكن هذه أول مرة تتسبب البنت الجانحة في مشاكل خطيرة في نطاق مؤسستها التعليمية، منذ التحاقها بالمدرسة، ومنذ أن كانت مجرد طفلة غرة تدرس بالصف الأول الإعدادي، ظهرت عليها معالم الميل إلى الانغماس في المشاكل، واصطناع الصراعات الوهمية في نطاق فصلها الصغير، كانت شكسة وشديدة المراس، جاءت بالتنسيق الميكانيكي من مدرسة ابتدائية تبعد سبعة كيلو مترات عن مدرستها الحالية، نطاق متوقع وبعد لا بأس به، جاءت تسبقها سمعة ودعاوٍ غير مستحبة، قيل أنها محبة للمشاكل، لكن ومع تنمر معلمي الإعدادي الطبيعي وشعورهم بحساسية مهمتهم في التعامل مع الطلاب في أسوأ مراحلهم العمرية طرًا، قُمعت رغبتها في الظهور والإعلان الفج عن حقيقة أخلاقياتها وسلوكياتها في أول أسبوعين من وجودها في مرحلتها التعليمية الجديدة، تغير الأمر كلية عند نهاية الفصل الدراسي الأول لها في المدرسة، إذ أصبحت أشهر من نارٍ على علم!

فخلال أربع أسابيع، تغيبت خلالها عن الدراسة مرتين فقط، زارت مكتب الأخصائية النفسية مرة، وتعرضت للضرب من معلم الحاسب الآلي، مع أن المدرسين الذكور كانوا يتجنبون ضرب البنات ما وسعتهم الحيلة، مرتين، ثلاثة في الحقيقة لكن المرة الثالثة تعرضت لضربة خفيفة جدًا على ظاهر يدها بالمسطرة، فلم تحتسبها هي ضمن عدد المرات التي مورس العنف فيها ضدها.. وزيادة عن المألوف فقد استُدعيت، خلال تلك الفترة البسيطة إلى مكتب المدير ثلاث مرات!

وكأنها نتيجة مباراة كرة قدم تتناسب تناسبًا طرديًا مع براعة اللاعبين وتمكنهم من تسجيل الأهداف، واصلت "راوية" تسجيل الأرقام القياسية حتى تهرأت شباكها الخاصة، وأصبحت معروفة في المدرسة بجموحها وطيشها، لم يأبه أحد بسلوكها أو بالعلة التي تدفعها للانغماس في المشاكل، والتورط في المتاعب تباعًا هكذا، عدوه مظهرًا طبيعيًا لمرحلة البلوغ المتعبة والمراهقة بكل منغصاتها وقلقها، كان ذلك صحيحًا، لكن في حالة "راوية" بالذات فإن مراهقتها بدأت منذ أن كانت في الصف الثالث الابتدائي!

كثيرا ما ضاق أبوها بتصرفاتها وهدد بإخراجها من التعليم، فتصدت والدتها للأمر واستعملت سلطتها كأم، توسلت إلى زوجها أن يترك لها أمر البنت تمامًا، فقد كانت تخشى من ضياع مستقبلها، وما توصلت إليه المرأة المرهقة بأعباء المنزل والعائلة الكبيرة أنها أخفت عن الأب كل ما كانت البنت تفعله أو تتورط فيه، من مشاكل ومشادات، ومشاجرات حامية مع لداتها من الفتيات، بل حتى مع الصبيان في شارعها.

تكتم شديد كان خير وسيلة لعلاج الأمر من قِبل الأم، ناسب هذا الأب كثيرًا، لأنه تربى على مفهوم أن التنشئة ورعاية الأطفال هي مسؤولية الأم وحدها..

- "غدًا تكبر وتتعقل!".

حلم كل أم وأب غير أن هذا لا يحدث دائمًا لسوء الحظ، كان لـ "راوية" ثلاثة أخوة، ولدان وبنتان، حققت الأم (التارجت)، فرُزقت بالولد، ثم خاوت الولد بآخر، وكان ذلك مصدر فخرٍ كبيرٍ لها، جعل لها سلطة معنوية كبيرة على زوجها، أما الأخت الوحيدة فكانت تصغرها بإحدى عشرة سنة، آخر العنقود

وأوله، هكذا وقعت البنتان في المنطقة الآمنة، وضعٌ مختلفٌ تمامًا عن "مروة" التي تتعلق في نهاية خيط ذرية غير متزن، "راوية" هي الكبرى - البكرية - وظلت تتمتع بتدليل "محمود" في غير إسراف ثلاثة أعوام، حتى قفت أمها آثارها بـ "زياد"، فنُحيت قليلًا لكنها بقيت محبوبة أمها، أول خمس سنوات من عمرها كانت مزدهرة، لم تلق عنتًا ولا مشقة، الأم زوجة مصرية تعرف واجباتها على أفضل نحو وتؤديها بانتباه، تتحبب إلى زوجها بالذرية والتلطف وإطاعة أوامره، طبعًا معظمها لا يُنفذ ولا يهتم الرجل بذلك، فقد عرفت الزوجة بفطرتها ومنذ نعومة أظفارها وعبر تجاربها الخاصة مع والديها، ثم مع أخواتها الكبيرات اللائي سبقنها إلى بيوت الزوجية، أن كلمة (حاضر) عند الرجل تفوق قيمتها كثيراً أهمية تنفيذ ما يقوله فعليًا:

- "حاضر.. حاضر".

كانت تلك عبارة الأم المحفوظة، ترددها أكثر من أربعين مرة خلال اليوم، وغالبًا ما ينتهي ذلك بتجاهلٍ تامٍ لما قيل قبلها، كان ذلك اتفاقًا معنويًا غير مكتوب بين والد "راوية" وأمها، هي تقول (حاضر) بخضوع وهو لا يبحث خلفها ليرى إن كانت قد نفذت ما أمرها به أم لا، معادلة مريحة للطرفين، غير أنها كانت أحيانًا قاتلة بالنسبة للأطفال.

ككل فتاة في مستوى بيئتها الأقرب للشعبية خُتنت "راوية" في سن السادسة، هذا طبيعي فالكل هناك يفعلون ذلك، لم يكن هناك حولهم من يتحدث عن أضرار الختان للبنات، أو عواقبه أو مخاطره، وحتى إن أعلن أحدٌ ما مثل تلك الأفكار فقد كان الاستشهاد بحديث غير مثبت عن الرسول، أو استعمال آية قرآنية في غير موضعها تمامًا كافٍ جدًا لإخراس المتكلم، الدين هنا

يتكلم.. ليس الدين مثلما تحويه كتب التراث والنصوص المقدسة، بل النسخة المفصلة من الدين، تلك العجينة الغريبة من نصوص الدين الحقيقية، مضافٌ إليها كمٌ هائلٌ من الأحاديث الصحيحة أو المشكوك في صحتها أو المخترعة من أصلها، وبعض حكايات من زمن الصحابة والتابعين، مع شيءٍ من التقاليد والعادات التي لا تلامس الدين، بل ربما تتعارض معه كلية، كل ذلك يُخلط في بوتقة واحدة هائلة، ويعجن بكمٍ كبيرٍ من الأفكار المجتمعية، والنظرات الذكورية، والتسلط الطبقي، والإذعان لفكرة أن الله خلق بعض الناس ليكونوا سادةً، وبعضهم ليكونوا أقل من العبيد، وفي النهاية يكون لديك خليط لا يشبه الدين ولا يشبه المدنية، ولا يشبه أي شيءٍ آخر، لكن الاقتراب منه يعد تهجم على المقدسات تمامًا، وازدراء للدين والعقيدة، بل ربما كفرٌ بواحٌ بهما!

ومن مسوغات هذا الخليط العجيب أن تكون البنت هادئة مطيعة، وألا ترفع صوتها.. وإن فعلت فإن ذلك يعزي إلى قلة أدبها وفشل تربيتها، وليس إلى أي عاملٍ آخر خارجي، وفي حالة "راوية".. ومنذ أن بلغت الثامنة، وبدأت في التحول نحو الشخصية صعبة المراس القاسية العنيدة، التي لا تتهرب من المشاكل، بل تقحم نفسها فيها بكل سرور وفرحة، وتختلقها من عدم حتى إن لم تتوفر أمامها، لم يتوقف أحد من المحيطين بها ليسأل نفسه: لماذا تسلك مثل هذا السلوك الفج؟!

....

في الواحدة تمامًا عادت "راوية" إلى المنزل، وكان موعد الخروج اليومي للمدرسة هو الثانية إلا ربع، لكن لنظام التعليم المصري قانونين، أحدهما رسمي على الورق.. وغالبا ما يطبق أقل من عشرة بالمائة منه، والآخر عرفي غير مكتوب، لا يتحدث عنه أحد ولا يعترف أحد بوجوده، غير أن الجميع بدءًا من أعلي سلطة

في الإدارات التعليمية، نهاية بالفراش الذي يترك باب المدرسة مفتوحًا وقت الفسحة؛ ليتيح للطلاب شراء الطعام والحلوى من عربات الشوارع، ويكتنز هو لنفسه قدرًا معقولًا من المال عبر التجول بين الفصول في ساعات الدراسة، محملًا بكراتين (الحلوى، والبسكويت، والشيبس، والمقرمشات)، ليبيع للتلاميذ المتلهفين على بضاعته الثمينة، مقاطعًا الشرح وواجبات التدريس الرسمية، واضعًا أنف المعلمين من كبيرهم إلى صغيرهم في الرغام، دون أن يجرؤ أحدٌ على معارضته أو رفض السماح له بدخول الفصل، تجنبًا للمشاكل، فالعامل في بعض المدارس يتمتع بسلطة أدبية تفوق سلطة معظم المعلمين، من ناحيتها كانت البنت قد تأقلمت تمامًا مع النظام التعليمي في بلدها، متمتعة بما يوفره لها من حماية لجموحها، وعدم قدرة على ضبط سلوكها كما يجب، وأيضًا مرتكنة إلى وضعها كفتاةٍ لا يجرؤ المدرس على مصارحة أبيها أو ولي أمرها بسوء سلوكها علنًا مهما جرى، لأن (سوء السلوك) يُفسر في مجتمعهم على نحوٍ مخالفٍ تمامًا للمقصود!

في البيت كانت البيئة مشابهة تقريبًا، فالأم المصونة هي الثانوية في المنزل، تُرزق بالأولاد وتربيهم، وتتحايل لتستمر في الحياة مع زوجها، وتحتمل مصاعب العيشة، وتغزل برجل حمار لتوفر لأولادها كل احتياجاتهم، وبالنسبة لكون أول مولود لها بنت فلم يكن أمرًا سيئًا تمامًا، إذ يُنظر للبنت الكبرى على أنها (أخت أمها)، ويُنتظر منها أن تحمل جزءًا كبيرًا من مهام الأم ومتطلبات البيت، تساعد في الخدمة وتهتم بأخوتها الصغار وترعاهم كُلية في حال غياب الأم، أو انسلالها خفية لتُروح عن نفسها ساعة من الزمان عند واحدة من الجيران، دون أن تستأذن الزوج طبعًا أو تطلعه على الأمر، وفي النهاية تكون البنت الكبيرة هي السند والأمان إذا ما توفيت الأم، والأخوة لا زالوا في حاجةٍ إلى الرعاية والاهتمام والدعم والمساندة، كل ذلك كان جميلًا عدا عن نقطة واحدة.. إن "راوية" بكر

من أمها لم تكن تعترف ببندٍ واحدٍ من كل بنود تلك المعاهدة غير المكتوبة بين الأم وأكبر بناتها، كانت نزقة شرسة، تعتبر نفسها امرأة صغيرة، لها كل الحق في أن تسلك سلوك النساء، وتظهر بمظهرهن، لكنها تعترف بينها وبين نفسها أنها لا تزال طفلة، تحتاج دعمًا ومساندة وحماية وتفهم ورعاية، كل تلك الأمور التي كانت ثقافة الأم تختزلها في ثلاث كلمات (الأكل، الشرب، المصروف)، فما دامت البنت تأكل وتشرب وتحصل على ما يكفيها ويحفظ ماء وجهها أمام زميلاتها ورفيقاتها، فمما يمكن أن تشكو أو تتذمر إذن؟!

ولما لا تحب أن تدخل المطبخ مع أمها، وتهز أختها الصغيرة على ركبتيها، وتحرس شقيقها الكبير أثناء ركضه، أو خلال تأديته لواجباته المدرسية التي يتهرب منها بكل طريقةٍ بارعة، مفضلًا تقاذف الكرة في الشارع على حل مسائل القسمة المطولة وحفظ نشيد (كن قويًا)، ولماذا تتعمد البنت إفساد عمل أمها، بل وتتلف كل ما تطاله يديها من خامات وأطعمة معدة للطهو إن أُرغمت على دخول المطبخ ساعة من الزمان لتقديم المساعدة الواجبة عليها، كانت الأخت الصغيرة لا تزال تدرج في حمي الرابعة، ومعترفٌ لها تمامًا بحق الطفولة واللهو والتشاغل بالتوافه، أما "راوية" فقد سمعت مرارًا:

- "لقد كبرتِ الآن، وغدًا يتقدم لك الخطاب".

كانت الجملة تضحكها.. لكن الخاطر نفسه كان يفزعها ويمنعها من النوم، ذلك أنها لم تكن تطيق فكرة أن يمسها أحد بأي شكلٍ من الأشكال!

منذ سنة أو سنتين لاحظت الأم شيئًا غريبًا، فبرغم انصرافها عن متابعة ابنتها كما يجب، متعللة بواجباتها المنزلية والزوجية التي لا تنتهي، فقد تنبهت إلى أن بكريتها النزقة لا تطيق أن يضع أحدٌ يده عليها، حتى أشد اللمسات براءة.. وبعيدًا عن الغرض كانت تفزعها، لاحظ الأب ذلك قبل زوجته، فعده أمرًا

طبيعيًا في البداية، فمنذ صفها الرابع والبنت تبعد يده بقسوةٍ أو جفاء إن حاول لمسها أو تطويقها بذراعيه، كان هذا غريبًا جدًا، فكم جرت إلى حضنه ونامت بين ذراعيه في سنوات طفولتها الأولى، بل إنها لم تكن تجد غضاضة في أن تطلب من أبيها أن يبدل لها ثيابها في الصف الأول والثاني الابتدائي، وأن يضع لها مريولتها الزرقاء المحببة إن كانت الأم مشغولة جدًا بإعداد الإفطار ساعة الصباح.

لكن وبعد سنواتٍ قليلة صارت تمنعه حتى من إمساك ذراعها، فسر ذلك الأمر تفسيراً يتلاءم مع طبيعة وأفكار البيئة المحيطة:

- " البنت كبرت وصارت عروسًا.. إنه الحياء".

غير أن الحياء كان بريئًا كذئب آل "يعقوب" من تلك الظاهرة الغريبة، فسريعًا ما لاحظ الأب أن نظرة البنت إليه إن أقدم على كسر الحاجز الذي تقيمه حول نفسها ولمسها دون قصد، أو إن طوق كتفيها أو جرها من ذراعها مغضبًا حتى.. كانت نظرة خوف ورهبة، وليست نظرة أنثى صغيرة حيية وخجلة!

مرة ثانية تدخلت الثقافة المحيطة لقمع كل فكرة يمكن أن تدور في الرؤوس، وكل نبتة تجرؤ على البزوغ هنا تُسقى سمًا من العادات والتقاليد والعيب، وما يصح وما لا يصح، فتذوي وتموت على أصولها دون أن تشرئب أعناقها إلى أبعد من أنوف المحيطين الأغبياء، ومع تحولها إلى فتاة وغزو علامات الأنوثة لجسدها اليانع، أصبحت مناقشة الفكرة نفسها تعد محرمًا من المحرمات، ولا أحد يجرؤ على التفكير أو التحليل، أو حتى مجرد التساؤل البريء: هل كل هذا طبيعي؟!

....

في الداخل كانت الأم تجلس، فرغت حقيقة من أعمالها المنزلية، فوعاء البازلاء بالتقلية كان فوق الموقد، ساخن تنطلق منه رائحة ذكية، والأرز تمت تسويته ببراعة، حبة.. حبة.. يمكن إحصاؤها في الطبق، واللحم الأحمر الذي يزور البيت مرةً واحدةً في الشهر طُهي على نارٍ هادئة، وأصبح جاهزًا تمامًا ومرحبًا بالتحمير، وغسيل الأمس قد جف، والشقة كنست ومُسحت وبولغ في تنظيفها، وغُسلت الأرضية بالكلور الخام، الذي كانت رائحته تصل حتى الشارع من فرط قوتها وثقلها، كانت الواجبات المنزلية قد أُديت على أكمل وجه، لكن الأم لم تكن لتترك نفسها فارغة، تشاغلت بعمل أي شيءٍ حتى لا تبدو خاوية اليدين، سنة الأم المصرية السيئة، التي تظن نفسها خُلقت لتطحن في المطحنة وتُذبح قربانًا حتى بدون داعٍ على المذبح، وعيب أن تترك لنفسها وقت للاستجمام والراحة، واستعمال كلمة راحة عيب كبير ومسبة في حقها، لذلك أجلست الأم ابنتها الصغرى، "جنى" على ركبتيها، وراحت تمشط شعرها مرارًا وتكرارًا، وتغمره بكمية كبيرة من الفازلين والزيت الرخيص، سقيًا لعهد من سلفنها.. كانت هذه المرأة الثلاثينية الطيبة تجد لنفسها مشغلة في كل فسحة، وعملًا تقوم به في أي منطقةٍ فارغة توضع فيها نوعية الواجبات التي لا تعرف غيرها، لذلك كان دخول ابنتها الكبرى عليها شكسة الوجه، متحفزة الملامح، بمثابة منجاة عظيمة لها، فها قد وجدت أمرًا يشغلها بقية النهار، حتى يعود الوالد في طراوة ما بعد العصر إلى البيت، ويجلسون كلهم على مائدة الغداء الحافلة لهذا اليوم، لحظتها بعينين حادتين وضربت كتف الصغيرة، التي راحت تتأرجح فوق حجر أمها.

كانت "جنى" خبيثة خبثًا يليق بسنها، وتشم رائحة المشاكل والخلافات حين توشك على البدء، وكان ذلك يسعدها كثيرًا، لذلك أرادت بحركتها المفاجئة إغاظة أمها، وتسريع الاشتعال الذي تتوقع أن ينفجر خلال دقيقة أو أقل، وفعلًا صدق

حدس البنت، التي تملك حدسًا وغريزة يفوقان في قوتها ما لها من فهمٍ وتقدير، اكتسبتهما من طول ما عاشت على تلك الأرض وفي رحاب ذلك البيت، وسرعان ما بدأت الأم الملاحاة، فهتفت وهي تتفرس في ابنتها الغاضبة الملامح.

- "مالك؟!".

السؤال المقدس الذي لا يُجاب عنه أبدًا، لابد من اللف والدوران ومائة محاولة لاستدراج الضحية لتدخل الفخ بقدميها، وتفصح عما جعل حالها ومالها مائلًا، لا يُرجى لهما عدلًا ولا قيامًا، من جهتها كانت "راوية" متحفزة تمامًا ومتأهبة لواحدة من معاركها اليومية التي لا آخر لها، رمت بحقيبتها المدرسية الثقيلة، وأرسلت خلفها بصقة تليق ببلطجيٍ يقطع الطريق على المسافرين ليلًا، ويذبحهم دون رحمة بشفرةِ حلاقة، لم تندهش الأم من سلوك ابنتها الغريب والمجافي لأنوثتها المبكرة، فقد تعود الجميع منها هذه التصرفات غير المقبولة، كانت "راوية" تمثل أكبر مشكلة في حياة الست "هدى" الأم الصبورة والراضية، إنها تستطيع أن تتقبل سوء السلوك، أو الجنوح أو الفشل، من صبيٍ ولد ليس عليه حرج، لن يعيرها أحد بسلوكه، أو حتى بأفعاله الشائنة التي تتم على رؤوس الأشهاد، بل ربما كان الجنوح وممارسة العنف حقًا أصيلًا وأمرًا مطلوبًا في مستويات معينة، تجد في الرجل ذراعًا للحماية والعون والسند، أما البنت فمصيبتها مصيبتين لأنها ضيفة في بيت أبيها، مهمة الأبوين هو إعدادها للدفع بها في بيتٍ آخر، بيت الزوج الذي لا يجب أن تغادره إلى إلا القبر، طبعًا بعد أن تقوم بسلسلة واجباتها ومهامها اللانهائية، الزواج والإنجاب ومزاولة الأمومة بكل ما فيها من أعباءٍ ثقيلة ومهامٍ جسيمة، لكن من سيتزوج فتاة تتعارك كالصبية، وتتصرف بل وتبصق مثلهم أيضًا؟!

الكارثة أنها جميلة الملامح، ربما لو كانت قبيحة لهان الأمر، سيسلم بعدم زواجها وسببه في الحالة الأخيرة، لن يحاصرها الناس بنظرات الشك، ويحيطونها بسياجٍ متصلٍ من الأسئلة وطلبات الإحاطة، ومحاولة معرفة سبب عزوف العرسان عن دق بابها، تلك العلة التي إن لم يعرفها الناس فسوف يخمنونها، وسيكون التخمين دائمًا أبشع من الحقيقة بمائة مرة، لماذا تتصرف البنت هكذا؟

لم تعد الأم للتفكير في تلك النقطة، فأمرٌ آخر كان يشغلها، وهو الحصول على جواب سؤالها الذي لا يزال معلقًا:

- "مالك؟!".

نفس السؤال بنفس الصيغة، وكان رد الفعل مشابهًا للمرة الأولى ، تركت "راوية" أمها تتطلع إليها بدهشةٍ وغيظٍ وخيبةِ أمل، ثم دخلت المطبخ وفتحت الثلاجة بحركةٍ عنيفة، ثم أفرغت زجاجة مياه صغيرة كاملة في جوفها، قبل أن تعود إلى الصالة لتبحث عن أغراضها التي ألقتها خلفها منذ دقيقةٍ واحدة، لم تحفل بالرد على أمها التي ملأ الغيظ قلبها، فأزاحت "جنى" عن حجرها بقسوة، ثم انتثرت واقفة لتصرخ في بكريتها بغلٍ وصوتٍ حاولت ضبط درجة ارتفاعه، بحيث لا يسمعها الجيران المتحفزين، والذين يلقون آذانهم لكل كلمةٍ تُقال خلف باب الشقة المغلق دائمًا، درأً للمشاكل والمفاسد:

- "لماذا لا تردين عليّ عندما أحادثك؟ أنتِ قليلة الأدب!".

كان المفروض أن تثير تلك الكلمات الغضب في نفس البنت، لكن العكس هو ما حدث.. لأنها ابتسمت وقد أولت أمها اهتمامها أخيرًا، وهتفت بطريقةٍ قادرة على إثارة جنون أكثر الأشخاص ثباتًا، وسيطرة على انفعالاتهم:

- "لم أسمعكِ".

- "نعم؟!".

كان الكيل قد طفح بتلك المرأة المنكوبة، إنها تعيش في بيئةٍ فرضت عليها خياراتٍ لا حد لها، تقريبا كل خطوة وكل فعل في حياتها كانا نتيجة إملاء صارم من الأهل أو العائلة أو المحيط الاجتماعي، أو العادات والتقاليد، حصارٌ مطلقٌ كصب عجينٍ طريٍ في قلب وعاءٍ قبيح الشكل، على العجين دائمًا أن يتخذ نفس الهيئة التي فُرضت عليه، لا محل للاختيار أو مناقشة البدائل هنا، وكرد فعلٍ لا شعوري على تلك الحزمة من القرارات التي اتخذتها دون أن تتخذها فعلًا، أرادت المرأة أن تصنع نسخًا مصغرة منها، نسخًا غير محسنة، تنتهج نفس نهجها وتكمل نفس مسيرتها، فتيات يتعلمن بقدر، ويتم إعدادهن لبيوتٍ وحياةٍ تشبه تمامًا حياة أمهن، إن هذا يطمئنها أن الدنيا لا تزال بخير وأن حياتها لم تذهب سُدى على ابنتيها، خاصة الكبرى منهما، أن تكون كما الأم تمامًا، حاولت الوالدة ذلك بكل الطرق، حاولت تشكيل "راوية" وترويضها وتنشئتها على ما نشأت هي عليه، وزيادة في الخير اختارت لها حين مولدها، اسمًا عتيقًا بعض الشيء، اسم جدتها، متوسمة في ذلك استمرار النسل والمسيرة المباركتين، تنازلت الأم قليلًا عن يقينها حين رُزقت بالبنت الصغيرة، وجدت أن الجميع حولها قد تطوروا رغمًا عنهم، وانتشرت الأسماء الجديدة الخفيفة والصعبة الغريبة، لكنها وإن لم تتنازل تمامًا عن تعنتها إزاء كل شيء لا يتناسب حجمه مع حجم أفقها الضيق المحدود، انتقت اسمًا خفيفًا وحديثًا (بشوكه)، دون أن تدع ثلة الأسماء الغريبة المدهشة التي يصعب التلفظ بها في غالبية الأحوال، تغريها أو تستميلها بشيء، كل تلك الأحلام تحطمت على صخرة قاسية حين بدأت "راوية" تشب عن الطوق، انهارت أحلام الأم بملاحظتها سلوك ابنتها الجامح العصبي، الفتاة التي لا تخشى مصارعة

الصبيان، لكنها في نفس الوقت تسرق المال خلسة من محفظة الأم الصغيرة لتشتري أصابع الروج التي تخفيها بعنايةٍ في أماكنٍ سرية من حقيبتها ولا تستعملها أبدًا، لكم ضبطت الأم الفتاة وهي تفعل الأمرين، وكم مرة استخرجت مكنوناتها من حقيبتها على مرأى منها، دون أن يهتز للبنت المتهمة رمش، أو تجرؤ أمها على إخبار الأب بما يجري في البيت من وراء ظهره، عدته أمرًا سريًا، خبيئة لا يجب أن تتجاوز الأم وابنتها، كانت الأم تخشى أن يُعاقب زوجها "راوية" بقسوة، وربما يحرمها من التعليم والخروج من المنزل مطلقًا، غير أنها في الحقيقة كانت تخاف شيئًا أعظم بالنسبة لها، أن تُتهم هي بالتقصير وسوء التربية، ففي ثقافة متزمتة تتطور ببطءٍ أشد من بطء التغييرات الجيولوجية التي تصيب طبقات الأرض، تعد التربية بمعناها الضيق حكرًا على البنات، فنجاح الأم أو فشلها في أداء مهامها تقاس بما تتمتع به بناتها من تهذيب وخضوع ورقة، وتدين وانحياز للأعراف والتقاليد، يُستثنى الأولاد من تلك المقتلة حتى بلوغهم مبلغ الرجال، لا يعلق أحدٌ كثيراً على سلوكهم ما لم يصل إلى حد العدوان الوحشي، أو الدخول في مشاكل خطيرة مع القانون، سوى ذلك.. فهم في المنطقة الآمنة.

كانت "راوية" ضحية تمامًا مثلما هي مجني عليها، تَبَدُل سلوكها لم يثر اهتمام أحد، عدوه مظهرًا من مظاهر فجور البنات في مرحلة المراهقة، الفجور بمعناه المعنوي لا المادي، وعلاجه الوحيد هو المزيد من القمع والترهيب واستعمال الشدة، تلك هي التذكرة التي لا تخيب، لكن ومرة أخرى خيبت البنت الآمال، ولم تشفع معها الوصفة المغرقة في القدم، فكلما مورس عليها قمع أعظم.. كلما زادت ضراوة واشتد سلوكها في مخالفته لكل الأعراف، وفي بعض الأحيان، حين كان يطلع على قليل من مشاكلها المخفاة عنه بمهارةٍ وإصرار، كان الأب

ينهي المسألة بأمنيةٍ طالما كبتها في صدره، منذ أن بشروه بالأنثى في أول طفلٍ يولد له:

- "ليتها كانت ولد!".

كان ذلك في نظره حلًا رائعًا للمشكلة، أن تتحول ابنته إلى صبي، وهكذا يمكن التجاوز عن سوء سلوكها، بل ربما أضحيا مسببًا للفخر والتباهي:

- "اللي مفيش في عيلتهم صايع.. حقهم ضايع".

وكانت "راوية" لتكون (صايع) وربما بلطجي مثالي، لكنها فتاة للأسف، ردها ووقوفها وجهًا لوجه متحدية أباها وأمها والجميع.. كان يثير حفيظتهم ويشعل غضبهم، غير أن مزيج الغضب مع الشعور المضنى بخيبة الأمل والخوف من انتقاد الناس لأسلوب تربيتها، كانا يجعلان رد فعل أمها بالذات حين يفيض بها الكيل عنيفا أكثر من البقية، أبعدت الأم الطفلة التي لا تدرك شيئًا عن حجرها، ثم وقفت متحفزة لتجذب "راوية" من شعرها، كانت البنت تعقص شعرها بشريطٍ أبيض، كما تنص لائحة المدرسة، لكنه كان ثائرًا وغير مرتب، كل هذا لم يثر اهتمام أمها، بل كل ما كانت تريده هو أن تؤدب هذه الفتاة الجامحة في هذه اللحظة وفورًا، التقطت الأم شبشبها بحركةٍ بارعة، وهوت به على وجه "راوية"، ثم جذبتها من شعرها بقسوة، وحاولت أن تمرغها في الأرض لتعطيها علقة ساخنة، لكن المرعب في الأمر حقا أن البنت أخذت ترد الضربات لأمها!

دفعتها في صدرها بقوة.. ثم هجمت عليها وراحت تتعارك معها بالأيدي واللسان، كلمة بكلمة وضربة بضربة، كادت الأم تموت من الهلع، كانت تتجنب الصراخ أو رفع صوتها حتى لا يسمعها أحدٌ من الجيران، أو يشمت بها إن كان

كارهًا أو حاقدًا، لكن اعتداء ابنتها السافر عليها أفقدها كل تحكم في أعصابها، فراحت تصرخ وتسبها وتلعنها وتدعو عليها بالموت والعمى والشلل، وتلعن خلفتها وخلفة البنات، وكل شيء قابل للعن وجدته ذاكرتها متاحًا في تلك اللحظة، لم تدم المعركة إلا أقل من دقيقتين، إذ صرخت "جنى" رعبًا، وجرت نحو باب الشقة لتهرب، أخافها منظر العراك بين أمها وأختها الكبيرة فجرت لتلوذ بالشارع، ربما كان آمنًا أكثر من ذلك العش الذي تفشى فيه الجنون والقتال والصراع بين أم وفلذة كبدها، فورًا استشعرت الأم الخطر، ورأت الأمر يتفاقم بتدخل الجيران، فدفعت "راوية" بشدة نحو باب غرفتها وصرخت فيها:

- "غوري من أمامي الآن.. وعندما يرجع أبوكِ يتصرف معكِ بطريقته".

أدخلتها الغرفة رغمًا عنها، ثم أغلقت عليها الباب من الخارج، وهرعت لتقبض على ذراع الطفلة المذعورة، وتعيدها قسرًا إلى الداخل، أغلقت الأم الباب، كان وجهها محمرًا وعليه أثار خدشين عند الذقن وفوق الخد الأيمن، بسبب خمش "راوية" لها بأظافرها الطويلة المتينة، كان صدرها يعلو ويهبط، وقلبها يرتجف من الغضب والألم والرعب، لأول مرة تدرك "جنى" معنى المنظر الذي وقع أمامها.. فلاذت بالصمت، وبقيت جالسة بجوار أمها دون أن تحر بكلمة، أو تملأ الشقة بشقاوتها وعفرتتها، دمعت عينا الأم لكنها مسحت أنفها وعينيها بطرف إيشاربها المنزلي، قامعة رغبتها الحارة في البكاء.

....

عاد الأب بعد ساعتين ليجد الغداء معدًا، ولم يلحظ سوء حالة الأم، ولا منظر عينيها اللتين كان الاحمرار القاني يملئهما، سأل عن الأولاد بطريقته الروتينية، ثم جلس ليتناول الغداء مع زوجته وابنه "زياد"، الذي رجع من

المدرسة بعد أخته بنصف ساعة وابنته الصغرى، وبوقاحة نادرة خرجت "راوية"، دون أن يدعوها أحد لتجلس على مائدة الطعام قبالة أمها بالضبط، وتنغمس في الأكل دون أن تغسل يديها، أو تأبه بما فعلته منذ ساعاتٍ قليلة، أو تعير والدتها أي التفات، وتناولت طعامها بشهيةٍ متجاهلة نظرات أمها، التي تراقبها بعينين كعيني الصقر، وتتمنى أن يُخلى بينها وبين هذه البنت لتكسر عنقها، أو تدفنها الليلة وتتخلص من جرائرها، وخلال لحظة ألتقت فيها عيني العدوتين اللدودتين أرسلت الأم نظرة قاسية ومهددة نحو ابنتها:

- "سوف أخبر أباكِ الآن بما فعلتِه".

لكن البنت تطلعت إليها بتحدٍ يثير الحنق والجنون، واستمرت الوجبة حتى فرغ الجميع من ملء بطونهم، وذهب الوالد ليبدل ثيابه ويرتاح، لكن الأم لم تخبره شيئًا، ومضى اليوم والليلة كما مضى غيرهما من الأيام والليالي..

بيد أن الأم المجروحة أضمرت في نفسها عقابًا خطيرًا لابنتها المتمردة قليلة التربية..

■■■

الفصـــل الثالث

في تمام الساعة السادسة من ساعات الصباح التالي كان الروتين اليومي قد بدأ، استيقظت الأم أول واحدة، وتلبست دورها كقائدة عُليا اعتبارية للبيت، عقصت شعرها الطويل المشعث على شكل كعكة بسرعة وبرمته بين إصبعين من أصابعها فأصبح جاهزًا للطي خلال ثانية، ثم وضعت كومًا من البنس السوداء المؤذية لتمسك خصلاتها، وتمنعها من التنافر مرة ثانية، كانت أحداث اليوم السابق لا تزال تؤرقها، لكن قرارها الذي توصلت إليه بعد إقناع الأب المندهش من التغيير الهائل في موقف زوجته وقناعاتها، جعل نفسها هادئة وقلبها مطمئن، ستحصل البنت على عقابٍ مستحقٍ وتتعلم الأدب جيدًا، ففي الخارج كان الظلام منتشرًا، فقد انطفئت اللمبة الصغيرة الساهرة التي يضعونها في الطرقة قبيل الفجر بقليل من تلقاء نفسها، ربما تكون قد احترقت، لكن لا بأس فالشمس بدأت تشرق على أنحاء وزوايا الشارع المكتظ، وتكفي نافذة واحدة تُفتح ليتسلل الضياء والهواء الصباحي الرطب المنعش إلى الشقة التي تشبه علبة محكمة الإغلاق، كان الخوف من الفئران والخوف من تلصص الجيران يجعل رغبة الأم في إبقاء كل شيءٍ مغلقًا دائمة ومتحكمة، لم تستغرق عملية الاستعداد أكثر من دقيقتين، أضحت الزوجة المتفانية بعدهما من الأحرار، يمكنها الآن الخروج والبدء في تجهيز الإفطار، ريثما تحين الساعة المناسبة لإيقاظ الولدين للذهاب إلى المدرسة، "جنى" ستُتْرك حيث هي تغط في النوم، فهي في سن النعيم معفاة من كل الواجبات والمنغصات، أما (البكرية) الجامحة العنيدة فسوف تُركل في صدرها لتنهض وتساعد في تحضير الإفطار، غير أنها لن تتناول منه شيء، كما أنها لن تذهب إلى المدرسة.

لقد أقنعت الأم زوجها بأن يمنع "راوية" عن المدرسة، ويستبقيها في البيت لتساعد أمها في واجباتها التي لا تنتهي، أما المدرسة فكان الحل متوافرًا وبسيطًا:

- "لم تتبق سوى أسابيعٍ على امتحانات آخر العام، يمكنها أن تذاكر في البيت.. وتذهب على الامتحانات، كل البنات يفعلن ذلك".

ورغم أنه ليس كل البنات يفعلن ذلك حقيقة، كما أن هذا يخالف تمامًا موقف الأم الأول، ورغبتها الحارة الصادقة في أن تحصل ابنتها على شهادة، فإن الرجل المشتت الذهن من الحيرة هز كتفيه، وقال باستسلامٍ عجيب:

- "أنتِ أمها، وأنتِ أدرى بمصلحتها".

من ناحيتها كانت الأم تعلم معنى منع "راوية" عن ارتياد المدرسة، وبالتالي عن الخروج من البيت، إنه قتلٌ بطيءٌ لها، فهي تنفر من البقاء في البيت ساعاتٍ متصلة أشد النفور، وتتخذ من جدرانه المطلية بدهانٍ قديمٍ متسلخ عفى عليه الزمان، حد أنه من العسير التعرف على درجة اللون السماوي الحقيقية التي طُلي بها مبدئيًا سجنًا وقبرًا لها، ستثور ثائرتها حين تُحاط علمًا بهذا القرار المفاجئ، وكم تتمنى الأم أن يحصل ذلك على مشهد من زوجها، تريده أن يرى بعينيه مبلغ سوء سلوك ابنته الكبرى، ليقمعها ويعاملها بقسوة، فلم تغفر المرأة لابنتها أبدًا أن استطالت يدها عليها بالأمس، واعتبرت الجرح الذي نال كبرياءها وأمومتها مبررًا كافيًا لتُلحق بفتاتها ما تستحقه من أذى وعنت.

....

تركوها حتى أيقظتها ضجة الإفطار والاستعداد للخروج، كان ذلك عقابًا إضافيًا من الأم الساخطة، بطبيعتها كان نوم "راوية" خفيفًا، لكنها وحين تتعب

أو تبذل مجهودًا أو تكون في حالة نفسية سيئة تستغرق في نومٍ عميق، لا يوقظها منه إلا إجبارٌ وإرغام من أقسي الأنواع وأكثرها إلحاحًا، ففي كل الحالات فقد نامت البنت حتى بدأ أخويها يتصايحان حول باب غرفتها، غرفة نوم البنات ويكادان يحطمان الباب تحطيمًا، كان الولدان "زياد" و"علي" يتشاجران بسبب شيء لا يعرفه أحد، نفس الشيء الذي يتعاركان بسببه عدة مرات في اليوم، دون أن يفصحا لأحدٍ عن كينونته، ودون أن تكون هناك وسيلة لفض الشجار سوى أن يتعب الطرفان، ويركنا لفسحة راحة بين جولات القتال، أو يتدخل الأب بصفعة وركلة لكل واحد منهما، يوزع عليهما عقابه في عدالة شديدة ويصرخ فيهما فيرتدعان، كان الأب يبدو ناقمًا وثائرًا فعلًا في تلك اللحظات، غير أنه وفي دخيلة نفسه كان فخورًا وطروبًا لكونه قد رُزق بالصبية، ويتوقع منهما أن يكونا يده الباطشة في كبره.

كانت "راوية" تدرك ذلك الشعور وتفهمه جيدًا، ولعل ذلك أحد أسباب جموحها وعنفها الزائدين بالنسبة لبنت، إذ أنه ربما تعتقد أن تشبهها بالغلمان في سلوكها يقربها من الفخر الذكوري الذي يستأثر به أخويها، ويحق لهما بفضله فعل ما يحبان دون تعليقات كثيرة تدين أفعالهما، كانت تلك فكرة طافت بذهن الأب، لكن الأحداث أثبتت خطئها، فـ "راوية" لم تكن كلفة بتقليد الصبيان لأنها تحب ذلك، أو يرضي طموحًا مكنونًا في نفسها، بل لأنه كان بمثابة درعٍ يحميها، ويوفر لها قدرًا من المتعة الذاتية.

-لكن يحميها ممن، ومن ماذا؟ لم يفكر أحدٌ أبدًا في إجابة لهذا السؤالين العويصين..

صحت إذن على صوت الصياح والتدافع، فنهضت من فراشها ببطء، كانت

تستمتع بالخمول وترى التباطؤ حقًا لها، لم يتعجلها أحد هذا الصباح وكان ذلك غريبًا جدًا، المهم أنها خرجت ببيجامتها المنزلية لتجد الإفطار قد أُعد، بل بدأوا في تناوله فعلًا، جوٌ غريبٌ وتغافلٌ لم تتعرض له من قبل، كان على المائدة طبقٌ كبيرٌ من الفول المضاف إليه قدر مبالغٌ فيه من السمن البلدي بلونه ورائحته المميزة، كانت كمية السمن كبيرة إلى حد أن حبات الفول كانت تطفو في بحيرة شهية منه، وبجانبه طعمية ساخنة، وجرجير مغسول تتقاطر منه المياه، وعددٌ كبيرٌ من أرغفة الخبز الصابحة، بالإضافة إلى زينة السفرة (الطماطم المقطعة، والمخروطة في السلطة، وغيرها، وغيرها)، وجبة تُسيل اللعاب لكن أحدًا لم ينتظر قدوم البنت لتشاركهم هذه الوليمة، بل انغمسوا في تناول إفطارهم دون أن يأبهوا بها، ضغطت تلك الحقيقة المؤسفة على غدة الغرور والاعتزاز بالنفس التي تضخمت لدى "راوية" منذ أن أدركت أنها أنثى تستحق الاهتمام، وجاء ذلك متأخرًا جدًا عن بداية إدراكها لكونها فتاة، وهما الأمران اللذان لا علاقة لهما ببعضهما في حقيقة الأمر، وجعل غضبها يفور، فبمجرد أن نهضت من نومها وألقت بعض الماء على وجهها، حتى خرجت نحو أسرتها المشغولة بإفطارها الدسم، والماء لا يزال يقطر من حاجبيها وطرف أنفها وزوايا فمها، حاملة منشفتها في يدها، وهرعت لتجلس على السفرة، وهي تدمدم غاضبة بصوتٍ سمعته الأم جيدًا:

- "لماذا لم توقظوني لآكل معكم؟!".

كان الجواب في حالاتٍ كتلك من اختصاص الأم، وما دامت الأخيرة قد تجاهلت ما تقوله ابنتها، فكان هذا يعني ألا يتطوع أحد بتقديم ردٍ شافٍ للفتاة الهوجاء الغاضبة، تجاهلوها كلية.. وكأنها لم تعد موجودة من الأساس، غير أنه لم يفت في عضدها، وأرادت بدورها أن تظهر عدم اهتمامها بهم، فلم تلق على

أحدهم تحية الصباح، وأخذت رغيفًا حشته بكميةٍ كبيرة من الفول وأعواد الجرجير، ثم غادرتهم بصمتٍ إلى غرفتها، لقد قررت أن تتعامل معهم بكبرياءٍ ولا مبالاة.

وبينما كانت ترتدي ملابسها على مهل وتعد أدواتها، راحت تقضم بين حينٍ وآخر لقمة من هذا السندويتش المشبع الشهي، وفي الخارج أنهت الأسرة تناول طعامها، فنادى الأب على "راوية "فورًا، تبادل نظرة متواطئة أولًا مع زوجته، ثم قررا أن يمضيا قدمًا في الخطة التي استقر عزمهما عليها، كانا مصممين على تلقين البنت درسًا قاسيًا دون استعمال عنفٍ قد ينحو بها إلى مزيدٍ من الاعوجاج والجنوح، لجأ الأب إلى فكرة الضلع الأعوج فقرر أن يقيمه دون أن يكسره، وفي حالة كتلك كان ذلك صعبًا للغاية وربما مستحيلًا.. خرجت لهما متثاقلة وكأنها لا تريد الخروج، وقررت أن تتذرع بموعد المدرسة للفرار سريعًا، فلم تعد تطيق البقاء بين جدران المنزل دقيقة أخرى بعدما حصل بالأمس وصبيحة اليوم، غير أن الأب فاجأها بقرارٍ لم يكن يخطر لها على بال:

- "ستبقين في المنزل لمساعدة أمك في أعمال البيت.. ويمكنكِ أن تذاكري هنا.. كل البنات يفعلن ذلك".

كان موقف الأب أمام ابنته غريبًا، فرغم أنه كان ساخطًا وناقمًا عليها لما جرؤت عليه إزاء أمها، إلا أنه كان يحادثها بقدرٍ كبيرٍ من السلبية وعدم الاهتمام، بل استشعرت الأم كأنه يخاف من ابنته.

كان ذلك صحيحًا بالفعل رغم غرابته الشديدة، ومرد ذلك الخوف هو مئات القصص التي سمعها الأب في عمله، وفي الشارع، وفي كل مكان عن بناتٍ

مراهقاتٍ تعرضن للقسوة والتعنيف في بيوتهن، فهربن مخلفات لأسرهن العار والهم والشنار، كان السيد "عبد العزيز"، الزوج ورجل البيت ووالد "راوية"، يخشى كثيراً من أن يفلت زمام ابنته حد إقدامها على الفرار من المنزل، كان يؤمن بأن الزمان قد فسد، والأولاد صاروا مسئولية خطيرة ومرعبة، فما بالك عندما تكون بنت، وبنت في مرحلة المراهقة الصعبة المنهكة!

أي قسوة زائدة حتى وإن كانت تستحقها عن جدارة، أو سوء تصرف قد ينتهي به وبعائلته إلى تحمل فضيحة وغمًا يدوم سنين، وقد يُخلف السمعة السيئة لأولاده وأحفاده، كما هو المتوقع في بيئة شعبية لا زالت تتمسك بأهداب الأخلاق والمثل، حتى وإن كانت شكلية ولا يطبق منها شيء في الواقع، كان الأب متعقلًا يحاول مداواة الأمر بحكمة، بينما اندفعت الأم خلف عواطفها، التي لم تستطع أبدًا أن تبرر لابنتها أقدامها على الاعتداء عليها، ومبادلتها ضربة بضربة، وكأنها تتعامل مع عدوة أو ضرة لها!

كلٌ يغني على ليلاه، لكن هنا وفي تلك الحالة فقد كان مقدرًا على "ليلى" أن تمُزق إربًا، بين عقلٍ يحاول إخراج المركبة من الوحل، وعاطفة ترى الغرق في الوحل خير من القبول العاجل بتحطيم كل قواعد وحدود مراتب الأبوة والأمومة والبنوة المقدسة.

بهدوءٍ.. ساق الأب حجته لقرار استبقاء "راوية" في المنزل حتى موعد الامتحانات، لكن البنت لم تصدق أذنيها، للحظة توقع الأب انفجارًا وصريخًا وشجارًا يصل إلى عنان السماء، لكن ما آثار دهشته، وربما حفز عوامل القلق والتخوف الفطري داخله، أن البنت تقبلت الأمر ببساطة.. واصلت قضم لقيمات رغيفها المحشو بالفول، والذي لم تكن قد أنهته بعد، ووقفت وهي في ثوبها

المدرسي الأزرق الرسمي، تراقب أباها وأمها وكأنهما شخصان غريبان هبطا عليها فجأة، وتحاول جاهدة معرفة غرضهما بالتحديد، ثم ألقت آخر لقمة في فمها وراحت تلوكها ببطء، قبل أن ترد ببطءٍ وبرودٍ تام:

- "خلاص يا بابا.. حاضر".

التفت المحترم "عبد العزيز" نحو زوجته مبهورًا مأخوذًا.. وسَرَ "راوية" كثيرًا أن نظرات أمها التي كانت تقف خلف كتف زوجها مصدرة إياه كسيدٍ للبيت، ومسؤولٍ مسؤولية كاملة عن القرار الأخير، قد تحولت في لحظة من نظراتٍ ماكرة وشامتة صريحة إلى أخرى مذهولة وقلقة، وربما خائفة أيضًا..

استدارت "راوية" عائدة إلى غرفة البنات، وصفقت الباب خلفها برعونة، ثم نزعت ثياب المدرسة وبقيت بقميصها الداخلي الأبيض والجوربين، وجلست بهذا المنظر على السرير، ثم سحبت الغطاء وغطست من تحته، وفورًا تناومت وتظاهرت بالاستغراق في النوم، خرج الأب مرتاحًا قليلًا لأن العاصفة المتوقعة قد مرت بعيدًا عن بيته، بينما بقيت "راوية" حتى الظهر مختفية تحت الأغطية متظاهرة بالنوم، متجاهلة محاولات أختها "جنى" لإيقاظها، كما أنها تجاهلت تمامًا وعن عمد نداءات أمها المكررة والمصرة لها.

....

في المساء.. كان كل شيءٍ على ما يرام، وخرج الأب إلى عمله متوقعًا انفجارًا يحصل في البيت بعد مغادرته، لكن النهار مضى بثقله وملله دون مستجدات مهمة، لم تحر "راوية" جوابًا أو رد فعل على القرار المفاجئ الذي أُتخذ بشأنها ودُبِّر بالليل، دون أن يطلب أحدٌ رأيها فيه، وبقيت في البيت ولازمت غرفتها

حتى بدأت الأم تحضير الغداء قبيل الظهر بساعةٍ واحدة، ونادتها بجفاء.. خرجت البنت من غرفتها ورمقت أمها بنظرةٍ متحديةٍ تثير الجنون، لكنها لم تنطق بحرف... لذا لم يكن في وسع الأم رميها بسوء السلوك، أو اتخاذ نظراتها الجارحة ذريعة لتسخين زوجها ضد البنت، كان صوت الأم جافًا وقاسيًا وهي تأمر بكر أولادها بأن تذهب لتغسل المواعين التي تراكمت في الحوض، لم يكن من دأب الزوجة المتفانية أن تترك أواني الإفطار تتراكم دون غسيل حتى موعد طبخ طعام الغداء، لكنها تعمدت ذلك اليوم حتى تتشفى بإجبار ابنتها على القيام بأعمال المنزل تباعًا وتحميلها عبء ثقيل، لعلها ترتدع وتعرف حق أمها وحق أسرتها، وتحسن التصرف بعد ذلك، لم تكن الأم شريرة بالطبع، أو كارهة لابنتها، لكنها ارتأت أن ترك الزمام يفلت تمامًا قد يعود بالضرر عليهم جميعًا وعلى ابنتها قبل كل شيء وأكثر من الآخرين أيضًا، لذلك حاولت تقويمها بأشد الطرق بساطةً ومباشرة، بأن تغمس يدها في النار اليومية معها، لتعرف البنت مقدار الجهد الذي تبذله الأم دون كلل ودون أن تطالب بأجرٍ أو إجازة ولو ليومٍ واحد، لكي يبقى هذا البيت مفتوحًا، وتظل كل مطالبهم مجابة وكافة حوائجهم مقضية، دون أن تنبس بكلمة..

ذهبت "راوية" إلى المطبخ ولم تمر لحظة إلا وسمعت الأم صوت تصادم الأواني المعدنية وتساقطها في الحوض أثناء عملية التنظيف، رضخت "راوية" في نوبة طاعة مثيرة للعجب، صحيح أنها كسرت طبقين من الميلامين، وكانت الأم مؤمنة تمامًا بأن الأمر كان متعمدًا، إلا أنها لم تملك دليلًا تحاكم به ابنتها على الخسارة التي تسببت بها، تجاهلت الأمر معتبرة إياه أهون الخسائر التي توقعت أن تنتج من قرار الأسرة العنتري، وابتلعته مضطرة.. تم تجهيز الغداء وانتظر الجميع قدوم الأب الذي جاء في موعده كعادته، إنه رجل أسرة محبٌ

لبيته وعائلته، كان شابًا من شباب أواخر السبعينيات الذين ملأت أحلام وردية كثيرة أدمغتهم، لكنهم تربوا في فترة كان كل شيء متوفرًا فيها دون إفراط، ونشأتهم في حمي مجتمع يقمع تخيلاتهم وأحلامهم المتعلقة بالجنس الآخر، ويصمها بكل النقائص ومرادفات السقوط والتحلل، جعلته يقضي زهرة شبابه منتظرًا فرصة أن يُقبل امرأة ولو لمرة واحدة، كانت عروسه أول بخته من كل النواحي، وكذلك كان هو بالنسبة إليها، قلبان أغلفان، تحررا من حب المراهقة بكل صعوباته وانعدام تأثيراته العملية، واحتفظا بقلبيها سليمين نقيين، حتى إذا التقيا تحت المظلة الشرعية التي يرتضيها المجتمع، وجد كلٌ منهما في الآخر ضالته، فتعلقا ببعضها تعلقًا شديدًا، أو على الأصح تعلق كلٌ منهما بالمعنى والمطامح التي يوفرها له الآخر، والتي لم يتسن لأى منهما أن يعيشها أو يتذوق حلاوتها من قبل الزواج.

الرجل تحديدًا كان مفتتنًا بأسرته، وخصوصًا لأنه تربى على احترام قيمة العائلة ومعناها، الأسرة والدفء والأولاد، وإشباع الرغبات تحت إطار شرعي واجتماعي يمنح الطمأنينة وهدوء النفس واستقرارها، لم يعرف هذان الشريكان المراهقة العنيفة القاسية التي تشوه القلب وتمزق النفس وتترك في الروح آثار ندوب لا تندمل أبدًا، لذلك كان جنوح ابنتهما المراهقة يثير رعبهما، وكان أكثر ما يخيفهما هو أن يفشلا في التعامل مع الأمر، فيتحطم ركنٌ مهمٌ من عائلتهما دون أن يستطيعا رأب الصدع أو ترميم البيت كما يجب.

بمجرد أن أَهَلَّ الأب بطريقته المميزة في الإعلان عن قدومه حتى اختفت "راوية" في داخل غرفتها، تمنطقت الأم بصبرها، وسألتها عما إذا كانت لن تشاركهم في وجبة الغداء، فأجابتها الأولى ببرودٍ تام:

- "لست جائعة".

لم تكن تلك هي الحقيقة، لكن البنت ابتكرت خطة لإفشال التصميم الذي وضعه أبواها لكسر شوكتها وإخضاعها قسريًا، كانت خطة سريعة مرتجلة، مردها الغضب وخيبة الأمل، والشعور بأنهما قررا ذبحها بدلًا من أن يحاولا تطييب جروحها المفتوحة، أو حتى محاولة فهم السبب الحقيقي وراء كل ما تعانيه، وما يعانيانه معها من متاعب وشطط وتأزمات نفسية لا نهاية لها.

الأم بالذات كانت المتهمة الأولى في نظر "راوية"، لأنها كانت تعلم وسكتت، لقد كاشفتها ومنحتها ثقتها، فكاد رد الفعل هو التكذيب والنهر والتهديد بكل ما يمكن لأم أن تهدد به، وتستطيع تنفيذه فعلًا، حسنًا، كان حضور الأب يعني أن أوان انسحابها قد حان، دخلت غرفتها وأغلقت بابها، ولم تُرى على الغداء، ومر النهار حتى أذن العصر، وذهب الأب إلى الجامع القريب ليصلي فرضه، ثم اشترى في طريقه قراطيسًا من الفاكهة وعرج على مقلاة كان يعرف صاحبها عن قرب، وابتاع لبًا وفولًا سوداني، كان قلبه قد رق وقرر أن يحاول استرضاء ابنته بشيءٍ من النعم الصغيرة التي تحبها، لكنه وعند عودته إلى المنزل وجد الولدين في الخارج يلعبان الكرة مع لدانهما، أما في الداخل فقد كان ضوء الغسق يبدأ رحلة تسلله إلى داخل العش العائلي الصغير، وزوجته تجلس تمشط شعر صغيرتها "جنى" كعادتها خمسين مرة في اليوم الواحد، بينما لم يكن هناك أثر لـ "راوية"، التي أعلمته الأم غير راضية أنها لا تزال في غرفتها، بعد مدافعة لنفسه وتغلب على وصايا زوجته بأن يتركها - تقصد البنت - تحترق، اتجه الأب ناحية غرفة البنات وفتح بابها برفق.. ليجد الظلام منتشرًا بالداخل، وعلى السرير رأي جسد ابنته ملتفًا بالأغطية بإحكام، مما بدا وكأنه نومٌ عميق تغط فيه، بعد تردد.. قرر الأب ألا يوقظها، وعاد إلى الصالة ليجالس زوجته

وابنته، ثم أمر "جنى" بأن تذهب لتخبر أخويها بأن أبيهما يأمرهما بالدخول، كان الأب قلقًا ومشوشًا.. بينما تظاهرت زوجته بأن الأمر لا يعنيها مطلقًا، لكن في قرارة قلبها فقد كان بقاء "راوية" حتى المساء دون طعام ينخس أمومتها في مقتل.

لكنها تقسي قلبها عنوة لتعلمها الأدب، كل تلك المشاعر المتضاربة لم تكن توزاي شيئًا مما تحس به ابنة الثالثة عشرة، وهي منكمشة تحت أغطيتها، وعيناها مفتوحتين دون سنةٍ أو غفوة، ومن حينٍ لآخر تسقط دمعة حارة على خدها، لكنها لم تسمح لنفسها بأن تنخرط في البكاء، لئلا تشمت بها أمها، أو تضعف أمام نفسها، أو تدع أحدًا يراها مستضعفة خائفة تعالج العبرات وحدها بصمت في غرفةٍ مظلمة، ومحيطٍ أشد ظلمة مما يرين على المرئيات حولها من عتمة وحلكة.

....

كانت الهبة المتوقعة قد اتجهت نحو الداخل، وصوت الانفجار المدوي تحول إلى امتصاصٍ خافت يركز السموم والآفات نحو جسد المضيف، لا يوجهها كرشاشٍ متطاير صوب جسد العدو أو الدخيل، لم يكن قرار استبقائها في المنزل ليعني شيئًا جيدًا بالنسبة إلى "راوية"، ما لم تكن تدرك جيدًا أنه حيلة رخيصة للانتقام، حيلة بائسة من حيل أمها التي تظن أن بإمكانها الإمساك باللجام وتقييد الفتاة حتى تدخلها من أضيق باب دون خسائر كبيرة، في مهجعها استذكرت الفتاة ذكرى معينة كانت تقض نومها وتؤرقها.. ذكري طالما حاولت أن تبقيها في مؤخرة الصورة، وبرغم قدمها فإنها لم تبهت قط، قد تكون ذكريات الأطفال عادة شبيهة بالصور المطبوعة بالأبيض والأسود، تبهت وتختفي تفاصيلها

مع مرور الزمان، على العكس تكون بعض الذكريات حادة وقاسية حتى أنها تزداد وضوحًا وتتكشف تفاصيلها أكثر فأكثر كلما مر عليها وقتٌ متطاول، خاصة لو حمل إلينا مرور السنين فهمًا لحقائق لم نكن ندركها في حينها، كم بنت في فصلها روت لها قصصًا مروعة في رهبة الحمام الضيق، الذي تصطحب كل طالبة (ناضورجية) من صويحباتها معها لتقف لها على بابه، كانت البنات يخشين استعمال الحمام وهن فرادى، غول مخيف يتخيلنه يختفي لهن متربصًا خلف باب ذلك المرفق الذي طالما تلطخت سمعته بالقصص والحكايات حول سكن الجن والشياطين والعفاريت، بل ملك الجان بشحمه ولحمه بين جدرانه العطنة.

بالنسبة لفتياتٍ ولدن في مجتمعٍ يكتم الحقيقة على طرف شفاههن منذ لحظة الميلاد، وحتى قبل أن يتعلمن الكلام نفسه، فإن ملوك الجان والأبالسة لم يكونوا أكثر ما يخيفهن في وحدتهن القاسية والقصيرة جدًا في حمام مدرستهن، ثمة ما يخيف أكثر ويرسل الرعدة في أوصالهن بشكلٍ أشد عنفًا، فقد تحملت معظم تلك الأنفس البريئة حينما كانت لا تزال بريئة، بذكريات تغص لها قلوبهن الناقمة العاجزة عن الغفران أو النسيان، كان لكثيراتٍ منهن قصصًا مخيفة وغريبة التفاصيل.. مع بائع الخضروات المسن الذي استغل انشغال الأم بالتقاط أجود وأحسن الثمار؛ ليتسلل بأصابعه الغليظة الملوثة تحت تنورة الطفلة ذات الأربع أو الخمس سنوات، أو ذلك القريب الخريج الذي اؤتمن على تعليم أطفال البيت، فراح يعلمهم جدول الضرب وألف باء، مستغلًا فرصة انكباب الولد على حل تمارينه المستعصية، ليجلس أخته الصغيرة غير المدركة على حجره، متظاهرًا بأنه يدرسها بضمير ويتعمد ملامستها، أو اعتصارها بين ساقيه، أو تقبيلها خلسة، اعتصرت الأيدي الدنسة ثمارًا لا تزال تتطلع نحو موسم نضجها، لم تمنحها فرصة لتستوي على مهل، بل أرغمتها على أن تطرح بذورها محملة بقطرات السم

وتنشرها حرة في الهواء، بذورٌ لم تنضج من الأساس، بل أُطلقت كرصاصة غير مغلفة تصوبها يدٌ باطشة لا تعرف الرحمة، مشوهة معنى الحياة ومعنى الموت في لحظةٍ واحدة، سقوطٌ حرٌ ليس في اتجاه الجاذبية تلك المرة بل مضادٌ لها، بحيث يبقي كل شيء معلقًا في الهواء، لا هو يتشبث بالأرض وثقل أمنها وطمأنينة الرسوخ فوقها، ولا نبتت له أجنحة فيحلق مع الطيور دون أن يخشى السقوط.

الجاذبية أمن لمن يستطيع أن يتعامل مع قوانينها، لكن حين تتغير المعادلة تترك الأيدي الأذيال التواقة إلى حرارة التمسك والتعلق لتنطلق نحو الفضاء بلا رابط، بلا رادع، وبلا فرصة للنجاة، كانت تجارب البنات مروعة، يحكينها بهمس، يملئهن شعورٌ بالإثم والذنب، جللهن المجتمع بالعار لمجرد كونهن إناث، فبتن جانيات لا مجني عليهن، كل منهن كانت تروي قصتها المخزية وهي تبحث عن مبررٍ لتبرئة قاتلها، هل كانت حلوة بزيادة، هل تركت يد الأم، هل رفعت ذيل فستانها ففتنته بسيقانها الناحلة، وقميصها التحتي المرقع؟!

تجارب مرعبة، لكن تجربة "راوية" كانت أكثر رعبًا، والسبب أن الجناة والمتهمين في قصص الأخريات كن الغرباء، حتى من كانوا منهم ممن يحسبون على العائلة فقد كانوا غرباء بدورهم، بعيدين جدًا عن إدراك طفلة لشيءٍ اسمه صلة قرابة، هذه الرابطة المقدسة التي لا نفهم لها معنى خارج نطاق الأبوين والأشقاء في أولى سنوات عمرنا، أبناء عم، أقارب درجة ثانية أو ثالثة، معلمون يأتون إلى المنزل، بائعو خضروات وفواكه في السوق، كلهم.. كلهم كانوا مشمولين برحمة أنهم غرباء ولا يُعاب عليهم، الغول لا يأكل زوجته، هكذا علمتهن الجدات الراسخات في أصولٍ عفى عليها الزمان، لكنه مع ذلك أكلها أكلًا، فإذا التهم الغول غريبًا عُد ذلك طبيعيًا، أما تجربة "راوية" فكانت مرعبة من حيث

أنها جاءت من مصدر الأمن ومنهل الطمأنينة، ممن لا يُرجى منه مظهرًا ومخبرًا، إلا أن يكون هو المحامي والمدافع والمقاتل في سبيل الحماية والتوطيد، وليس الجاني والجلاد!

كلما تذكرت البنت أنها مُنعت من الكلام، قُمعت روايتها بقلة التصديق، وتهم الخيال وقلة الأدب، وعوقبت جراء تجرؤها على الحكي بالحرمان من اللعب مع ثلاث بنات كن رفيقات طفولتها الدائمات، لأنهن يعرفن أكثر مما ينبغي (أعينهن بجحة ووجوههن مكشوفة) كما قررت الأم، الحامية التي انضمت إلى الجلاد في لحظة تخبط، وقلب أدوار مذهلة ومثيرة للحيرة، أكانت تكذب ابنتها، أم كانت تحميها من الحقيقة عبر اتهامها بالكذب، تحاول محو الخبرة السيئة بإنكارها والتعتيم عليها؟!

ثقافتها الشعبية لم تكن لتجد مخرجًا مناسبًا يورط كل الأطراف، مثلما يمنح التبرئة لمن يستحقها، دون ثمنٍ فادح يدفعه الجميع، أُفقها ضيق وثقافتها محدودة، وهي معذورة في ذلك، فقد ولدت وتربت في حقبة كان فيها مصطلح تحرش يعد شيئًا لا معنى له، لا وجود له، شيءٌ يحدث مع الأُخر وللأُخر فقط، ولا معنى أن يحدث لبناتنا، إننا نربي رجالًا مهذبين، يعرفون معنى الشرف والنخوة والمروءة، ونختن بناتنا قاطعين كل محاولة لمعرفة سر أجسادهن، هذه الأجساد التي يجب أن تبقى نظيفة، بريئة وطاهرة، حتى يأتي من يتملكها شرعًا وقانونًا برضا الأهل والعائلة والمجتمع والله، حينذاك لا يبقى للكلام عن الجسد معنى، فالبنت لا تعرف جسدها لأنه لم يتم بيعه بصك ملكية بعد، خزانة مغلقة، فإذا ما تزوجت انتقل الصك مع حراسته المشددة، ومفاتيحه الألف التي تنوء بها عصبة (قارون وسحرة فرعون)، إلى المالك الشرعي، ووحده يملك حق

فك القفل، أو ابقاءه مغلقًا حتى الموت، لا حق للفتاة في جسدها، ربما في روحها، في حياتها، في الشعيرات التي تتساقط مع تمشيط شعرها، وتدسها بين أصابع قدمها لتصنع منها كرة تخفيها في كوة مسحورة بالحائط، بعيدًا عن أيدي السحرة والمشعوذين والجن وملك العفاريت، لكن جسدها بالذات لا يتم نقل ملكيته إليها هي أبدًا، تظل خارج الحفظة المثمنين، ولا حق لها في التعرف عليه وتَلَمُسُه، ويسقط حقها حتى في الدفاع عنه خشية جلب الفضائح والعار، لمن لا يستعرون من أفعال الآخرين أبدًا، يستعرون من ردات فعلهم هم فقط!

-من يلوم أمًا كتلك على ما تحملت به من ميراثٍ ثقيلٍ ومجهدٍ ومرعب؟!

لكن للميراث سمومه وحقوقه التي يُطالب بها بكل عنفٍ وقسوة، وللذكري حرارة تجعل النسيان شبيهًا بالسلوك الطبيعي، نتكلف لنكون على طبيعتنا، ونحاول أن ننسى فننغمس في الذكري بصورةٍ أشد، ويستحيل مع كل محاولة نسيان محوها من خاطرنا وروحنا.

ماذا يمكن للفتاة أن تفعل في تلك الحالة، تقطع بسكينٍ الجزء الذي دنسته الأيدي الغازية الآثمة، أم تحاول فقط أن تعرف لما يُحاط ذلك الجارح الهين بكل تلك القداسة والرعب، ومحاولات الغزو المشينة المجردة من كل رحمة لطفولةٍ أو غفلة، أو براءة تفطر القلب، مهما كان قاسيًا أو متحجر.

يكون بلوغ النساء هينًا سريًا، تتستر الأيدي والأفواه والنظرات المحذرة على الفضيحة، إنه النضج والنمو بكل عواهنه وزلاته ومخاوفه، تتكتم الأم على الحقيقة، وتخفيها عن الأب أطول وقتٍ ممكن، فنظرة الأب إلى ابنته تتغير فور إدراكه أنها وصلت إلى سن النساء المكروه والمخوف، لأنها تتحول في ساعة من الزمان من فتاةٍ صغيرة، طفلة تلهو وتركض وتلعب وتبحث عن العبث البريء إلى

كتلة من المقاصد والأهواء، محاطة بالغرض والمخاوف والقلق الأزلي الذي ينشأ مع لحم الرجل الشرقي بسيط التفكير، ومحدود الثقافة:

- "لديك بنت وعليك أن تحافظ عليها".

ومهمة الحفاظ تكون من نصيب الأب، أما العقاب والمحاسبة فيكونان دائمًا مخصصين للأم، قلبٌ كاملٌ لأدوار الذكورة والأنوثة، ذلك أن للبنت قانونٌ عكسي ومخالف تمامًا للقانون الذي ينشأ ويدرج أخيها في ظله، إنها تصير حملًا ثقيلًا على عاتق الأب، في نفس الوقت الذي يتحرج فيه رجل البيت من أن يمد يده على ابنة مراهقة، أو يضربها أو يعنفها، تنتقل سلطات المحاسبة والتدقيق والعقاب الصارمة إلى الأم، بحسب الانتخاب الطبيعي الأعرج والأعمى، فتصبح هي القيمة على تنفيذ إملاءات المجتمع، والنساء أشد ضراوة وقسوة في فرض أحكام المجتمع الجائرة على بنات جنسهن، ربما لأنهن محاطات بالشك وسوء الظن منذ البداية، كالعبيد من ذوي الياقات البيضاء، عليهم أن يسرفوا في تعذيب وجلد أبناء جلدتهم المعذبين، ليبرهنوا على إخلاصهم وولاءهم، وانحيازهم التام لصاحب السلطة ومالك السياط، في حقيقة كتلك يكون التأمل عبثًا، ومحاولة التفاهم أو التوسط الصحي أمرًا مستحيلًا، لم تتقدم الأم لتكون أمانًا لابنتها، بل تركتها في مهب الريح، تتساءل عما يحمله جسمها من أسرار، تدفع رجلًا مشمولًا بكل دواعي الاستحالة في التصديق، وعدم إمكانية حتى مناقشة فكرة إقدامه على ذلك، يتنازل عن احترامه ورهبة سنة ليلاطف طفلة في عامها الخامس، ويؤذيها من حيث يظن أنها لا تفهم ولن تتأثر، ضبابية المعرفة جعلت البحث عنها مطلبًا ملحًا.

كانت الفتيات في المدرسة يوفرن مصدرًا للمعلومات، معلومات وفيرة شكلًا فقيرة ومجدبة موضوعًا، ينقلن همسات الأمهات، وغمزات الرجال الكبار

السرية، التي اطلعن عليها عفوًا في حفل زفاف، أو أثناء تقديم القهوة والشاي لضيوف الأب، ويتحدثن عن تجارب معظمها من عينة فلانة قالت أن فلانة رأت علانة تفعل كذا، مع انقطاع السند والعنعنة التي كانت تقف دائمًا عند الراوي الثالث ولا تتخطاه أبدًا، ودخول سلسلة (اللهم بارك) عملاقة من الرواة المجاهيل، كان التعويل على رواياتهن غباءً مطلقًا، فقط قليلات منهن كن يمتلكن خبرات حقيقية، وفي مجتمعنا لا يتكلم دائمًا إلا الجهلاء، أما من يعلمون الحقيقة عن معرفة وخبرة فهم آخر من يصرح بالأمر، إن تجرؤوا وصرحوا به من الأساس.

وفي غياب منهل معلومات شرعي ومفيد، كان البديل هو العكس تمامًا، غير شرعي ولا مقبول، ومضر ومضلل تمامًا، عرفت "راوية" طريق المصدر المضاد منذ عام.. في إجازة الصيف، بعد انتهاء امتحانات الصف الثاني الإعدادي، لم تكن نتيجتها قد ظهرت بعد لكنها كانت متأكدة من نجاحها:

- "كل الطلبة ناجحون هذا العام".

ربما بسبب رضا رباني تجاه وزارة التربية والتعليم، أو تجاه مدرستهم على الأخص، لكن الرضا الشامل جعل الأفئدة في حالة اطمئنان، فانقضت الأشهر من منتصف مايو حتى أول أسبوع في سبتمبر في لهوٍ ولعب، كالحياة الدنيا لابد لها من تفريج وإلا ماتت القلوب همًا، في لحظة شغف بحقيقة أن له أولاد يكبرون، وتستطيل قاماتهم، وأنه قد غدا تقريبًا (أبو العروسة).. قرر السيد "عبد العزيز" أن يقدم هدية لابنته، أهداها هاتفًا محمولًا بشاشةٍ قياسها أربع بوصات، اعترضت الأم وزمجر "زياد" غاضبًا ولوي بوزه، صالحه الأب مع وعد بحصوله على هاتف مثله حين يصبح في نفس سن أخته الأكبر، بينما تجاهل اعتراضات

زوجته، ملوحًا في وجهها بالاعتبار الذي تسقط أمامها كل الوسائل الدفاعية والحيل البارعة للأمهات:

- " اتركيها تفرح".

فتركتها.. فرحت "راوية" جدًا، وقبلت أباها على خده قبلة هينة، أراد أن تطبع قبلة أكيدة وأشد ثباتًا، لكنها أجفلت حين طوقها بذراعيه، لم تنتبه الأم للأمر، وعدته ملمحًا طبيعيًا من ملامح النضج لدى البنات، يخجلن من جميع الناس حتى والدهن نفسه، ولتكتمل فرحتها أخذها في صبيحة اليوم التالي، إلى أحد محال الموبايلات المتناثرة كسرطانٍ منتشر حول الحي، وأصبح لدى الآنسة "راوية" خطٌ مسجلٌ باسم والدها، وباقة تستطيع منها أن تنفذ إلى النت بسحره وغموضه، وتلعب (بابجي)، لم يكن الأب المنغمس في حومة البحث عن لقمة العيش، والبعيد نسبيًا عن تحديثات وتطبيقات عالم الإنترنت الشاسع، بأروقته المضيئة العامرة، وممراته السرية المظلمة المخيفة، يعرف من الألعاب سوى اسم لعبة (البابجي)، لكن "راوية" لم تكن تريد أن تلعب (البابجي)، بل لقد أرادت أن تعرف نفسها أكثر عن طريق مصدر آخر، غير ما تحمل به وعيها وروحها الطافحة بالأذى من همسات البنات ومكرهن وشائعاتهن الخاطئة، في ليلةٍ آوت إلى فراشها في غرفة تُركت لها وحدها حتى حين كانت "جنى" قد فارقت سن الرضاعة، حيث حمي الزن والبكاء، واستبدال الحفاضات المنزلية، والرضاعة كل بضع ساعات، لكن لا يزال مكانها المناسب بجوار أمها، قريبًا سوف تصبح قطعة اللحم المزعجة تلك شريكًا مقاسمًا لبكر العائلة في كل شيء، لكن الآن عليها أن تستمتع بالانفرادية التي توفرها لها وحدتها كبنتٍ كبيرة، ليس من المستحسن أن تنام في غرفة واحدة مع ولدين، حتى ولو كانا أخويها الصغيرين، في ساعات الليل

كان الهدوء سائدًا، فتسلل الهدوء بأثره العكسي مطالبًا بقربانٍ مبدئي من حرارة الاطلاع، وحمي التلصص على المحرمات، كان لـ "راوية" تجربة وحيدة من تلك العينة الأخيرة منذ وقتٍ قريب، من خلال ثقب مفتاح غرفة أبويها، ودون قصد أو نية مبيتة، لكن الآن فهي تطالب بحقها في أن تكتشف بنفسها الأسرار التي حُجبت عنها طويلًا.

كانت تعرف عنوان ذلك الموقع، لهجت الفتيات باسمه في بهجةٍ آثمةٍ في أحد غزوات الحمام المتكررة، لم تكن إنجليزية البنت جيدة، لكنها لم تحتاج لأكثر من مجرد معرفة كتابة أول حرفين من اسمه الشهير حتى انفتحت أمامها طاقته الجهنمية، بعد ثلاث ثوانٍ بالضبط.. كانت البنت تقفل الموقع مبهورة الأنفاس!

انخطف قلبها لمنظرٍ عابر، لقطة تظهر إعلانًا مشينًا، كانت لقطة سريعة وخاطفة، لكن نبض "راوية" كاد أن يتوقف، فلم يسبق لها أن رأت شيئًا كذاك، احتاجت دقائق طويلة لتتغلب على انفعالاتها، ثم بفضولٍ أشد عادت تفتح الموقع المشؤوم، في تلك الليلة فتحت وأغلقت النافذة المطلة على فردوسٍ كالجحيم عشر، أو خمس عشر مرة في ساعةٍ واحدة.

أطل عليها الصباح وهي عاجزة عن النوم، وملأ الضوء جنبات حجرتها، كانت مبهورة ومخطوفة مما رأت، انفجر وعيها في فيضٍ من الألوان والمناظر المتداخلة، ومع كل شعور الإثم والخطيئة الذي لازمها، أشرق عليها الصباح وقد عاهدت ربها ونفسها ألا تعود إليها، قامت مع صوت الأذان للوضوء، فلم تحسن الوضوء، وصلت فلم تحسن الصلاة، وفي جلسة التشهد تقيأت رغمًا عنها، شملها تقزز أُضيف إلى هلعها ليصنعا تأكيدًا وموثوقية لقرارها المتسرع المرتجل، حافظت البنت على انفعالاتها مشتعلة حتى منتصف النهار، ثم خمدت الشعلة

في بدايات المساء، وعادت كل الأمور إلى طبيعتها، لم تلحظ الأم تلجلجًا أو اضطرابًا، فقط تساءلت بلا اهتمام عن أخبار الهاتف الجديد، فردت البنت مشيحة بوجهها، لئلا يرى أحد سمة الإثم والخطيئة على ملامحها:

- "حلو".

كلمة واحدة وكفى، لكن صعود صهوة المساء بكل عنفوانه، وقوته التي تطرد بلا رحمة طيبة النهار وبراءة ملامحه المصطنعة، جعلت العجلة تدور دورتها الجهنمية من جديد، مستهينة بكل المثل والمطالب التي تؤكد عليها التربية الحسنة، ومتجاهلة حتى وعدًا قُطع للرب ذاته، وإن كان رأيه فيه لم يظهر لأحد قط، وفي تلك الليلة الثانية زادت جرأة "راوية" كما زادت معارفها، وتحت ستارٍ من غطاء سريرها، الذي اندست تحته معتقدة أن الله لا يراها، أو على الأقل لن يحاول التلصص عليها، بعد أن أظهرت رغبتها في أن تكون في موقفٍ لا يطلع عليها أحد فيه.. راحت الفتاة تتنصت على أسرار ما كان يجوز لها أن تكتشفها، مُحملة وعيها الذي لا يزال ينمو على مهل بمعارفٍ مرعبة، معلومات مروعة تضاعف عمرها، وتضيف أحقاب باطلة لم تعشها ولم تمر بها قط إلى سنين عمرها الحقيقية، أهينت طفولتها أشد الإهانة، وترقب صباها أفوله قبل أن يبدأ، بنضجٍ حارٍ ومباغت وغير طبيعي، نمو ندفع ثمنه غالبًا عمرًا تمردنا عليه حين كان موجودًا، وتقنا إليه عاضين عليه النواجذ حين تسرب، وأصبح من المحال استعادته مرة أخرى، بعد أن ذهب زمنه وزماننا معه.

■■■

الفصل الرابع

مرت أيامٌ هادئة هدوءًا مريبًا، وبعد يومين من اتخاذ القرار الموجع الذي قُصد به أن يكون تأديبًا وشدة أذن لا أكثر، سُمح لـ "راوية" أن تذهب إلى مدرستها لتتابع وترى إن كان هناك أجزاء محذوفة من المقررات الدراسية، أبلغت الأم الفتاة بالأمر في السادسة والنصف صباحًا، كانت البنت مستلقية على فراشها، فتمطت بكسلٍ مفتعل، ثم تثاءبت بصوتٍ مرتفع قصد به الإغاظة، وقالت متظاهرة برغبتها في الاستغراق في النوم فورًا:

- "أنا كسلانة! سأذهب في يومٍ آخر".

بوغتت الأم برغبة ابنتها في البقاء بالبيت، وهي التي كان لا يقر لها قرار حتى تخرج من البيت مرتين أو ثلاثة على الأقل، عدا مشوار المدرسة الذي لم تكن تعده خروجًا من الأساس، وتفويتها فرصة جاءتها حتى طرف سريرها للذهاب والتسكع حول المدرسة كما كانت تفعل كل يوم، اغتاظت الأم من أسلوب الابنة الذي أحست فيه رغبة خفية في الاستهزاء بها والتقليل منها، فهتفت لتسد عليها باب الجدال والأخذ والرد، وهو ما لم يكن قلبها يحتمله في تلك الأيام الأخيرة:

- "براحتك".

كانت تلك ضربة استباقية لخطط البنت في التمرد وإشعال حريقٍ ثانٍ في البيت، تمنت نوبة صياح وزجر، وخططت لتحويل هذا الموقف الصغير لصالحها بشكلٍ يفوق خبرة أكثر اللاعبين المحنكين في تسديد الأهداف في شباك المنافس

الغافل، فأصيبت بصدمة.. صدمة لم تستغرق أكثر من ثانيتين، لكنها سرعان ما تغلبت عليها وردت لأمها الضربة مضاعفة حين قالت متعمدة أن يبدو صوتها مجهدًا ومستهينًا، وهي تغطس تحت الأغطية لتعود إلى نوبة نومها التي قوطعت على غير انتظار:

- "اتركيني أنام من فضلك، ولا توقظيني حين تستعدون للذهاب إلى بيت عمتي، لن أذهب معكم، سوف أبقى هنا لأذاكر في هدوء".

ابتسم جانب فيه الأم رغمًا عنها، إذ كانت تعرف أن بين ابنتها وبين المذاكرة بالطريقة التي تفهمها سيدة بسيطة التفكير مثلها - ما صنع الحداد - لكنها لم تعلق على رغبة ابنتها في البقاء في المنزل، وعدم مصاحبتهم في زيارة منزل عمتها، التي تقطن في عنوانٍ لا يبعد أكثر من ربع ساعة عن منزل عائلة شقيقها، هذه العمة التي تنطبق عليها كل صفات (الحرباية)، كما تواضع الناس على وصفها وتحديد درجات تلونها وخبثها، والتي كانت تحتفل في ذلك اليوم بشبكة ابنتها، وكان لابد طبعًا من الذهاب وحضور المناسبة العائلية، وهي فرص نادرة كانت "راوية" تفلت فيها تمامًا من سيطرة الأم ومراقبة الأب، فتختلط بالفتيات وترقص مرحة، بل ويُسمح لها أيضًا باستعمال الروج وأدوات الماكياج على خفيف، فلماذا إذن تفوت البنت على نفسها فرصة من الذهب كهذه؟!

لم تفكر الأم مرتين، بل تركتها كما تشاء، عازمة على ألا توليها اهتمامًا أكثر مما يجب، من جانبها فقد كان ذهاب الأم قد أزاح عبئًا عظيمًا عن كاهل البنت، التي لم تكن مشتاقة للنوم بأي حالٍ من الأحوال، فهي لم تنم منذ أن سمعت أذان الفجر، من المسجد القريب منذ نحو الساعتين، كل ما كانت تطمح إليه أن تغادر أمها، وتتركها وحدها، ذلك لأن البنت كانت تقوم بنشاطٍ ما، وكانت تنتظر

ساعة مغادرة العائلة بأكملها إلى منزل عمتها لتكمل نشاطها المريب، لكن بشكلٍ عملي تطبيقي هذه المرة، وذلك ما كانت الأم المتعجلة الغافلة لاهية عنه، وغير مدركة له تمامًا.

....

في السادسة مساءً ذهبوا كلهم وتركوها بمفردها، ولكن قبيل خروجهم.. واستفادة من حقيقة أن البنت موجودة في البيت ولن تذهب معهم، ألقت الأم أمرًا ديكتاتوريًا مشمولًا بواجب النفاذ إلى الفتاة التي تراقبهم بكسل، وهم يتأهبون للرحيل:

- "نظفي الحمام وامسحيه جيدًا بدلًا من اللعب بهاتفك".

كانت الأم متأكدة تمامًا أن أمرها لن يُنفذ، بل ربما دفعت لهجتها الصارمة الابنة الحرون العنيدة إلى إغراق المرفق الصحي الوحيد في الشقة بالمزيد من المياه المسكوبة عندًا ومكابرة، لكن الأم المصرية الصميمة أرادت أن تبدو في مظهر الممسك بزمام السلطة في البيت أمام أولادها الصغار، تُلقي الأوامر ولا يهمها كثيرًا أن تُنفذ أم لا، المهم هو أن يكون لها الحق في إصدارها وحسب، من جانبه كان الأب يرى أن البنت نالت ما يكفيها من عقاب، ويرغب في أن يقنع زوجته بإرسال "راوية" إلى مدرستها بداية الأسبوع القادم، فقد كانت الليلة ليلة الخميس، ويكتفون بهذا القدر من استبقائها في المنزل عنوة، تلك كانت الخواطر والرغبات التي تتمحور حولها حياة الوالدين، التكريس الكامل لأعمارهما لأجل الارتقاء والعبور بأولادهما، جعل تفكيرهما حتى في حياتها الخاصة والزوجية معًا يختلط بهموم الأولاد ومشاغلهما، منذ نعومة أظفارها أدركت "راوية" أن الزواج والإنجاب يعني تنازل المرأة عن جزءٍ كبيرٍ من حريتها وحقها في الحياة لصالح أناس

آخرين، أناس تهبهم لحمها ودمها وحياتها، لكنهم في الواقع منفصلون عنها، يمتصون حياتها وصحتها شيئًا فشيئًا، على مدار الأيام كانت الفتاة ترى أمها غارقة في المسح والكنس والجلي وغسيل الأطباق ونشر الثياب، وطهو الطعام، وترضية الخمس أنفس التي تشاطرها البيت، ولا تفكر في نفسها إلا لمامًا، نزواتها ورغباتها كلها في جيبها لا يأبه بها أحد، ولا يسألها عنها أو يهتم بها أحد.

مرة واحدة فهمت "راوية" معنى أن تولي الأم التي خُلقت في وعي مجتمعها الصغير لتكرس كل لحظة من عمرها لزوجها وأولادها وعائلتها، بعض العناية والاهتمام لنفسها، في سن الخامسة رأت الفتاة أمها وهي تعتني بجسدها الجميل، برغم المحشي وأطباق المكرونة شبه اليومية، والعكوف على النشويات كواجبٍ طبقيٍ واجتماعيٍ مقدس، فقد كانت الأم تملك جسدًا متناسقًا إلى حدٍ ما، لم تكن سمينة أو جسيمة كـ "أم شيماء، وأم حسن، وأم معاذ، وأم حفصة" وكتيبة الأمهات ثقيلات الوزن اللائي كن يحطن ببيتهم الصغير، إحاطة ثلة من الشمشرجية وحراس الفضيلة بمواقع الثغور، ومناطق الحدود الواجب حراستها والسهر عليها.

كانت النسوة في هذا الحي يتولين عمل الرجال ومهام النساء في نفس الوقت، ودون تداخل بين واجباتهن الثقيلة، والحقوق العديدة التي ينفرد بها الطرف الآخر، حتى دون أن يؤدي لقاؤها الثمن العادل والمطلوب، وكل هؤلاء كن نسخة مكررة ومتشابهة من الوجوه ومعالم الجسد، وتضاريس الحياة المحفورة بسكينٍ حامية على وجوههن، غير أن أمها كانت تملك حسًا مختلفًا قليلًا، وإن كان لا يميزها بشيء عمن حولها من زوجات وربات البيوت، كانت المرأة تحافظ على جسدها ببعض الخلطات والوصفات الشعبية الأقل شيوعًا، وتعتني بشعرها وشعر

بنياتها بالدهن والكريمات التي تشتريها من العطار، ثم تتولى بنفسها عملية خلطها ومزجها بمقادير محسوبة ودقيقة، ورثت وصفاتها السرية عن أمها المدللة التي كانت مضرب الأمثال في شبابها المبكر:

- "الكحل لا يفارق عينيها".

ومن هذا الأصل الطيب يبدو أن "راوية" استمدت وورثت ولعها بالطيب والتجميل، وأيضًا نزقها وحميتها وعصبيتها، فقد قيل دائمًا أن جدتها كانت تملك نفس المزاج الحاد، ولعل ذلك بالتحديد كان سبب سكوت الأم على كثيرٍ من تصرفات ابنتها الخالية من أي أثر للأدب، أو التربية الحسنة التي تلقوها أربعتهم من على حجرها، ذلك طبعًا قبل أن يطفح كيلها بتجرؤ ابنتها على مد يدها عليها، فقد كانت الست "هدي" تخاف أن يقارن أحدهم بين أمها العزيزة الراحلة وابنتها، أو أن تسمع غمزًا ولمزًا خفيًا من طرف زوجها، الذي كان لا يخلو من شطحات نسائية في لسانه وتفكيره، ولا يتورع عن تلقيح الكلام الذي يجعل الدماء تغلي في العروق في بعض الأحيان:

- "مش جايباه من بره".

ذاك ما كانت الزوجة والأم الحريصة تخشى أن تسمعه من قِبل زوجها، أو أحدٍ آخر من أفراد عائلته الكبيرة، لهذا كانت تتكتم وتتحفظ على كثيرٍ مما تفعله ابنتها النزقة، وعندما جاءتها الفتاة طفلة في الخامسة تروي لها قصة مخزية، وتبكي دون أن تفهم معنى ما حدث، وتشكو أن رجلًا من صلب أهلها أمسك بجسدها، وداعب ما لا يحل له لمسه من أعضائها بطريقةٍ مهينة.. أخرستها فورًا.. وهددتها بالعقوبة المنتظرة، وكانت هائلة ومرعبة في عرف طفلة أوتيت حظًا قليلًا من فهم الدنيا، وإدراك حقائقها وتبعاتها المخزية، ثم حاولت اقناعها بأنها

أساءت الفهم، وأخطأت فهم مقصد الرجل الطيب، وهل يتصور أحد من قريبٍ حميمٍ هذا شأنه إلا الحماية والمنعة والحرص على العرض، أكثر مما يحرص عليه أصحابه أنفسهم؟!

في ذلك اليوم وحين تُركت لنفسها.. كان لـ "راوية" غرضٌ في وحدتها، إن عالم الكبار يدهشها بعجائبه وخوارقه، لا تفهم كثيراً مما يرمون إليه، ولا تفهم كيف يحبون الكثير من الأمور التي تجدها تافهة، أو غريبة، أو حتى مقرفة ومثيرة للاشمئزاز، لكن البلوغ بكل مظاهره المرهقة ومتاعبه علمها ما لم تكن تعلم، عرفت أنها امرأة كأمها تمامًا، امرأة صغيرة مغلفة بورق السلوفان اللامع المفضض، لكنه غلاف على أي حال، وهي داخله حبيسة تحت مسمى الصون والحماية، كرهت بلوغها حين رأت أولى علاماته، لم ترتعب ككثيرٍ من الفتيات اللائي لم يهيئهن أحدٌ نفسيًا لتقبل المظاهر المزعجة والمؤلمة لمفارقة الطفولة وملاعبها، ونزواتها الحسنة قليلة الخسائر، فقد أُحيطت علمًا بالأمر قبل الهنا بعدة سنوات، كانت البنات يثرثرن حول هذا الموضوع منذ الصف الخامس الابتدائي، بعضهن وصلن سن البلوغ قبل ذلك أيضًا، وكان هذا يفزعها ويؤرقها، ومع كم الشائعات الكاذبة والأساطير الشعبية، وصل الأمر إليها مجسمًا بشعًا ومرعبًا، لكنها لم ترتعب حين رأته، فقد صهرتها تجربتها المبكرة مع حقيقة التدني والسوء التي طُبع عليها الإنسان، كُسرت بيضتها قبل الأوان، وخلطوها بالسكر، لكن السكر لم يذب ولم ينصهر، ولم يتحول المزيج إلى حلوى شهية، فقط عرق كثير محمل بحبات السكر الجافة الغليظة التي لا يتخلف عن تذوقها إلا مرارة في الحلق، ووجعًا في القلوب المصابة الواهنة.

....

قررت "راوية" أن تستكشف عالم الكبار بشكلٍ أكثر فجاجة وانكشافًا، إنها تمقتهم وتحتقرهم.. لكنها شاءت أم أبت أضحت محسوبة عليهم ومعتبرة ضمنهم، والمحسوب منسوب ولو كان معيوبًا، حكمة قديمة سمعتها مرة واحدة من بائعة خضر صعيدية تجلس عند مفترق الشارع، تبيع بضاعة قليلة مزجاة، وتغني حكمها ومواعظها بصوتٍ أجش مرخم النغمات، برغم جلافته وفظاظة منطقه، ولتصل إلى غرضها رغبت في أن ترى المزيد، ولذلك وقبيل إجلاءها قسرًا عن المواظبة على حضور المدرسة، اقترضت من فتاةٍ في فصل ثالثة أول نسخ من مجلاتٍ ما، كان والد تلك الفتاة يعمل في أحد الفنادق، وكان من ضمن مواهبه ونزواته المتعددة سرقة المجلات من غرف النزلاء الأجانب، المجلات الإباحية والتي تحوي صورًا عارية على الخصوص، يدسها تحت ثيابه في غفلةٍ من أصحابها، الذين لا يأبهون غالبًا باختفائها، معتقدين أنها رُميت في القمامة عرضًا، ويجمعها ليرحلها إلى بيته خلسةً بعد عودته، كان يحمل تلك المفاتن سرًا، ويتحرز بشدة أن يطلع عليها أولاده، ويسمح فقط لزوجته في بعض الأحيان أن تتفرج عليها معه، فقط ليعيرها بجمال الأجنبيات الفاتن، ويعقد المقارنات التي لا تنتهي بينهن وبينها، وكعادة كل سرٍ عائلي فقط كان الجميع يعلمون به لكنهم يتظاهرون بالعكس، وهكذا كانت تلك المجلات تتراكم في كومودينو حجرة النوم، الذي تحتفظ الأم بمفتاحه في حمالة صدرها حتى وهي نائمة، لكن وعندما تضيق مساحة الكومودينو الصغيرة بكل ما حُشي داخله من أغراض قُصد أصلًا إبعادها عن أعين الأولاد أو حمايتها من عبثهم، كانت نسخًا من تلك المجلات والصور الخارجة ترحل إلى الجزء الظاهر من عالم العائلة السري، تحت مرتبة فراش الأبوين، كانت الأم تعتقد أن أولادها لا يمكنهم أن يفكروا في تفتيش هذا الموضع، أو أن تمتد أيديهم إليه، وتركها أولادها الخمسة على ظنها، لكنهم في الحقيقة نالوا نصيبهم من نزوات أبيهم، وكان لدى كل واحدٍ منهم عدا أصغرهم

الذي لا يزال يرضع اللبن من الزجاجة، ويبول على نفسه عدة نسخ من تلك المجلات المكشوفة، البنت التي تدرس في الشهادة الإعدادية، وقد وصلت قبل أخوتها سن الإدراك للجسد ومطالبه وأسراره الخفية، لم تكن حقيبتها المدرسية تخلو من نسخة أو أكثر من تلك المقتنيات الثمينة، أحيانًا كانت تقص بعض الصور منها، وتغري بها الفتيات الأقل اطلاعًا، واللائي لم تكن بعضهن يصدقن أن لبقية البنات والنساء أجزاء من جسدهن تشبه ما لديهن من أعضاء، يحرصن على تغطيتها وصونها جيدًا مقابل بعض الحلوى، أو بسكويت وزارة التربية والتعليم الدسم المفعم بالفيتامينات.

"راوية" بدورها كانت مبتزة عظيمة ومحنكة، فانتزعت من فتاة الغلاف نسختين من تلك المجلة المكتوبة بحروفٍ لا تشبه أبدًا حروف اللغة الإنجليزية التي تتعلمها في المدرسة، وقيل من طرف بعض البنات أنها اللغة الروسية، وأن هؤلاء الروسيات هن أجمل النساء على الأرض، وأنهن يتوافرن بكثرة في الغردقة والمدن السياحية:

- "كاد أبي أن يتزوج واحدة منهن على أمي.. لولا أن أمي عضته، وهددته بالطلاق وخراب البيت".

ضحكت البنات ضحكاتٍ مائعة، وقالت إحداهن بقصد إثارة خوف البنت وتكدير عيشها:

- "ولعله تزوجها سرًا على أمك دون أن تعرف".

"راوية" العليمة تدخلت في الحوار ملقية قنبلة زمنية، ارتعدت لها فرائص الفتيات قليلات الخبرة والاطلاع:

- "يا جماعة، الأجانب لا يتزوجون مطلقًا.. يعيشون معًا دون زواج".

انفتحت أفواه البنات من الصدمة والدهشة، وانعقدت ألسنهن، وبهذا كسبت "راوية" بونطًا إضافيًا، سمح لها بسهولة تامة أن تبتز نسختين من المجلات المرغوبة من صاحبتها، دون أن تدفع في المقابل الشيء الكثير.

في وحدتها استخرجت الفتاة كنزها الثمين، من حيث كانت تخبئه جيدًا وسط كومة من الكتب المدرسية القديمة، والكراسات والمذكرات، وتلفها كلها في أوراق جرائد، وتدسها داخل عبوة فارغة من علب الفوط الصحية بغرض التمويه، وإبعاد أي احتمال أن تطال يد أبيها أو أحد أخوتها الذكور هذا الحرز بالتفتيش أو العبث لأي سببٍ من الأسباب، بعد أن اطمأنت إلى أنهم غادروا الأفق الذي يغلف عالمها الضيق، والذي لم يكن يزيد عن الخمس شوارع التي تصلها ذاهبة أو عائدة من المدرسة، بالإضافة إلى الشارع الذي تسكن فيه.. هرعت "راوية" مطمئنة إلى حرزها، وعالجت مراحله المتعددة حتى وقعت في يديها، أخيرًا.. المجلتان المغريتان بأغلفتهما اللامعة، والتي تتصدرها صور نساء ناهدات بأثداءٍ مكشوفة، وشعورٍ شقراء، وأجسادٍ متناسقة مثيرة، تحلب ريق "راوية"، وقررت أن تستكشف عالم النساء الأجنبيات الغريب، والبعيد عنها كل البعد، استلقت على فراشها وراحت تتصفح الصور والصفحات، ابتلعها ذلك العالم السحري.. بحيث أنها وعندما رفعت بصرها الكليل أخيرًا كان الظلام الكثيف يحجب منظر الطرقة الخارجية للشقة، التي يطل عليها باب غرفتها المفتوح، وأهملت البنت إشعال مصباحها الكهربي لاستغراقها الشديد فيما كانت تفعل، ولكن هذا لم يكن كل شيء، فقد كان ثمة صوت خفيف يضرب في باب الشقة المقفل بحرص، صوت المفتاح وهو يدور في ثقب الباب من الخارج.

كالملسوعة انتثرت "راوية" من مكانها، كانت قد غرقت في متابعة الصور المدهشة، العالم الغريب البعيد كل البعد عن مستوى نضج تفكيرها ومدى فهمها للحياة، إلى أن توحدت مع فرضيات المناظر التي تراها، وحتى كادت رأسها الصغيرة المحشوة بالأساطير والخرافات حول جسدها وأجساد الأخريات، أن تنحشر بين زوايا الصور وحواف الأوراق المطبوعة المصقولة، كان صوت المفتاح إذن كافيًا وأكثر من اللازم لإحداث رد فعل قوي للغاية من طرف جوارحها المصدومة، اندفعت الدماء نحو القلب الذي يرتجف، محاولة توفير النجدة والدعم الكافيين للنجاة من هذا الموقف، وتخاذلت ساقاها المتخدلتان، من فرط ما جمدتا عن الحركة فوق السرير لساعاتٍ لم تحس بمرورها، لكن العقل سيد الموقف أدرك أن الجمود والتخشب لن يفيد في ذلك الوقت، بل ربما ضاعف من الخسائر المتوقعة، فأصدر إشارة ديكتاتورية متوليًا زمام الأمور وحده، وجدت الفتاة قوة هائلة تدفعها من مكانها وترميها خارج باب غرفتها، ثم ألفت نفسها تدور على أنوار الصالة الخارجية، والطرقة الوسطى والحمام، تنيرها على عجل، وبعدها هرعت عائدة إلى غرفتها حيث تناولت نسختي المجلتين، وطوتهما سريعًا.. سريعًا، قبل أن ترفع طرف مرتبة فراشها وترمي بهما مدققة في استواء طرف السرير المضبوط والمعتاد، كل ذلك النشاط المذهل لم يستغرق إلا ثوانٍ أقل مما احتاجه الشخص المجهول، الذي يقف أمام الباب محاولًا الدخول، ليحدد المفتاح الصحيح لباب الشقة الخارجي، وكان قد أخطأه مرتين لحسن الحظ الشديد بسبب العتمة الراسخة على عتبة الباب، في الثالثة صدقت النبوءات الشعبية المغرقة في القدم، وكانت هي (التابتة) والناجعة، فوجد المفتاح الصحيح وأداره بثقة في الثقب لينفتح باب شقة الأستاذ "عبد العزيز" على مصراعيه، مرحبًا بالزائرين، كان الأستاذ هو بذات نفسه الذي دخل الآن، جاء الأب تاركًا زوجته وبقية أسرته يمشون على مهلٍ خلفه، كانت الأم قد وجدت عددًا من

جاراتها الثرثارات قرب مدخل البناية، التي تقع شقتها وشقة أسرتها في طابقها الثاني، فلزمت الأصول وألقت عليهن تحية المساء، وتحولت التحية العابرة إلى سيلٍ من السلامات والطيبات، ثم بدأ السؤال عن الصحة والأحوال والشكاوي المتبادلة، وبعدها أبدت إحدى الحرباوات التي تتمتع بقدرة مذهلة على التقاط كافة تفاصيل أية امرأة تمرق أمامها، ولو في عتمة المساء أو في ظلمة القبر نفسها، إعجابها بثوب الأم الأسود المزين بالفصوص اللامعة عند الصدر، ازدهت الأم بتلك الملاحظة فتحول الحوار إلى القماش وأسعار الملابس، وبدأن يقارن بين الجاهز والتفصيل بدقة، حتى كدن يرسمن جداول بيانية ومخططات هندسية تظهر كمية الأموال المنصرفة، تبعًا لكل قسم ونوع من أنواع وأقسام الملابس والثياب، عند ذلك الحد تأكد الزوج أن الليلة ستمر عليهم غالبًا وهم واقفين، يتبادلون أطراف الحديث مع النسوة كثيرات الكلام، لذلك ألقى السلام متجهًا نحو بيته، تاركًا زوجته تحاول التخلص من براثنهن.

وإن بدت شخصيًا مبسوطة للغاية وسط تلك البراثن الناعمة، خاصة مع سيل المديح والإعجاب اللذين أغرقنها به، الولدان "زياد" و"علي" وجدا الفرصة سانحة ليلعبا ماتش كرة من شوطٍ واحدٍ مع بعضهما، حول موقف الأم وجاراتها، ولما أعوزتهما الكرة فقد استعاضا عنها بعلبة مياه غازية معدنية فارغة، راحا يتقاذفانها ويمررانها إلى بعضهما بصخبٍ وسعادة، بينما بقيت "جنى" متعلقة بكف أمها وهي تتأرجح وتتراقص في مكانها، فَرِحَةً بفستانها الوردي الجميل، وربطة شعرها التي أثارت إعجاب وحسد كل مشاريع الإناث في الفرح الصغير.

وحدها "راوية" كانت تتوقع ليلة أسود من قرن الخروب، فقد دلف الأب إلى المنزل ليجدها واقفة لصق باب غرفتها، وصدرها يعلو ويهبط، فألقى ملاحظة سريعة قبل أن يحيي ابنته تحية المساء:

- "ألم تكن أنوار الشقة مغلقة منذ لحظة؟!".

كان الأب يسأل.. لكنه لم يكن مصرًا على شيء، فقد لاحظ العتمة تحت عقب باب الشقة، لكنه فسرها مبدئيًا بضعف عينيه وإرهاقهما بعد تعرضهما لعدة ساعات للأنوار المتلألئة الباهرة في الفرح، بصوتٍ أجش مضطرب هتفت "راوية" نافية تهمة أحست أنها خطيرة وقد تودي بها:

- "كلا يا بابا.. الأنوار مضاءة منذ المغربية".

حدجها الأب بنظرةٍ متشككة، ثم فجأة انفرجت أساريره ومد يده في جيب سرواله الأنيق المكوي جيدًا، وأخرج كومة من الحلوى والشوكولاتات الصغيرة ذات الأغلفة الملونة المحببة، والتي توزع عادة في الأفراح والمناسبات، ووجه كفه المليئة تجاه ابنته التي تقف على بعد أربع خطواتٍ منه، ابتسم بحنان وهو يقدم لها الحلوى التي احتفظ لها بها خصيصًا:

- "إخوتكِ أكلوا كثيرًا في الفرح.. وهذا هو نصيبك".

كانت البنت لا تزال في حالة صدمة وروع.. فتقدمت نحو أبيها الذي ينتظر إقدامها على تقبل منحته شاكرة، ومدت كفها مضطربة لتتناول منه العطية الأبوية، لكن توترها الذي لم تكن قد تغلبت عليه بعد جعل أصابعها ترتجف بشدة، فأمسكت بقطعتين من الهبة بينما تساقطت بقية الحلوى من يدها، لحظها الأب بقلق، وفجأة مر بفكره خاطر مروع ومرعب:

- "راوية.. هل يوجد أحد هنا؟!".

لم تفهم البنت مقصده أول الأمر، لكن رعب الأب مما يسمعه من حكايات وقصص مخيفة عن مراهقي وبنات هذه الأيام، الأولاد الذين يشربون السجائر،

ويضربون حقن ويتنشقون الشبو، والبنات اللائي يعرفن أولادًا ورجالًا أكبر منهن، ويحملن سفاحًا وهن في زهرة المراهقة.. جعل قلبه يدق رعبًا، كان منظر ابنته يدل دلالة واضحة على أنها فوجئت بعودته، لكنها أبدًا لم تكن مفاجئة سعيدة!

تقدم نحوها ونحاها جانبًا.. ثم اندفع نحو غرفتها.. اقتحم الغرفة تقريبًا، وراح يفتش من أعلاها إلى أسفلها، تطلعت إليه البنت بدهشة وهو ينظر تحت السرير، ثم يجري نحو الشرفة ويفتحها بابها المغلق من الداخل، ويفتح الأنوار ليرى الجزء المطل على الشارع جيدًا، وبعدها يعود إلى الغرفة ليفتح الدولاب، وأخيرًا يتجه ثانية ناحية السرير، الذي بدا أنه يثير فضوله ومخاوفه أكثر من بقية الأغراض وقطع الأثاث في غرفة البنات، وزحف على بطنه ليتطلع تحته، وأخذ وقتًا في التأكد من عدم وجود شيء غريب أو مريب هناك، وأخيرًا خرج ليجدها واقفة بانتظاره، وقد خف جزعها، واستعادت لونها المألوف، فيسألها بغلظةٍ غير مقصودة:

- "لماذا كان وجهك أحمر كالدم حين دخلت فجأة؟!".

كان يحاصرها بسؤالٍ معجز.. لكن روعه أفرخ وبأسرع مما كان يتوقع، حين وجدها ترد بشكلٍ منطقي ومقنع:

- "كنت أبدل ثيابي يا بابا".

ثم خفضت رأسها متظاهرة بالخجل، وأكملت لتوصل إليه رسالة معينة فهمها، وأدركها دون حاجة إلى شرحٍ كثير:

- " كل ثيابي".

- "آه".

هتف الأب متذوقًا رحيق النجاة، وقد فهم من ملاحظة ابنته الأخيرة أنها كانت عارية وهو يدير المفتاح في الباب من الخارج، جاءت الأم على الأثر ومعها "جنى" التي بدت على غير العادة هادئة ساكنة، فقد سهرت الليلة أكثر مما اعتادت، وفات ميعاد نومها منذ ساعتين أو أكثر، كما أنها بذلت مجهودًا تشكر عليه في الفرح، فقد رقصت بفستانها الجديد، وطاردت الأولاد والبنات من سنها، وتسللت خلف النساء إلى داخل الحجرة التي كانوا يُجْلسون فيها العروس قبيل قدوم المأذون ليعقد القران، وسرقت نصف الحلوى من أولاد خالتها التوءم اللزجين اللذين حظيا بكراهية كل من وقعت عينه عليهما، لفرط سخافتهما وتدليلهما المبالغ فيه، كانت الطفلة تنام وهي تمشي بجوار أمها، لذلك فقد كان أول نشاط قامت به الأم بعد دخولها إلى منزلها هو سحب صغيرتها من ذراعها، ولما وجدتها عاجزة عن السير أكثر من ذلك.. حملتها إلى حجرة البنات، ووضعتها في سريرها، بجوار سرير "راوية"، بعد أن نزعت فستانها الجديد، تاركة الطفلة تخلد للنوم بقميصها الداخلي، ولكن وبينما كانت الأم تقوم بتلك الأمور الروتينية لاحظت أمرًا غير اعتيادي، بالنسبة لعين أنثى صقر قضت عمرها في الاهتمام بشؤون منزلها، والعناية بتوضيب وترتيب كل شبر فيه، وهو أن طرف سرير "راوية" كان مرفوعًا ومنبعجًا بشكلٍ غريب.

اتجهت الأم بطريقة غريزية نحو سرير ابنتها لتعيده إلى حالته من النظام والترتيب، فسقط قلب الفتاة بين قدميها، خشية أن ترفع أمها طرف المرتبة، فترى تحته ما ترى، لكن الأولى سرعان ما تذكرت تعهداتها تجاه ابنتها المتمردة، فتركت كل شيء على حاله وخرجت من الغرفة سريعًا، بعد أن ألقت نظرة سريعة على "جنى" التي غرقت في النوم خلال لحظات، ومرت بجوار "راوية"، دون أن تحييها بكلمة، وهتفت بتسلط:

- "نظفي ورتبي فراشك يا حبيبتي.. البنات في مثل سنك فتحوا بيوت وحدهم".

كانت تلك طريقة الأم المكررة في إظهار تقصير فتاتها والحط من شأنها، وهو مقارنتها دائمًا بعموم البنات اللائي لم تكن تعني منهن واحدة بعينها، بل تعتقد أن كل فتاة في العالم هي خير وأكثر شطارة من ابنتها، لم تهتم "راوية" بملاحظة أمها، وتجاهلت فكرة تحضير العشاء التي لوحت بها الأم كنوعٍ من إرضاء الضمير المنزلي ليس إلا، فقد كانوا قد أكلوا فعلًا حتى التخمة في منزل العمة، والأولاد نالهم نصيبٌ إضافي من الحلوى والمشروبات الغازية، حتى لم يعد هناك متسعٌ في البطون سوى لشرب الماء، بالفعل لم يتحمس أحد لتناول العشاء، وسرعان ما راح الأب يتثاءب معلنًا عن كسله ورغبته في النوم.

أُخِذ الولدان إلى أسرتهما رغم أنوفهما، فقد كانا يتطلعان إلى مزيدٍ من اللعب والمرح، وخلال نصف ساعة راح البيت كله في سباتٍ عميق، بينما بقيت "راوية" وحدها متوسدة فراشها في عتمة النور الساهر، وعقلها وجوارحها كلها لا يكفون عن التفكير فيما رأت من صور، وما عرفت من معلومات لم تكن تخطر لها على بال، تنازعها نفسها كل بضع لحظات أن تلتقط المجلات المكومة تحت طرف فراشها، لتكمل تصفحها في النور الخابي الضعيف، لكنها تعود وتتراجع خوفًا من أن تحس بها "جنى" الصغيرة، أو يقلقها صوت تقليب الأوراق من نومها، وكانت الأخيرة حشرية وفتانة، ولا يؤمن جانبها أبدًا!

■■■

الفصل الخامس

في بداية شهر إبريل.. وبشكلٍ مفاجئ تمامًا للأبوين، قالت "راوية" أنها تحتاج درسًا خصوصيًا في اللغة الإنجليزية، لم تكن قد أعلنت ذلك من قبل، واندهش الأب لكونها انتظرت حتى أصبح الامتحان على الأبواب لتطلب ذلك الأمر المهم:

- "لماذا لم تخبريني في بداية العام الدراسي؟".

ثم طوى صحيفته التي لم يكن يقرأها كاملة في الواقع، بل كان يطالع صور الممثلات في صفحة الفن خلسة، وهو ينزوي بعيدًا عن عيني زوجته القادحتين، لكن الفتاة لم يبد أنها في ورطة حقيقية، فقد قالت وهي تهتز في وقفتها بلا مبالاة مطلقة:

- "لأنني كنت أذاكر بمفردي".

- "حسنًا، وماذا حدث إذن؟!".

- "أحتاج لمن يشرح لي الأزمنة، وتصريفات الأفعال والجرامر".

تعمدت أن تقول كلمة جرامر بنطقٍ صحيح، حتى تعطي أبويها وخاصة أمها، التي كانت تراقب من الناحية الأخرى من سفرة الإفطار بصمتٍ وترقب، فكرة أنها تستذكر دروسها حقًا، وتهتم بالمدرسة والشهادة، فكر الأب للحظة.. وتطلع حوله متعمدًا أن يزوغ من نظرات زوجته الحادة، التي كانت تحمل له رسائل خفية، لكنها واضحة كل الوضوح، ثم قال متلطفًا:

- "لا يوجد مدرسين يعطون دروسًا في آخر شهر يا بنتي.. الدروس تبدأ في إجازة الصيف.. لقد تأخرتِ كثيرًا!".

فورًا حاصرته ابنته المصرة بردٍ مقنعٍ ومنطقي:

- "سآخذ حصص مراجعة.. كل المدرسين يعملون مجموعات للمراجعة في آخر شهر قبل الامتحانات.. سآخذ مراجعة لمدة شهرٍ واحد".

فكر الأب مرةً ثانية.. ثم وجد أنه أُحيط به ووقع في الفخ، وليس مستعدًا أن يؤنب نفسه أو يؤاخذه الآخرين إن رسبت البنت أو حققت مجموعًا لا يؤهلها لدخول الدراسة الثانوية العامة، وهو ما كان يحرص عليه الوالدان بشدة، بعد لحظة تفكيرٍ عميقٍ سألها:

- "وعند مَن مِن المدرسين تريدين أن تأخذي حصص المراجعة؟".

فورًا أجابت "راوية"، التي أعدت للأمر عدته قبل أن تكلم أباها في الموضوع:

- "عند مدرس فصلي.. الأستاذ محمد".

نفخ الأب خفيفًا، ثم تناول كوب الشاي من أمامه، وتجرع منه رشفة ملء الفم، ثم قال مستسلمًا:

- "حسنًا.. وبكم حصص المراجعة هذه؟".

تطلعت إليه الأم بحدة من الناحية الأخرى.. فنظر إليها للحظة.. ولم يفهم معنى نظراتها، وإن كانت رافضة للموضوع، أم أنها فقط تريده ألا يتساهل مع البنت أكثر من اللزوم، وأخيرًا قالت الفتاة مهونة من الشأن:

- "مائة وعشرون جنيهًا.. بقية البنات يأخذون درسًا عنده طوال العام، أما أنا فشهرٌ واحد".

أحس وكأنها تبكته وتتهمه بالتقصير، فكاد يجيبها بقسوة أنها هي التي لم تطلب ذلك الأمر من قبل، لكنه تذكر ما اتفق عليه مع زوجته بشأنها، فقال منهيًا المناقشة بحزم:

- "حسنًا.. اذهبي إلى المدرسة واتفقي مع الأستاذ، ثم تعالي لتخبريني بمواعيد ومكان الدرس.. هل يُدفع المبلغ مقدمًا؟".

كان يحمل هم المغرم المالي المفاجئ الذي حط عليه، صحيح أن مبلغ مائة وعشرين جنيهًا قد يبدو تافهًا لمعظم الناس، لكن بالنسبة إلى موظف متوسط الحال، ولديه عائلة من خمسة أفراد يعولهم بالكامل وحده، فقد كان قدرًا قليلًا من النقود كهذا كفيل بتخريم ميزانيته، وخلخلة احتياجات البيت طيلة شهر كامل.. فكرت الأم التي لا تهتم بشيءٍ قدر اهتمامها بشؤون وأعباء منزلها ومتطلبات الحياة اليومية التي لا تنتهي أبدًا، أنها وبعد دفع مقابل درس "راوية" لن تستطيع أن تساهم مع ربات البيوت في العمارة في استئجار سيدة لتقوم بمسح وتنظيف سلم البناية كله، كما يفعلن في كل شهر، وعليها في المقابل أن تضحي بشيءٍ من مدخراتها القليلة النفيسة، التي تختزنها في مكانٍ سري، ولا تُطلع على سر وجودها أحدًا في الكون، أو أن تقوم بالعمل البدني الشاق وتمسح السلم بنفسها، ارتعدت حينما تخيلت نفسها تربط جلبابها المنزلي حول وسطها، وتسحب (الجردل، والشرشوبة، وزجاجة الكلور، وفرشاة مسح البلاط)، وتعكف أمام أنظار الساكنات والنسوة الثرثارات من جيرانها، على مسح وجلي درجات السلم كلها، وذلك لأن ابنتها المدللة حرمتها من أربعين جنيهًا، كانت تساهم بها

في تكاليف مسح السلم بواسطة امرأة مُستأجرة، زاد سخط الأم على فتاتها، وكادت ترغم زوجها على رفض طلب الثانية بخصوص الدرس.. لكنها تذكرت أمومتها، ولم تنس أنها برغم كل شيء تتمنى أن تنجح "راوية"، وتصعد المرحلة الثانوية، وتدرس في الجامعة، لعل انكبابها على العلم وتحصيل الدروس الصعبة في الثانوي، يحسنان سلوكها ويجعلان مستقبلها المتوقع أفضل وأكثر إشراقًا.

بتلك الحجة التي لا تُرد.. خرجت الفتاة صبيحة اليوم التالي بثياب وأدوات المدرسة لتذهب وتتفق مع أستاذها على الدرس، وسمح لها أبوها بأن تحضر اليوم الدراسي كله، كانت تلك فرصة سانحة للبنت، التي ملت الجلوس في المنزل في الأيام القليلة الماضية، في الحقيقة نجحت تلك التجربة المبتورة القصيرة في أن تجعل "راوية" تتساءل في رعبٍ عما إذا بإمكانها الانحياز إلى خيار أمها في الحياة، فتحصل على شهادة متوسطة، أو لا تكمل تعليمها على الإطلاق، ثم تنتظر حتى يأتي فارس لن يأخذها غالبًا على حصانٍ أبيض، بل في عربة تاكسي مزينة بالأشرطة الملونة والبالونات، أو حتى توك توك، لتبقى حبيسة بيت طيلة حياتها، تطبخ وتغسل وتعتني بالذرية، وتبقى اليوم بعد اليوم قعيدة قعر منزلها، لا تهتم سوي بتفاهات الحياة اليومية المكررة المملة السخيفة، ولا يتجاوز أفقها حدود شارعها أو بوابة منزلها، كانت الفتاة جامحة وقليلة الاكتراث بدراستها بطبعها، وكانت ترحب بمجيء الإجازة الصيفية الطويلة كمخرجٍ من الواجبات والفروض والامتحانات التي لا تنتهي، لكن تجربة الحبس المؤقت في المنزل، وقد نُزع منها خيار المغادرة والخروج في أي وقتٍ تشاء، بلبلت تلك المعاينة الطفيفة، التي افتقدت حقيقة التلامس الجدي مع واقعٍ لم تجربه قط كما ينبغي، ثقتها في اختياراتها في السلوك والأهداف، ودفعت إلى السطح بتساؤلٍ أرق لياليها مدة لا بأس بها بعد ذلك، وهو ماذا لو أُرغمت فيما بعد على ترك الدراسة كلية، أُو

أجبرت على الاكتفاء بتعليمٍ متوسط، بلا أمل يوفره لها في الحصول على عمل، وتبعًا لذلك أصبحت مكرسة وفقط لدور الزوجة والأم؟!

برغم حداثة سنها فإن الفتاة كانت ذكية، مرهفة الحس، عميقة الإدراك، وقد زادتها التجربة التي احترقت فيها على مذبح شهوة مبتورة، لرجلٍ لا يرعى حق الله أو حرمات الناس، على أن تعرف جيدًا كم هو عالم قاسٍ ومظلم، ذلك الذي تعيش فيه هي ومثيلاتها من الفتيات.

في المدرسة كان الحضور قليلًا، والغياب تم رفعه عرفيًا، صحيح أن الدفتر المخصص لتسجيل غياب التلميذات دار دورته المعهودة على الفصول، بحسب الدور والترتيب المكاني، إلا أنه كان من الشائع والمعروف أن تلك البيانات الخاصة بالغياب والحضور لن يؤخذ بها، فما هي إلا حِبر على ورق، وتحصيل حاصل فقط، ككثيرٍ من الأشياء الروتينية في مجتمعنا المولع بالتظاهر بالفضيلة والنظام، لا بممارستهما والعيش طبقًا لهما في الواقع، حُصر عدد الغائبات فكان جسيمًا، وتم تبعًا لذلك ضم الفصول، كل مرحلة في فصل أو فصلين، وبالنسبة لطالبات الصف الثالث الإعدادي، اللائي نشأن على أن تلاميذ الشهادات لا يربطهم بالمدرسة إلا رابطٌ واهنٌ ورسميٌ للغاية، وأن عملهم في الحياة هو حضور الدروس الخصوصية، ومن ثم الانكباب على الاستذكار في المنزل استعدادًا للامتحانات النهائية، فقد كان حضورهن بطبعه وحتى في بدايات العام الدراسي طفيفًا، وهكذا لم يزد عدد التلميذات الحاضرات في ذلك اليوم الكبير عن إحدى عشرة بنتًا، ثلاثة أرباعهن على الأقل جئن للتسكع في المدرسة ومقابلة الصديقات، والثرثرة البريئة لبعض الوقت، كانت المدرسة هي المتنفس الوحيد لفتيات أُحتسبن ضمن فئة النساء ظلمًا وعدوانًا، فمنذ أن ظهرت عليهن علامات الأنوثة حتى أثقلت كواهلهن الصغيرة بكل هذا الميراث الهائل المرير من المحاذير

والمخوفات، والقصص الشنيعة عن فتيات سقطن وتلوثن وأوحلن أسماء عائلاتهن في الطين، لأنهن استجبن لرغبة طبيعية في اللعب، أو أحببن حبًا بريئًا، أو صارحن فتاة بسرٍ صغير، أو تأملن عملًا دراميًا قادهن إلى توقعات وتطلعات حُرمت عليهن، كل نشاط روتيني وعادي كان يبدو بالنسبة لبنات الرابعة والخامسة عشر هؤلاء مستنقعًا زلقًا، يمكن أن يغرقن فيه بسهولة إن خاطرن بعبور الطريق بقدمين حافيتين، لذلك تمسكن بمظهر الفضيلة المصطنعة، وشاع بينهن التغني بفضائل الأمهات، ومتابعة القنوات الدينية، والانحياز إلى أشد الآراء تطرفًا، والانتشاء بالقصص الدينية المغرقة في الخيال، وتصديقها ومشاركتها بحماسٍ شديد، ثوب شديد الإتقان والحبكة، لكنه هش ومختلق، كن يتخلصن منه ببساطة ما أن يجدن أنفسهن في وسطهن الطبيعي، وسط بنات من نفس أعمارهن وميولهن ونوازعهن التي تكبر في مأمنٍ من القيد، والحراس والسجانين ووكلاء الفضيلة، المنتشرين حولهن في كل مكان، وهكذا كن يتجمعن في الفصول ليضحكن بأعلى صوت لديهن، أو يتهامسن بقصص الإثم والخطيئة التي تثير حماسهن، دون أن يفكرن للحظة في تكرارها، أو تجربة ما تنطوي عليه من أخطارٍ مهلكة، على النقيض من ذلك كانت (الدحيحات)، وهن اللائي وهبن أنفسهن للتحصيل الدراسي، واعتبرن أن التفوق في التعليم، وضمان وظيفة أو عمل خارج المنزل هو الوسيلة الوحيدة لفك القيد العالق بأقدامهن، والهروب من الحصار المضروب حولهن، كلا الطائفتين كانت لها ميولها وأهدافها وخطاياها أيضًا، غير أن الفئة الثانية كانت تحوذ فضيلة مهمة ونادرة، ميزة التماسك والتعاضد، والمشاطرة الوجدانية الحقيقية التي تستهين بما ينتشر بين الطالبات المتفوقات من غيرة متبادلة، ورغبة في إثبات السبق، واستعلاء يصل أحيانًا درجة الغرور الفج المستقبح، في هذا اليوم كانت النخبة الحاضرة هي عصير مُركز لكل الفئات في المدرسة، ثلاث أو أربع منهن جئن لنيل خلاصة للمقرر، والتأكد من

وجود أجزاء محذوفة من المنهج، وطرح بعض الأسئلة التي وقفت معهن على معلمي ومعلمات المدرسة الأكثر نشاطًا واهتمامًا بمقتضيات واجباتهم الوظيفية والخلقية، لا شيء من كل ذلك كان مثار اهتمام لـ "راوية"، التي انفلتت هذا اليوم من حصار قصير اقتيدت إليه قسرًا، بفعل سلوكها غير السوي، والخارج عن كل حدود التربية والأخلاق الحميدة، لكن الأفكار التي دارت في رأسها خلال الطريق بين منزلها والمدرسة، وضعها في حالة شرود وخمول، لم تكن زميلاتها معتادات على رؤيتها فيها، عزفت عن تبادل الأحاديث، وحين تم ضم الفصول لم تشتبك مع بقية التلميذات في نقاشٍ حادٍ حول المكان الذي تفضل الجلوس فيه، بل جلست بهدوءٍ حيث أشار إليها معلم اللغة العربية، الأستاذ "يوسف"، الذي أخذ أول حصتين في اليوم الدراسي لينهي تدريس ومراجعة ما تبقى من فصول رواية (طموح جارية)، المقررة على طلاب الشهادة الإعدادية، بينما تقاسم مدرسي بقية المواد الدراسية الحصص الأربع المتبقية في اليوم.

مرت الحصتان سريعًا، ولم تكثر البنات من الأسئلة، بينما أنهى المعلم الجزء المقرر بسرعةٍ شديدة، وكأنه راغب في التخلص من عبءٍ كبيرٍ يؤرقه، وبمجرد أن انتهى.. وقف أمام الطالبات وهتف بفرحٍ كعداءٍ لحق خط النهاية، وأُعلن فوزه أخيراً، بعد عناءٍ شديد:

- "وهكذا يكون المنهج قد تم شرحه بالكامل".

جمع المدرس بعدها حافظة أوراقه ثم انصرف، وتطارحت الفتيات أحاديث تافهة، وارتفعت أصوات بعضهن بالصخب والضجيج، قبيل أن يهتز الفصل من أساسه بدخول معلم الرياضيات، الأستاذ "فاروق"، المعلم الخبير المعروف بحدة طبعه وخشونته البالغة، ودخوله حجرة الدراسة مسبوقًا بهامة عصاه الخيزران الهائلة، التي كان يضرب بها التلميذات ويهشهن في أوقات الفسحة، ويجبرهن

على صعود السلالم إلى فصولهن في أيام إشرافه، كما كان له فيها مآرب وفوائد أخرى عديدة، لم يطلع عليها معظم زملائه، لم يكن الأستاذ قد أنهى مقرر المادة الخاصة به، لكن جميع هؤلاء اللائي يجلسن أمامه يأخذن عنده درسًا خصوصيًا في منزله، حيث تخصص زوجته النشطة له غرفة كبيرة بمرافقها في مدخل البيت، وتطرد أولادهما بعيدًا عن مقر عمل أبيهم الإضافي، وتوافيه دون انقطاع، وعن طيب خاطر بالقهوة وأكواب الشاي، كما كانت تقدم راضية على مجالسة التلميذات في شقتها المؤثثة جيدًا، ومؤانستهن لبعض الوقت، إن حدث وتجمعن قبل حلول موعد الحصة الخاصة بهن، ولهذا السبب فلم يكن الحديث عن إنهاء المنهج من عدمه واردًا هنا على الإطلاق، خُصصت الحصة الوحيدة إذن لبعض المراجعات المتعجلة، وحل التمارين والمسائل، وسرعان ما جاءت فترة الفسحة، لتخرج البنات هارعات إلى الخارج، وكأنهن انفلتن من حبسٍ كمحبس يوسف المظلوم، لكن "راوية" لم تخرج معهم.. فقد استبقتها قوةٌ ما في مكانها، وأخرجت كيس السندوتشات الخاص بها وزجاجة المياه الفاترة، وكيسين شيتوس بالشطة، وكان المفضل لها.. لتظهر لرفيقاتها اللائي رحن يلححن عليها في الخروج معهن، أنها أعدت وليمتها الخاصة، وستحتاج إلى بعض الوقت لتلتهمها قبل أن توافيهن إلى الحوش الفارغ تقريبًا، وهو ما لم تكن تنوي الإقدام عليه على أية حال، تركتها زميلاتها بعد أن تيقن من عزمها الصادق على البقاء، كانت "راوية" قد أحضرت نسختي المجلتين القبيحتين ملفوفتين في كيسٍ أسود سميك، محاطتين بكومة من ورق الجرائد، كفضيحة صغيرة تريد قمعها والتكتم عليها، وقد قررت إعادتهما إلى صاحبتهما "هناء"، لم تدر أبدًا سبب إقدامها على هذا التصرف الغريب، لكن شعورًا ما بالذنب والإثم ظل ممسكًا بتلابيبها طيلة الليلة الماضية، الحرارة وخفقان القلب اللذان همدا جسدها أثناء تلصصها غير المحمود على المحرمات، جعلا إحساسًا مرعبًا بالذنب يؤرق مضجعها.

لم تفكر أبدًا أن تلك كانت طريقة حسنة للاطلاع على عالمٍ محجوبٍ عنها بالكلية، بل أحست بإثم الاختلاس والسرقة الذي أحست بها عندما اصطدمت عيناها بما لا يجوز لها التطفل عليه، من خلف باب غرفة أبويها المغلق بإحكام، ربما كان هبة توبة من تلك التي تنتاب المراهقين كثيراً، وتدفعهم إلى أعلى مراحل الصوفية والتطهر في ساعة، ثم ترتكس بهم إلى أحط التصورات وأكثر الميول والرغبات شناعة، في اللحظة التالية مباشرة..

لهذا السبب عزمت "راوية" على البقاء في الفصل، لئلا يفتش أحد أو يتطفل على سرها السمين، لو كانت (الزفتة) قد جاءت اليوم لكانت قد ردت لها ضالتها، التي أخرجتها إلى العراء بكامل رغبتها، واستراحت من هم حمل ومراقبة هذه القنابل الموقوتة، لكن صاحبة الماخور المصور لم تحضر، وبالتالي أُجبرت "راوية" على البقاء لصق مجلتيها حتى تعود بهما إلى البيت، وتحتال لتخبئهما كما كانا.

كانت الأصوات في فترة الفسحة نشاز ومرتفعة، تهز جدران المدرسة هزًا، ذلك برغم قلة عدد التلميذات الحاضرات، وفي الممر خارج الفصل الذي تجلس فيه وحدها تعالت أصوات الجر الثقيلة، اللعبة المفضلة لطالبات الصف الأول الإعدادي، حيث تجلس إحداهن على مقعد أو حقيبة مدرسية محترمة، يكون جلدها وحزامها قويان يتحملان الثقل والمرمطة، بينما تقوم زميلة لها بجرها عبر الممر، ذهابًا وإيابًا، كانت الفتيات يمتعن أنفسهن بأشد الطرق بساطة وأقلها تكلفة، وخلال دقائق تعالى صوت الجرس الحاد داعيًا الجميع إلى الحصة الخامسة، كان ذلك يعني قرب نهاية اليوم الدراسي، ففي تلك الأيام الأخيرة من العام، نادرًا ما كان يُراعى الجدول الموضوع، أو توقيتات الانصراف الرسمية،

وغالبًا سيُطلق سراح البنات مع نهاية الحصة الخامسة، مع ركلة معنوية في ظهورهن وتنبيهٍ خفي، لا يعلن أحد عنه أو يصرح به أبدًا، بأنه من الأفضل لهن البقاء في منازلهن والاستذكار هناك، وعدم تكدير راحة من في المدرسة بزيارتهن خلال الفترة القليلة التي تفصل شهر مارس عن اختبارات نهاية العام الدراسي، لم يكن لذلك التنبيه من فائدة، لأن الطالبات المجتهدات كن في منازلهن بالفعل، أما معظم من جئن اليوم فقد حضرن للعب والانفلات من قيود المراقبة الأسرية الصارمة، على مقدرات أنوثتهن الصغيرة، وذلك يعني أن نهاية العام من عدمه، والامتحانات والنجاح والرسوب، كلها أفكار وخطط لم تكن تدور في رؤوسهن أو تشغل بالهن أصلًا.

بدأت الحصة الخامسة، ودخلت معلمة الرسم لتفصل بحضورها بين الجد والهزل، فقد كان مجيئها في وسط يوم مزدحم بالمراجعات وحل الاختبارات يعني أن السرادق قد تم طيه، ولن تكون هناك حصص أساسية بعد تلك، كانت معلمة التربية الفنية خفيفة الروح، مرحة بطبعها، وحسنة الذوق، في مرة من المرات القليلة التي يتناغم فيها منظر معلم مصري مع المادة التي يقوم بتدريسها، ورغم أن جميع الفتيات لم يجلبن أدوات الرسم أو كراساته معهن، إلا أنهن لم يتوقعن عقابًا من أي نوع غير أن الحصة التي كان من المفترض أن تسير سيرًا حسنًا، قد تكدرت في أول خمس ثوانٍ منها، فقد تزلزلت جدران الفصل بصرخة اكتشاف مرعبة أطلقتها "مريم جمال الدين"، البنت الحلوة الهادئة، التي فتحت حقيبتها لتبحث عن أقلامها وكراستها، فقط لتفاجأ باختفاء هاتفها المحمول الثمين.. وانقلب اليوم الدراسي رأسًا على عقب.

....

كان الأمر محسومًا، وشبه دائر بين حلقةٍ صغيرةٍ من الاحتمالات، لأن المدرسة بها عددٌ محدودٌ جدًا من الطالبات، ولما لم يكن الفصل الذي تم جمع تلميذات الصف الثالث فيه قد تعرض لعملية غزو واختراق مكررة من طالبات الفصول الأخرى، اللاتي لا يتورعن طيلة اليوم الدراسي العادي عن التردد على فصولٍ غير فصولهن، متعللاتٍ بأي حججٍ سخيفة ومبرراتٍ غير واقعية، فإن الهاتف المسروق في أغلب الأحوال قد سُرق بواسطة إحدى الطالبات المتواجدات في الفصل منذ بداية اليوم، لكن "مريم" كانت متأكدة من وجود الهاتف في حقيبتها قبيل نزولها لقضاء فترة الفسحة، وهي لم تعد إلى الفصل خلال تلك الفاصلة الزمنية الهينة، ولم يكن أحد في الفصل أثناء تلك الفسحة القصيرة سوي "راوية" وحدها، إذن فليس هناك إلا أحد أمرين: إما أن الهاتف سرقته إحدى الطالبات الأخريات أثناء وجود صاحبته خارج الفصل، وهو ما أنكرت "راوية" حدوثه، لأنها كانت موجودة وحدها، ولم يدخل المكان أحدٌ غيرها خلال النصف ساعة المرصودة تلك، وإما أن "راوية" نفسها هي التي سرقت الهاتف!

احمر وجه الفتاة حين أدركت أي خواطر دارت في رأس زميلاتها بشأنها، من فرط صدمتها تلعثمت ولم تستطع الكلام، لم يسعفها لسانها الذرب، ولا طلاقتها وفظاظة ردودها، فوق كل ذلك خافت أن تُفسر أي كلمة تقولها في غير صالحها، أو يُفهم خوفها وتوترها على أنهما دليلا إدانة ضدها، أخيرًا تدخلت معلمة كانت متواجدة في فصل الصف الثاني الإعدادي المجمع، حين نُبئت بالأمر، وطلبوا منها بصنعة لطافة أن تقوم بتفتيش حقائب البنات.

كانت الشكوك كلها مصوبة نحو "راوية"، التي ما إن سمعت كلمة تفتيش حتى تحول لونها، وتساقط العرق على جبهتها، نابتًا من جذور شعرها الدهنية،

التي راحت تنشر عرقًا غزيرًا، جعل بشرتها الجميلة تلمع، وتبدو غامقة السمرة، كان للفتاة تخوف آخر بخلاف الهاتف المفقود، فهي متأكدة تمامًا أنها لم تسرقه، وتعرف أنهم لن يجدوا في حقيبتها شيئًا، لكن ماذا عن القنبلتين الموقوتتين في ذات المكان، الذي سيتعرض لعملية تنقيب وتقليب شاملة الآن!

للحظة هداها فكرها المضطرب لأن تحاول إبعاد الكيس البلاستيكي الأسود، الذي يضم نسخ المجلات، وإخراجه خلسة أثناء انشغال المعلمة بتفتيش حقائب بقية البنات، لكن اضطرابها ورجفة يديها جعلاها تتجمد في مكانها، إضافة إلى أنها خشيت أن يظنوا بها الظنون، ويعتقدوا أنها تحاول إخفاء الهاتف المسروق، قبل أن تصل أيديهم إليه، فما هو العمل في تلك اللحظة الدقيقة المرعبة، المفعمة بالمخاوف من كل ناحية وشكل؟!

....

كان الأمر إجباريًا ولا تفاوض فيه، جاءت معلمتان من خارج الفصل للمشاركة في العمل التطوعي المحبب، قلب حقائب جميع البنات المتواجدات إلى الخارج، وتفتيش محتوياتها جيدًا، أُغلق باب الفصل لمنع تطفل المعلمين، أو تدخل غير محمود من طرف السيد المدير، الذي كان يُظهر عادة في آخر أيام العام الدراسي نشاطًا مفاجئًا، ورغبة مكررة في فرض السلطة وإظهار السيطرة، كانت البنات وكذلك المدرسات يرغبن في أن يبقى الأمر داخليًا وسريًا ما وسعهم الأمر، جهزت كل التلميذات أنفسهن، ورحن يستخرجن ما بداخل حقائبهن من أغراضٍ وأدواتٍ وكتبٍ وكشاكيل، لكن معلمة الرسم نهرتهن بلطفٍ طالبة منهن أن يدعن الحقائب مغلقة حيث هي، كانت ثمة مخاوف من حركة كانت اللصات تتقنها تمامًا وتعرفن بها، وهي تمرير الغرض المسروق خفية من حقيبة إلى حقيبة،

عقب انتهاء عملية تفتيش كلًا منها، بحيث يزُغن من رقابة وانتباه المدرسات الفضليات اللائي يباشرن عملية البحث والتفتيش، وقفت الفتيات اللائي تحاصر كلا منهن شبهة مقيتة في أماكنهن، وراحت المعلمات الثلاث يفتشن بدقة، أُبقي باب الفصل مغلقًا، وخلال دقائق تبين بوضوح أن الهاتف المسروق ليس بحوزة أي واحدة من البنات، غير أن حقيبة "راوية" تعرضت لتدقيقٍ إضافي، بسبب كونها البنت الوحيدة التي كانت متواجدة في الفصل حين تمت عملية السرقة، وبرغم ظهور حقيقة أنها لا تحمل الهاتف المسروق أو تخفيه بشكلٍ ما، وبالتالي فهي ليست سارقته على وجه اليقين، إلا أن الكيس البلاستيكي المتخم أثار انتباه وفضول المفتشتين، فأمسكته معلمة الفصل الهمامة بين يديها وهمت بفك عقدته، وهنا كادت "راوية" تفقد الوعي من شدة الخوف والذعر، تلك اللحظة المرعبة غيرت شيئًا وإلي الأبد في نفس تلك البنت التي اختلط داخلها أشد الرغبات والمخاوف والأفكار تناقضًا واضطرابًا، لقد أدركت في جزءٍ من الثانية أن الحياة قاسية ومليئة بالمتاعب والمخاطر، إن حادثًا عرضيًا صغيرًا وغير مرتبط بها قد يغير مسيرة حياتها إلى الأبد، قد تُتهم الآن بما هو أفظع من السرقة والرشي وربما القتل، بالسقوط والتردي والانحلال الأخلاقي، لن يرحم أحد صغر سنها، أو يتفهم متاعب وتشوش البلوغ، ورهق النضوج البطيء الموجع، سيصمونها بالفحش والابتذال وربما العهر، وسوف تكون فضيحة مدوية، سيُستدعى ولي أمرها على عجلٍ ويُرمى في وجهه بقصة ابنته المخزية، لقد وجدنا مجلاتٍ إباحية وصور فاضحة في حقيبتها، فماذا كانت تفعل بها يا ترى؟!

لن يصدق أحدٌ أو يتصور أنه مجرد فضول مؤذي من فتاة مراهقة صغيرة وجريئة، ولن يتذكر حراس الفضيلة أن كل منهم أقدم على البحث والتلصص على

أسرار ومخازي الكبار حين كان في مثل سنها، وفي الحقيقة فإن معظمهم، أو ربما جميعهم، لا زالوا يقترفون المثل دون حياء، ويقضون وقتهم في مطالعة الأفلام والمقاطع الخارجة، وربما يحفظونها على هواتفهم النقالة ووسائطهم المتعددة، قد يفعلون كل ذلك وأكثر، وذكرياتهم غير المحببة في المراهقة لا تزال حية ونابضة، غير أنهم سينكرون كل ذلك، ويتنصلون منه حين يُجابهون ببنت صغيرة، تلميذة من تلميذاتهم، تفعل مثلما فعلوا، وربما مثل ما زالوا يفعلون حتى الآن، ويتلبسون ثوب الوعاظ الكاملين الناصحين.

اضطربت "راوية" وأصابتها نوبة رعب هائلة، لم تسعفها صفاتها التي يغلب عليها الجرأة والاقتحام والقحة، لن يكون لكل ذلك نفع في مواجهة ثلة من المعلمات اللائي يعشن دور القديسات ويصدقن أنفسهن، ما أشد فجاجة خيالاتهن ووقاحة أفكارهن في الخفاء، حين ينفردن بأنفسهن في غرفة المعلمات المغلقة، ليتحدثن عن الرجال وأسرارهم، ويحمن حول الحمي ليقعن فيه ليس مرة أو مرتين بل كل يوم تقريبًا، ولا يتورعن حتى عن التغني بأشد أمورهن الزوجية خصوصية ودقة، ستكون الفتاة ذبيحتهن المثالية، سوف يغتسلن بدمها من ذنوبهن، ويمررن من خلال الإيقاع بها وتعقب هفواتها الصغيرة، الخطايا التي تُغفر تلقائيًا بحكم السن ونقص الخبرة وانعدام المرشد، الذي يقدم النصيحة دون تتالي أو ادعاء الطهر والقداسة المزيفين، أشد خيالاتهن ورغباتهن فجورًا، وخروجًا على كافة الأعراف والتقاليد.

كانت النسخ البائسة تنتظر في قعر الكيس البائس لتستخرجها أيدي المعلمتين المتزمتتين، غير أن معلمة الرسم حلوة الروح أدركت ما بالبنت من كرب ونازلة، فتولت عملية التفتيش بهوادة، وتطلعت دون أن تستخرج القنابل

الموقوتة، واللقيات المحرمة من حرزها، إلى ما بداخل الخرج البلاستيكي القاتم، رأت طرفًا من الحقيقة فأغلقت عينيها بقوة، تسارعت أنفاسها، ثم لهجت باعتذار بارد مكشوف، لكن كل التلميذات صدقنه فورًا ودون نقاش:

- "البنت معها علبة فوط صحية وتعتقد أنها فضيحة صغيرة".

تعالت ضحكات البنات الخجولة، لكن المعلمة التي أنقذت في لحظة إدراك حقيقي لقداسة وأمانة مهنة المعلم، ومسؤولياتها الثقال الجسيمة، روحًا كادت أن تُنهتك ويمثل بها أمام تلك الثلة من الطالبات والمعلمات، اللائي يملكن قدرًا قليلًا جدًا من الرحمة والتفهم، وقدرًا مهولًا من الادعاء والزيف، غير أن الكيس البلاستيكي حُمل بما فيه، وأُخذ إلى حجرة الأخصائية النفسية، كان من واجب السيدة "حمدية"، طبقًا لما أوصتها به زميلتها الأشد إدراكًا، أن تناقش الأمر مع "راوية" بهدوء، وتقنعها أن تلك ليست أفضل وسيلة لكي تفهم نفسها، وتدرك طبيعة جسدها، وحقيقة العلاقة المقدسة بين الرجال والنساء، لكن المرأة المحملة بعبءٍ لا يُطاق من النقص والتشويه المجتمعي، وبقدرٍ هائل من الاحتقار للذات، وكراهية ما جُبلت عليه من فطرة أنثوية متعبة ومنغصة، قد فعلت العكس تمامًا، هددت البنت باستدعاء ولي أمرها ليرى بعينيه الأخلاق الرفيعة التي تتمتع بها ابنته، وحتى كون تلك المجلات المخزية ليست ملكا لـ "راوية" حقيقة، بل هي من سحر وعمل طالبة أخرى، تقر في بيتها الساعة، غير داريه بالكارثة التي تسبب بها فضولها القاتل، وحبها للتطلع والتهجم على الأسرار لم يشفعا للبنت المتهمة في نظر الأخصائية الحمقاء، لم يكن الأمر مجرد وعيد في الهواء، بل لقد نفذت المعلمة تهديدها، وجاء السيد "عبد العزيز"، بعد نصف ساعة.. حيث تم إطلاق سراح البنات إلى بيوتهن، بينما أُستبقيت ابنته وحدها

برفقة الأخصائية النفسية ومعلمتين أخريين، ليرى بعينيه ويسمع بأذنيه ما لم يكن يحب أن يرى أو يسمع.

في نهاية الموقف المؤلم والقصير اصطحب الأب ابنته إلى البيت، ولم ينبس بكلمة طوال الطريق، حتى وصلا ليدخلا المنزل بصمت.. هرعت "راوية" إلى غرفتها باكية، لتحبس نفسها هناك حتى صباح اليوم التالي، بينما انفرد الأب بزوجته في غرفته ليحكي لها ما حدث بإيجازٍ واقتضاب، ضربت الأم على صدرها وتلون وجهها بصفرةٍ مرضية، وخلال نصف ساعة وُضعت كل الخطط والمشاريع المسرفة في الخيال لتأديب البنت، وإعادة تربيتها وتعلميها الأدب والأخلاق، لكن كل تلك الأفكار المرعبة انتهت إلى عقابٍ وحيد: الحبس في البيت مدة أسبوع، مع الحرمان من مشاهدة التلفاز، وسحب الهاتف المحمول منها إلى الأبد..

■■■

الفصــل السادس

خروجٌ آمنٌ بعد أسبوع، وكان إجباريًا لأن البنت بدأت مراجعة دروس اللغة الإنجليزية، لم ينس السيد "عبد العزيز" وزوجته الموقف الخاص بما وُجد في حقيبة "راوية" من أشياءٍ مخزية في ذلك اليوم المشؤوم في المدرسة، لكن الجرح، الذي أصاب الأبوين، اللذين يظنان كأي أبوين في الدنيا أنهما أحسنا تربية وتنشئة أبنائهما، سرعان ما شُفي واندمل، خاصة والجرح كان لاحقًا بفكرة عششت في ذهن الوالدين المنكوبين، وهي أن ابنتهما الكبرى جامحة ومتنمرة، وبحاجة إلى ترويضٍ طويل، اتفقا على ألا تغادر البنت المنزل إلا إلى الدرس، أو في فترة الامتحانات ولساعاتٍ محددة، وأن يُعرف خط سيرها، والأماكن التي ستتردد عليها بدقةٍ تامة، أفرخت رغبة الأم في الانتقام طريقة جديدة في تحقيق بغيتها، فضيقت على خروجها ودخولها العابر إلى الشارع أمام منزلهم، وأبت أن تسمح لها بمرافقة صويحباتها اللائي حضرن لاصطحابها لحضور حفل خطبة زميلة لهن، وجد أبويها أن القطار يطلق الشرر، ويكاد يفوتها مخلفًا إياها وحدها في طريقه الطويل المليء بالمطبات والموانع الطبيعية والصناعية، فقررا أن يصطادا لها أول عريس، بينما هي ابنة البارحة التي لا تعرف عن الزواج سوى أنه فرحة وفرح وفستان وهدايا، وحرية ممنوحة بلا حساب على حساب فاتورة العريس المنقذ المخلص، لم تستشعر والدة "راوية" دهشة ولا نفورًا من فكرة تزويج فتاة في سن ابنتها أو تهيئتها لذلك، في الحقيقة هي كانت ترحب تمامًا بفعل المثل لبكريتها، ما لم تكن تطلعاتها الطبقية والمستقبلية قد تضخمت بما تراه حولها من حالات طلاق وفشل في الزواج تكاد

تكون القاعدة، وتنحي احتمالات النجاح والاستقرار في زاوية خانقة وضيقة.

غضبت "راوية" لمنعها من حضور حفل الخطوبة، لكن بدء مجموعات مراجعة اللغة الإنجليزية رفع هذا العبء عن كاهلها، فقد أصبح مشروعًا لها المطالبة بحقها في الخروج ثلاث مرات أسبوعيًا، في مواعيد محددة ومنتظمة، دون أن تجد معارضة أو امتعاض من ذويها.

كان مقر الدرس لا يبعد كثيرًا عن عنوان مسكن الفتاة وعائلتها، وباجتياز قليل من الشوارع الضيقة، وشارع رئيسي مزدحم دومًا، تكاتك لا عدد لها يقودها شبان طائشون خارجون للتسلية في الأساس، بعضهم لم يتجاوز العاشرة إلا بقليل، لكن بسبب سقمهم وضآلة أحجامهم كانوا يبدون في السابعة من العمر، مع عددٍ محدودٍ من الرجال المسنين الذين وجدوا في تلك الوسيلة المضحكة والمهمة مع ذلك، للنقل مصدرًا للعيش، أو موردًا مكملًا لمعاشاتهم الضنينة المثيرة للشفقة، الزوايا احتلتها مجموعات من الصبية أو الشباب الذين راحوا يسلقون كل امرأة أو فتاة مارة بألسنتهم الحادة الناهشة.

ووسط تلك المعمعة التي تتضاءل أمام سطوتها ملاحم الحروب الكبرى، كان على فتاة كـ"راوية "أن تغذ السير، وتتجنب الأذى، وتحاول أن تمشي معتدلة لا لكي تحير أعداءها وخصومها فقط، بل لكي تتجنب في الأساس أذى ذوي القربى وخاصة الأرحام، كان حادث المجلات المكشوفة قد وضعها تحت بؤرة الضوء، في نقطة تجمع الأشعة المتوازية والعمودية والمائلة أيضًا، حيث يصبح كل فعل لها بحساب، وكل كلمة تنطقها تؤخذ عليها قبل كل شيء.

في نهارٍ شاحب اتجهت الفتاة مُجِدَة نحو مقر درسها، كانت تختصم نفسها طوال الطريق لأنها لم تتفق مع زمرة بنات يذهبن ويجئن معها، وتلوم أمها لأنها

بمنعها لها من حضور مناسبات وأفراح وأتراح زميلاتها في المدرسة قد حجمت شلة معارفها، منعتها حق التزاور فأصبحت نقطة معتمة وسط مجتمع البنات اللائي يتبادلن الزيارات بحرية، وتعرف كل منهن والدة الأخرى وأخواتها، وسلسال طويل من ذويها وأقاربها، وتعلم موقع منزلها، ولا يلومها أحد إن رآها واقفة في شحوب الصباح على عتبة بيت صاحبتها تنتظر تجهزها للذهاب معًا إلى المدرسة، حُلت كل العلاقات بأسلوبٍ ديكتاتوريٍ وصارم، الحرية الضنينة التي تُستعمل لمرة واحدة، وتشتعل لمرة واحدة، تمامًا كشرف الفتاة الذي طالما خوفوها من سرعة بليانه، واستحالة استعادته إن فُقد بشكلٍ عرضي أو مقصود، تلك المجموعة من الكوابيس السادية التي تُدفع دفعًا في رأس كل فتاة ضمن نطاق نفوذ مجتمعها وبيئتها، ما أن تصلب طولها وتستطيل عظامها، وتملك القوة للسير على الدرب، وفي حالة "راوية" كان الدرب ضيقًا، ومحاطًا بالأسلاك الشائكة والموانع الضخمة من الجانبين، خط السير المرسوم لا يحسن تجاوزه، أما في حالة الخطأ والسهو والنسيان فتتحول الكراهة إلى تحريم، والحظر اللطيف إلى قمعٍ رهيب، يستعمل أول ما يستعمل مبررات المحبة، والخوف من الانحراف والضياع والتشتت.

وصلت الفتاة لا تريم ولا تحاول أن تحيد عن طريقها لثانية واحدة إلى مقصدها، وفي غرفة في الطابق الأول من منزل الأستاذ، الذي يملك بيتًا خاصًا اقتناه من جباية الدروس الخاصة، واستنزف ثمنه قرشًا.. قرشًا.. وجنيهًا.. جنيهًا من جيوب أولياء أمور الطالبات، نظيرًا وجزاءً وفاقًا لحكومة ودولة تستنزف عمره وجهده بسبعين حصة دراسية في الشهر، وربما تزيد في أحيانٍ كثيرة، وجهد مسفوح في الإشراف وتطويع الطلاب العصاة المتمردين، ومزاولة أعمال مهينة في بعض الأحايين، وتحمل تحكمات المدراء، وتسلط الموجهين وبلادة وغلظة قلوب المشرفين الماليين والإداريين، كل ذلك في مقابل راتب لا يساوي نصف راتب حارس

بوابات بنك أمي، أو نصف متعلم بشهادة تسلكه ضمن صفوف المتعلمين، لكنها في الحقيقة تصمه بجهلٍ وأمية شبه كاملين، تمهرها دولة بأسرها بختمها وشعارها دون حياءٍ أو خجل.

لعبة تبادل الضربات الصامتة تلك دفعت ثمنها أجيال من الطلاب، بينما أفاد منها طلاب آخرون أعظم فائدة، وقد كانت الطالبة غير المجتهدة كما يجب تتطلع إلى أن تكون ضمن الفئة الأخيرة المحظوظة، سيدفع أبوها ضريبة تهاون البلد في إعطاء المعلم حقه وإيفاءه نصيبه المحترم من الدخل، لكن على أية حال، كم مواطنًا في تلك البلاد لا يفيد من الفساد بقدر ما يتألم منه، ويشكوه ويعلن حربًا ضروسًا عليه، وعلى من يقف وراءه؟!

كانت الطالبات كلهن قد وصلن، خمس عشر طالبة تسع منهن من مدرسة (أسماء بنت أبي بكر)، والست الباقيات من مدرسة إعدادية تقع خارج نطاق هيمنة معلم اللغة الإنجليزية المعروف، الذي شهره كثرة حديث الفتيات وأولياء الأمور عنه، كان الأستاذ "محمد" يميل إلى تدريس البنات، برغم أنه لا يرفض التلاميذ من البنين، لكنه كان يتفق مع رأي أغلب المعلمين وخاصةً من الرجال، أن تدريس البنات أكثر هونًا وأقل مشقة.

في المجموعة لم تكن علاقة قوية تربط "راوية" إلا ببنتٍ واحدة، "سامية" ذات المنظار الطبي سميك العدسات، وهي تلميذة في نصف مدرستها، في فصل ثالثة أول، لكنها كانت زميلة فصل ومقعد واحد لها في المرحلة الابتدائية كلها، في قلب الحدث جلس الأستاذ مرتديًا جلبابًا بلديًا، ولاستعمال الجلباب البلدي لدى معلمي الدروس الخصوصية نظرية نفسية خاصة، إنه يرفع الكلفة بين الطالب والمعلم، ويقرب هذا الشخص الخيالي الذي يتصوره الطلاب، خاصة في السن الصغيرة كنصف إله، لا يمر بما يمر به البشر من أطوار أو حالات، وليس له

احتياجات طبيعية، أو عيوب أو مميزات فردية تميز كل معلم عن الآخر، وأيضًا خاصة في فصل الصيف، يصبح الجلباب وسيلة للتغلب على الحر، ومشقة العمل المتواصل لساعاتٍ طويلة، فمدرس مثل الأستاذ "محمد عبد الرحيم"، كان يشتغل شغلًا متواصلًا في غير أيام العمل الرسمية والمواعيد المحددة لليوم الدراسي، في تدريس المجموعات الطلابية الخاصة، من الحادية عشرة صباحًا إلى الثالثة عصرًا، ثم من الرابعة عصرًا وحتى التاسعة أو العاشرة مساءً في أيام الضغط والامتحانات والمراجعات الملهوفة للطلاب المتأخرين، كان الرجل لطيفًا بطبعه، وفي حصة تمهيدية لمجموعة لم تتابع معه المقرر من بداية العام، أعطاهم فكرة عامة عن عموم المنهج وراجع حوالي مائتي كلمة، كتابة وقراءة دفعة واحدة، وشرح سريعًا وحدتين كاملتين من الجرامر، وفصلًا كاملًا من قصة (رحلة إلى مركز الأرض)، كانت الفتيات مشغولات بالإنصات، أو طرح الأسئلة في بعض الأحيان النادرة، ولم تكن هناك حاجة إلى كتابة ملاحظات، أو تسجيل بعض النقاط في الحصة، لأن ملخصًا وافيًا مكتوبًا بشكلٍ أنيقٍ على برنامج الوورد، ومطبوعًا على ورقٍ مُلون، يضمن ألا يتمكن الطلاب من تصوير النسخة المطبوعة وتداولها فيما بينهم، دون أن يدفعوا ثمن المذكرة الحقيقي أو مقابل الحصة، قد جُهز بالفعل، وكُومَ في شكلٍ بديعٍ على طرف المنضدة العملاقة التي تتوسط الفصل المرتجل، الذي أسسه الأستاذ في منزله الخاص بانتظار أن تُوزع على الطالبات لحظة خروجهن بعد انتهاء وقت الحصة المحدد.

وخلال ساعة.. مع إضافة بعض الوقت من فائض كرم المعلم، انتهت الحصة الأولى، وتم تحديد موعد الحصة الثانية بعد يومين، روجعت بعض النقاط بسرعة، وحُددت واجبات صارمة، على البنات أن يقمن بها، ومن ثم أطلق سراحهن ليعدن إلى البيوت والشقق، وخرجن كلهن مسرعاتٍ متلهفاتٍ للرجوع

إلى منازلهن، لتنكب كل منهن على كتبها وعلى المذكرة الوافية التي أعطاها لها الأستاذ، غير أن "راوية" مضت خارجة في كسل، لم تكن الحصة سيئة أو محبطة بالنسبة إليها، فقد انتبهت وفهمت جيدًا، بل وعولت على أن تؤدي المطلوب منها بذمةٍ وضمير، لكن.. وأثناء سيرها وحدها في الشارع، الذي خففت ساعات العصاري الأولى من حدة زحامه وضجيجه، كانت منتشية بإحساسٍ غريب، كأن ثمة بالون مليء بالغاز المضحك كان يحتل معدتها، فكانت تحس بثقل يقعد بجسدها وهمتها، غير أنه لم يكن ثقلًا سيئًا أو مسببًا للأحاسيس الرديئة، كان شبيهًا بالإحساس الغريب الذي خامرها حينما تسلمت نسخ المجلة الإباحية من "هناء"، وخبأتها في حقيبتها، تحس بأنها تخفي قنبلة في حوزتها، لكنها في نفس الوقت مستمتعة بأن لها سرًا قذرًا تحتفظ به لنفسها، تمامًا مثلما يلاحظ المتلصص خلسة أمرًا مشينًا يحدث في بيت جيرانه، فيملأه إحساس بالتحفظ والتكتم على سرٍ خطيرٍ ومؤذٍ، لكنه في ذات الوقت يتوق لمناوشة صاحب السر، ومداعبته بوضعه في حالة حيرة وارتباك: هل هو يعرف أم لا يعرف؟

في زاوية الشارع اليمنى لاحظت "راوية" شابًا يتعقبها بنظراته، نظرات ودودة ومرحبة، ليست تلك النوعية المؤذية والمهينة من النظرات، والتي تعودت أن يغمرها بها شباب وصبيان منذ أن نبت لها ثديان، واستدار ما حول حوضها، واكتنزت بالدهون بعض زوايا جسدها، وكان الشاب معروفًا لديها، إنه ابن أحد أقربائها من ناحية الأم، لم تكن تتذكر اسمه في تلك الساعة، لكنه كان في مرتبة وصلة القرابة، درجة ثانية أو رابعة أو عاشرة لا يهم، المهم أنه ترك الزاوية التي يعتصم فيها، ولحق بالفتاة وهو يردد بصوتٍ ودود، قُصد به إزالة مخاوفها من ناحيته إن وجدت:

- "آنسة راوية.. آنسة راوية.. لحظة من فضلك!".

غذت "راوية" المسير، متجاهلة النداء، لكن تلذذًا هائلًا بلقب "آنسة" العزيز، وفرحة اكتشاف أن الشاب الذي لا تتذكر اسمه، ولا حتى درجة قرابته إلى أمها بالضبط، يعرف اسمها على وجه التأكيد لا التخمين، لم تلتفت نحوه متعمدة.. فتتبعها خطوتين قبل أن يكرر نداءه، فأُجبرت على التوقف، والالتفات نحوه.

كان طويلًا فارعًا، له صدرٌ عريض، ومجانص ظاهرة، واضح أنه يمارس الرياضة بانتظام، ويذهب إلى الجيم، يحشر جسده في تي شيرت أبيض، عليه رسم وشعار غريب، يبدو أنه شعار نادي الزمالك أو ما شابه، وسروال جينز ضيق بعض الشيء، ومع وجود لحية منمقة تحيط بشاربه الخفيف وشفتيه القويتين، كان الشاب لا يُقاوم، بدا كممثل خارج من أحد أفلام "منة شلبي"، المليئة بالشبان الذي يدمنون ملاحقة البنات، والإيقاع بهن في حبائلهم، غير أنه لم يبد كواحدٍ منهم، كان مهذبًا بل وخجولًا، بغض النظر عن مظهره المقتحم، وعرض مرافقتها في الطريق وهو يكاد يخفض عينيه إلى الأرض خجلًا:

- "هل يمكن أن أرافقك حتى المنزل، الشوارع مليئة برجالٍ وعيالٍ متحرشين.. أنتِ قريبتي وما يؤذيكِ يؤذيني".

لم تتفهم ما وراء تلك الدعوة من أسبابٍ ومبررات، وإن بدت لها بريئة ونقية تمامًا، وساهم الشاب بسلوكه المعتدل، وحرصه على أن يسير أمامها بخطوة، حتى لا يبدو كأنه يتعقبها كالمتحرشين، أو يسير بجوارها تمامًا فيكون منظرهما مثارًا للتعليقات والتخمينات غير المهذبة، في تأكيد سلامة وحسن نيته، مشت خلفه وهي تشعر لأول مرة بما سمعته من أمها عدة مرات عن كون

الرجل سند وظهر وحماية، كانت تلاحظ ظهره القوى من الخلف، وتمنت لو أن واحدة من خصوماتها في المدرسة رأتها وهي بصحبة شابٍ قويٍ ومليحٍ كهذا، لكن خلال لحظة حدث شيءٌ غريب، كان الشاب يسير الهوينى فتراجع تراجعًا خاطفًا، ليصطدم ظهره دون قصد بـ "راوية" من الأمام، رد فعل البنت كان مدهشًا ومثيرًا للعجب، ارتجف بدنها كله، ثم سقطت الكتب والمذكرة من بين يديها، شحب وجهها شحوبًا مهولًا، ثم وبشكلٍ متوتر انحنت لتجمع كتبها وملخصاتها، وهبت واقفة لتتجاوز الشاب، الذي لم ينتبه أساسًا لاصطدامه الهين بها، وهي تسير مسرعة وكأنها تهرب من عفريت، ذُهل الشاب لذلك الموقف، وراح يمشي وراءها مسرعًا وهو يتساءل عما حدث، لكنها كانت تركض ركضًا ولم تهتم بالرد عليه، أخيرًا أدرك أنه أرتكب خطئًا ما، وإن عز عليه تحديده بالضبط، فراح يعتذر عدة مرات، مستعملًا سلطان الله العلي كشاهدٍ ودليلٍ على أنه لم يتعمد مضايقتها، أو إيذاءها:

- "أنا آسف والله.. والله آسف!".

لكن "راوية" لم تعره أي اهتمام، وتحول إعجابها المبدئي به، واطمئنانها الأول له، إلى أمواجٍ من المقت والبغض، تكاد تسيل من فتحات عينيها وأنفها وفمها، تغلبت على رغبتها الحارة في البكاء، ولكن برغم أنها لم تحفل بالرد عليه، أو تتوقف لتشرح له ما جرى، فإن الشاب ظل في أعقابها، حتى وصلا قرب منزلها، هناك توقف الشاب فجأة ونظر إلى أعلى، ونظرت "راوية" بدورها.. لتجد أمها تطل من بلكونة شقتهم القبلية، وعلى وجهها علامات غضب وحشي وأسف شديد، لقد رأت الأم المشهد من أعلى، وكل ما خرجت به من ذلك المنظر السريالي غير المفهوم أن ابنتها أتت بصحبة شاب، من أين اصطحبته وسارت معه، ذلك لا يهم.. المهم أن عنتًا شديدًا وعقابًا صارمًا وقاسيًا جدًا بانتظار تلك الفتاة، بعد لحظاتٍ لن يطول عدها ولا انتظارها..

ولولت الأم وأُصيبت بصدمة حينما رأت فتاتها الكاعب، التي برزت لها معالم وتضاريس أنثوية واضحة، تسير بصحبة شاب مفتول وبادي الرجولة، على مرأى ومسمع من جيرانهم وقاطني البيوت والشقق من حولهم، حراس الأخلاق وحفظة المثل العليا الديدبانات، الذين وظفوا أنفسهم في خدمة الفضيلة، ومراقبة سلوك النساء والبنات مراقبة بوليسية، والتجسس على أخص أسرارهن، واتخذوا من تلك الفضيلة المعلنة قناعًا يخفون وراءه سرقاتهم واستحلالهم لحقوق الناس، وحبهم للسحت والباطل، وكذبهم وغشهم، وأكلهم للسحت وتلذذهم بالحرام من كل نوع، لم يكن جميع المترصدين أشرارًا، لكن بطبيعة المجتمع الذي وُلدت فيها بذرة القصة ونمت وأفرخت، كان سلوك كل فتاة، خاصة إذا بلغت مبلغًا يجعلها مطمع للرجال، ومهوى لرغباتهم التي لا تنتهي ولا تعرف الأقفال ولا الموانع أبدًا، يظل شأنًا عموميًا، كل همسة وكل حدث وكل تفصيلة في حياة البنت أو المرأة تستحق نشرها في صحيفة الوقائع المصرية، مع تعليق ستة محللين استراتيجيين ثقيلي الوزن عليها، وإرفاقها بصورةٍ رسمية من مصوغات البراءة أو أدلة الاتهام، كانت الأم من عجينة ذلك المجتمع، وتعرف أن ابنتها حتى لو كانت سليمة النية، فلن يهتم أحد بنيتها أساسًا، وأن الشاب رغم أنه قريب للعائلة، وهي تعرفه شخصيًا، وتعرف والدته وأبيه، إلا أن مرافقته لابنتها جزء من الطريق يحمل دلالة سيئة، تجعلها متحفزة للتحقيق المرهق الذي على وشك أن يبدأ، متى وأين، وكيف ولماذا، عشرة نماذج من الأسئلة التدقيقية، التي يلزم أن يُجاب عنها بسرعة، ودون تلعثم أو علامات كذب ظاهرة، دار عقل الأم دورته الكاملة في أقل من ثانية، فاتجهت نحو باب الشقة، وفتحته لتجد جارتها التي تسكن الشقة المقابلة، "تحية" السمينة الحلوة، ذات الخدين المتوردين، والأنف الدقيق، الذي تحشره رغم ذلك بإصرارٍ في كل شؤون الآخرين، أقرباء أو جيران أو معارف، تطل من فرجة صغيرة صنعتها في باب

شقتها، وحاولت أن تختفي وراءها، لكن طرف قمطتها الزرقاء، التي نادرًا ما تستبدلها بقمطة أخرى، فضح وجودها وتلصصها.

الخبرات الحياتية التي اهتبتها الأم من نشأتها في وسط مجتمع، تعرف عاداته وأساليب تفكيره عن ظهر قلب، وولعه بالفضائح والمخازي، خاصةً لو كانت تخص من يعيشون على مرمى حجر من ناشري الشائعات، جعلتها سريعة البديهة بشكلٍ كان من الممكن في ظروفٍ أخرى أن تُحسد عليه!

جذبت الأم باب الشقة.. ثم هتفت بصوتٍ تعمدت أن يكون مرتفعًا مسموعًا لدى الزرقاء المتلصصة خلف باب شقتها:

- "حمدًا لله على السلامة.. شكرًا يا ولدي أنك أتعبت نفسك وأوصلتها، فهي ابنة خالتك على كل حال".

رفت عين "تحية" من خلف فرجتها الضيقة، بينما اندهش الشاب لهذا الترحيب الذي لم يتوقعه مطلقًا، بل توقع النقيض له في الحقيقة، دعته الأم للدخول.. لكنه اعتذر وتراجع ذاهبًا، وأدخلت الأم ابنتها وهي تبتسم لها ابتسامة واسعة، معلنة رضاها التام عن سلوك ابنتها وتصرفاتها، لكنها وما إن أغلقت الباب بخبطةٍ صغيرة خلفها، حتى جذبت الفتاة من شعرها، وراحت تستجوبها بقسوة عن سبب اصطحاب الولد الفلتان "حسن" ابن "أم حسن" لها في طريق العودة، أجابت "راوية" على أسئلة أمها دون اكتراث، إذ لم تكن البنت تعد نفسها متهمة أصلًا، فهي لا تكاد تعرف الشاب، ولم تدعه أبدًا لمرافقتها، بل فوجئت به في أعقابها دون مبرر، حاولت البنت تبيان تلك الحقيقة لأمها، لكن الزوجة العصية على التطويع باستعمال الأساليب البناتية التي تدركها جيدًا، واصلت الهجوم ضد ابنتها، محاولة أن تزنقها في الركن وتنتزع منها اعترافًا ولو

ضمني وغير صريح، بوجود علاقةٍ ما بينها وبين "حسن"، الذي دعته بالفلتان أكثر من أربع مرات، مما أثار حيرة ودهشة "راوية"، لأن الشاب لم يأتِ عملًا ولم يتلفظ بقولٍ يعطي لأحدٍ ما الحق في أن يدمغه بتلك التهمة المائعة، الخطيرة مع ذلك.

لم يستغرق التحقيق المتعنت أكثر من دقيقتين، إذ عاد الأب من الخارج متهلل الوجه، كان الزوج الغارق في واجبات الزوجية والأبوة الرتيبة، قد أحرز نصرًا ضئيلًا ومهمًا على الحياة، إذ كسب دورين متتالين في الشطرنج، مما بعث بالسعادة إلى نفسه، ولما رأته زوجته مستبشرًا بنصره الصغير، عافت نفسها أن تعكر صفوه بذكر الهفوة الكبيرة التي وقعت فيها ابنتهما اليوم، لكنها وبناءً على معطيات أخرى كثيرة، قررت أن تضع البنت تحت عينيها، وتعرف عنها كل شيء بأية وسيلة ممكنة.

مضى اليوم على خير، غير أن صورة الشاب ظلت عالقة في مخيلة "راوية"، مثلما ظلت ماثلة تمامًا في ذهن الأم، كان لكل من الاثنتين، الأم والابنة مبرراتٍ مختلفة تمامًا ومتناقضة، للاحتفاظ بصورةٍ ذهنية حية ونابضة للشاب، الذي اقتحم مسار حياتهما على غير توقع أو انتظار، فبينما أشعلت ملامح الشاب ومعالمه الرجولية أحلام المراهقة في ذهن "راوية"، المحمل بذكرى مشينة تحاول أن تتناساها، وتتعافى من لذعها، معجونة بتخيلات أوهام وتسلط غريب لطبيعتها التي فرضت عليها، ولم تخترها أو يستشرها أحد في شأن اختيارها، كانت الأم في نفس اللحظة تفكر في مصير ابنتها حال فشلها وإخفاقها في الدراسة لا قدر الله، وهل من الممكن أن يكون "حسن" ابن الأقارب الطيبين عريسًا ومنقذًا مناسبًا لابنتها الطائشة المتعبة؟!

■■■

الفصل السابع

بدأت اختبارات الشهادة الإعدادية في الثامن والعشرين من مايو، أسبوعٌ واحدٌ بعد انتهاء صفوف النقل من تأدية امتحاناتهم، كانت الرهبة المصيرية تلازم طلابًا نشأوا في ظل نظامٍ تعليميٍ يتباهى ويفخر بفشله، حيث يصبح المجموع وحده معيارًا لتحديد مصير الطالب، دون النظر أو الانتباه لأية عوامل أو تدخلات أخرى، في شريحة اجتماعية كانت تتطلع إلى تحسين أحوالها، متكئة إلى ميراثٍ عريضٍ من الرغبة في الارتفاع العصامي ورثتها طبقات فوق الدنيا بقليل، والتي حلت بقدرة قادر محل الطبقة الوسطي الحقيقية التي تأكلت وتلاشت بشكلٍ شبه كلي تقريبًا، كان الثانوي العام هو الدراسة المأمولة، مع ما توفره شهادة الثانوية العامة، بمجموعٍ طيب، من فرص للترقي الوظيفي، حتى ولو كان محدودًا، أو محكوم عليه بالفشل المسبق والمؤكد بنسبة خمس وتسعين بالمائة، تبدو كليات القمة، بشعارات الأفعى وعصا أسكليبيوس، والمساطر العملاقة بعيدة جدًا، وربما مستحيلة بالنسبة لتوقعات وآمال أقل تواضعًا، وطموحات لا تسمح لأحلامها التوسعية بتناسي الحقيقة الساطعة، فحتى إذا كان مستوى البنت يسمح بمثل تلك الأحلام، فمن أين للأسرة بموارد مالية للإنفاق على تكاليف دراساتٍ باهظة كهذه؟ ظل الواقع ملحًا فارضًا معاييره، فتخلت الأحلام والطموحات عن عليائها، وظهر الحل الأمثل في كليات متوسطة مثل التربية أو التجارة أو حتى الآداب، لضمان فرصة عمل في أحد البنوك حبذا، أو في سلك التدريس، لفتاةٍ لا يتوقع منها ذوها أنفسهم الكثير، كان هذا انخراطًا قبل أوانه بزمنٍ في مستقبل لم تظهر معالمه بعد، لكن الدرس الخصوصي لمدة شهر، والذي

خرم ميزانية السيد الوالد بشكلٍ لا بأس به، وسبب له ارتباكًا ماليًا أعظم مما يمكن أن يسببه انهيار بورصة هونج كونج لملياردير ماليزي، وما بدا كأنه انكباب حقيقي لـ "راوية" على الاستذكار والتحصيل أثناء أسبوع الامتحانات، كلها عوامل أعطت الأمل والحق للعائلة في أن تبالغ في توقعاتها، وتتمادى في أحلامها، بشكلٍ جعل ارتطام رؤوسهم بصخرة الواقع الصلدة أشد ألمًا، وأعظم ضررًا، حينما ظهرت نتيجة الشهادة الإعدادية في شهر يونيو، ليتفاجأ الأبوين بأن ابنتهما التي ظنها أنهما يبخسانها حقها بقمع تطلعاتهما نحو الطب أو الهندسة أو الصيدلة، ويضيقان عليها حدود الاختيار في قائمة الكليات الشعبية (الكحيانة)، قد حققت ما هو أعظم من كل توقعاتهما، فرسبت رسوبًا كاملًا مشرفًا، وجديرًا بالإعجاب حقًا!

....

كان وقع الكارثة يشبه الكارثة فعلًا، نتيجة لم يتوقعها أحد، استشاطت الأم غضبًا لأن تهاونها في حقها، وإخفاؤها الكثير من سلوكيات ابنتها المشينة عن أبيها، وتسامحها في غيرها، كلها ضاعت هباءً ومُرغت في الأرض، أما الأب فشعر بضربةٍ عنيفة تهوي على مؤخرة عنقه، ملأته خيبة أمل وخزي من أفكار كانت تراوده منذ أقل من شهرين، وتدور حول كليات القمة وكليات القاع الكحيانة وخلافه، ظن أنه مخيرٌ بين (أ، ب)، ففوجئ بدخول عنصر (ج) في المعادلة، عنصر لم يعمل له حسابًا قط، وهو أنه مرغم على قبول أن تعيد ابنته الفاشلة العام الدراسي، ليس ذلك خيارًا مطروحًا أصلًا، لم يفكر فيه قط، أقل النجاح كان يرضيه حتى لو رمى بأحلامه الصغيرة في أحد المدارس الصناعية أو التجارية المتوسطة، نصف العمى، لكن أن يُطلب منه أن يقضي شطرًا كاملًا من عمره ضريرًا لا يرى الطريق أمامه.. فهذا أقسى مما توقع، لقد خذلته ابنته، برغم أن الآمال التي علقها

عليها كانت جد هزيلة ومحدودة، والمبلغ الذي دفعه لشهر مراجعة اللغة الإنجليزية، هل تطاير شقاه في الهواء، وضاعت فلوسه على الأرض!

تمازج غضب الأبوين صانعًا حائطًا سدًا من أربعة آذان لا تريد أن تسمع شيئًا، وقلبين فارغين لا يستذكران سوى الغضب وخيبة الأمل، وعقلين مكدودين يعملان دون هوادة، طارحين سؤالًا واحدًا لا أحد فيهما يملك جوابًا شافيًا له:

- "ماذا نفعل في تلك المصيبة؟!".

كانا قد خططا لكل شيء، وتقبلا كافة الاحتمالات، لكن هذا لم يدر بخلدهما قط!

تهديد خطير لمسيرة عائلية توقعا مبدأها ونهايتها، لم يفكرا كثيرًا في الطريق الذي سيقطعانه بين النقطة ألف والنقطة باء، لأنه ذاته الطريق الذي قطعته عائلاتهم وعائلات أقربائهم من قبل، محملين بنفس الحمل الثقيل، ومتجشمين نفس الأعباء، في محاولتهم لرمي الحمل الشاق على أكتاف جيلٍ جديد، جيل ليس من حقه أن يحلم بقدر ما هو مُطالب بتحقيق أحلام غيره، أحلام الكبار والآباء المقموعة المنسية، بذلك يمكن أن تُبتلع كل المرارات، وتسكن جميع الأوجاع والآلام ضلالة واحدة تفتك بهذا السلام والاطمئنان الأزلي، وتهدم الجسر وتعرقل المسيرة من جانبيها، سكتت الكلاب النابحة، لكن القافلة لم يعد بوسعها رغم ذلك مواصلة المسير، لأن عرقلة عظيمة حادت بالطريق عن جادته المأمولة، كل عام يقفزه ابن للعائلة متخطيًا عقبات نظام تعليمي هش وغير مسؤول، تعني سقوط ثقل عظيم من فوق الأكتاف التي تنوء بأحمالها، عام مكرر يعني إعادة كل هذا الطريق الصعب، وعوده على بدء، من سيتحمل تكاليف عامٍ دراسيٍ آخر لابنتهم في نفس السنة الدراسية؟!

الحلم الذي تم قصه ووأده، ولو إلى حين، يعني تحميل عائل الأسرة بمزيدٍ من المتاعب والمسؤوليات، وكان الخيارين مرين مرارة العلقم، لا راحة في اليمين ولا في اليسار، إذا أتمت البنت عامها الدراسي المتبقي في الدراسة الإعدادية، مع ذكرى الرسوب المريرة، فسوف تحتاج رعاية ومتابعة أعظم، وكم أكبر من التضحيات المالية لتعويض إخفاق العام الفائت، وإن هي أُجبرت على البقاء في المنزل فسيعني ذلك في عرف طبقتها وبيئتها الأقل من متوسطة، أن فرصًا عظيمة مهدرةٌ ستنساب من بين أصابع اليدين العشرين، يدي الأب والأم المستميتتين على تحسين مستوى الأسرة، وضمان تعليم وفرص ترقي أفضل للولدين، وفرص زواج أشد استحقاقًا لما سيبذل في مقابلها من مغارم مالية وتجهيزات ربما تتسبب في وضع عنق العائلة في الطوق، وربما تعريضها للخطر إن وجدت نفسها مرغمة على الحصول على احتياجات زواج البنت بالتقسيط، أو بالتوقيع على إيصالات أمانة أو شيكات بدون رصيد طبعًا، رصيد العائلة الوحيد كان أولادها، وحلمها بتحسين مستوى حياتهم المستقبلية، وها قد جاءت البكرية لتسحب من هذا الرصيد الصفري الضنين الذي لا يوجد إلا في مخيلة الأب والأم، قدرًا عظيمًا من الأمان والانتظار والصبر.

كان غضب الأم والأب مفهومًا، لكن في اندفاعها خلف عواطفها الساخطة، مشاعرها الساخنة التي كبتتها، وتحايلت على قمعها ومحاولة تصريفها بطرقٍ شرعية، منذ أن اعتدت عليها ابنتها باليد، حولت الأم إلى وحشٍ صغيرٍ هائج وساخط، خلعت شبشبها في سطوة غضبها وانهالت على رأس وذراعي ابنتها، قاومتها الأخيرة بغير حياء، وجاء الأب المفجوع ليبعدها عن البنت تحسبًا لارتفاع الصوت ومزيد من الفضائح، لم يكن الأب يريد أن يعلم أحد بخيبة أمله وأمل

أسرته، لأن "بهاء" ابن العائلة التي تسكن شقة الدور الرابع قد نجح بمجموعٍ كبير، أما "سلمى"، الفتاة النحيلة الرقيقة، التي كان أبوها الموجه بالتربية والتعليم، يدعوها بالدكتورة "سلمي" منذ أن كانت في الحضانة، فقد تفوقت على الجميع، ولم تخسر إلا درجة ونصف فقط من مجموع الشهادة الإعدادية النهائي!

ستكون فضيحة لأسرة الأستاذ "عبد العزيز"، فضيحة من ذلك النوع المحبب الذي يبتعد عن الأعراض، والسلوكيات الشائنة، لكن يتلامس مع فكرة انعدام الكفاءة الأسرية، والمقدرة على توفير الحد الأدنى من الرعاية للأبناء، تلك النوعية الغريبة التي تسمح للنسوة المتبطلات بالتندر، وهن يمصمصن الشفاه ويتظاهرن بالإشفاق، والمشاطرة الوجدانية للأم المنكوبة في ذريتها، بينما تمتلئ نفوسهن بغبطة خبيثة، سببها هو الاعتقاد بأن نجاح وتفوق أولادهن راجع إلى صفاتهن الشخصية الممتازة، وأجواءهن العائلية المناسبة، وتفوقهن على النسوة الأخريات في شتى نواحي الحياة المنزلية، ربما تعتقد واحدة منهن أن تفوق أولادها راجع إلى وجباتها المنزلية المتقنة، لا إلى صفات وجينات ذكاء لم يرثوها غالبًا منها ولا من أبيهم، نفس تلك العينة من الفضائح يسيل لها لعاب الرجال وأرباب البيوت، الذين نادرًا ما ينحدرون إلى مستوى مناقشة نجاحاتهم وإخفاقاتهم العائلية مع غيرهم.. على المقاهي، أو في المكاتب المغلقة في أوقات العمل، لممارسة لون من الاستعلاء الأبوي، تجده واضحًا في تحديد كثير من الآباء لمستقبل أبنائهم، وفق أهواء هؤلاء الآباء الشخصية، وهم لا زالوا في مرحلة الرضاعة، أو في محاولة الآباء فرض نوع معين من الدراسة، أو تحديد خيارات الزواج لأولادهم الراشدين، تلك السلطة المطلقة التي يعطيها مجتمعنا لكل من

تزوجوا وأنجبوا، بغض النظر عن تمتعهم بأي استحقاقات شخصية أو نفسية، أو امتلاكهم لأسسٍ سليمة تتيح لهم استخدام تلك السلطة المرعبة دون إفراط في الترغيب أو الترهيب، كل ذلك الميراث المجتمعي الغليظ انهار وتفكك في ظهيرة ذلك اليوم الحار من شهر يونيو، حيث تغدق الشمس عنفوانها على البرية، التي تتكدس فيها مباني وأحلام وصراعات البشر، محيلة بلدانًا بأكملها إلى ساحات حرب مع الطبيعة، وضد الذات التي تنوء بأحمالها المتنوعة من كل لون.

من تلك الغضبة الجامحة هربت "راوية"، التي كانت أول من بوغتت بخبر الرسوب، كانت تفكر في التحدث عن الخطأ والغبن في التصحيح، والتلويح بأمل تقديم تظلم، لعل وعسي أن يكون هناك خطئًا ما في نتيجتها، أو تقدير درجاتها، لكن هجمة أمها عليها بخفها المنزلي، وما تلاها من انفلات أعصاب، وشد وجذب متبادل جعل كل تلك الآمال البائسة، التي برزت فجأة من قعر المحيط، كجثة غريق منتفخة ومشوهة، تُوأد وتموت دون حتى فرصة واحدة لها في التقاط أنفاسها، مات الرضيع قبل أن تنفتح رئتاه أو يتسع صدره الضيق، وهربت الفتاة من صراخ الأم، ونظرات الأب المحملة بكل صنوف الويل والتهديد، ارتقت سريعًا درجات السلالم إلى أعلى البناية، حيث يوجد سطح عريض، كان يُستعمل في بعض الأحيان في تربية الدجاج والطيور المنزلية، أو في اجتماعات خبيز الأعياد وسهراته الطويلة الماتعة، لكنه الآن، وبعد تفشي الانعزالية، والتقوقع على الذات، تحت شعار حب الاختصار والبعد عن المشاكل، قد أضحى مكبًا للقمامة الخفيفة أحيانًا، ومنشرًا متسعًا للملابس المغسولة، نادرًا ما كانت بعض الساكنات في المنزل يستفدن منه، إذ كانت كل ربة منزل تفضل نشر غسيلها في شرفة شقتها، ابتعادًا عن حزمة مشكلات حدثت وتكررت غالبًا، ولم يتبق من حلم الأسرة الممتدة والجيرة الطيبة سوى عش للدجاج بقي خاويًا على عروشه، كان الأولاد

الصغار يستعملونه للاختباء من لداتهم أثناء اللعب، أو تخفي فيه بعض الفتيات أغراضًا لا يردن لأمهاتهن الاطلاع عليها، ريثما تتاح لهن فرصة تهريبها إلى خارج البيت في حقائبهن، أو حقائب زميلاتهن، المدرسية.

هناك وجدت "راوية" ملاذًا آمنًا، كان تفكيرها قد شُل، وعقلها عاجز عن العثور على أي رابط، أو مبرر يشرح كيف حدث ما حدث، إنها تعرف مستواها بالطبع، لكن ليس إلى درجة الرسوب الكامل، لم تترك سؤالًا في الامتحانات لم تجب عليه، سواء أكانت متأكدة من إجابتها تمامًا أم تحاول، لكنها عافرت.. وبعد امتحان الرياضيات، وبعد مراجعة عجلى مع زميلاتها، وجدت أنها حلت أكثر من نصف الامتحان بشكلٍ صحيحٍ تمامًا، على الأقل كان ملحق في مادة أو مادتين، لكن رسوب في كل المواد، هذا كابوس لا تعرف كيف تسميه، أو بما تصفه!

تقوقعت على نفسها داخل العش المهجور، ترتجف من برودة لا يستشعرها سواها، استعادت ذكريات تلك الليالي الحارة، التي كانت تصحو فيها في منتصف الليل، تحت المروحة التي تعمل بكل طاقتها، وهي بملابس النوم الخفيفة، لتجد نفسها ترتجف تحت لسعة برد، لا تعرفها أشد ليالي الشتاء برودة وزمهريرًا، كل نقيض يحمل القدرة على مقاربة نقيضه، بأكثر مما يفعل الأشباه والمتماثلون، كانت تلوذ بحميٍ مكشوف، معرض للاختراق والاقتحام من كل جهة، ولم تكن تتوق إلى أكثر من ساعة صفاء ومواجهة مع النفس، مواجهة لم تكن ترغب فيها في سماع اللوم والتأنيب، والاتهام بالفشل والخيبة والإخفاق، بل في مجرد قلبٍ حانٍ يتفهم مأساتها، يتفهم كيف خذلتها صفاتها الشخصية، وكيف غلبتها الأحلام على كل محاولاتها المستميتة للتشبث بالواقع، لقد سمحت لأيدي الحوريات بسحبها إلى النهر، وتغطيسها في مراعيهن الفردوسية الخضراء، فقط لتعرف بعد فوات الأوان أن البحر ليس به حوريات، بل نداهات قاسيات القلب، يجذبن

المفتونات والحالمات ويغرقنهم في البحر، أو يتحولن إلى وحوشٍ ضارية تلتهم جثث ضحاياها في الأعماق، لم يتفهم أحد أزمتها، ولم يحترم متطلبات سنها، وجدت نفسها في بيئة ترغمها على كبت مطالب ونداءات مرحلتها العمرية، بدلًا من تفهمها والتعامل معها، إن أباها وأمها يسمحان لأخويها، برغم أنهما لا يزالان في سن الطفولة حرفيًا، بلعب أدوار الرجال البالغين، يشجعونهما على ذلك، بينما تُطالب هي بإنكار أنوثتها المقتحمة، التي تسللت من الشباك وصارت أمرًا واقعًا بالفعل، أحست بعدم العدالة في إصرار كل من حولها على تمزيقها بين شقي معادلة غير رحيمة أو عادلة، إما أن تنكري نضوجك وأنوثتك وتستغفري الله عليهما، كما لو كانت ذنب أو خطيئة، أو تتنصلي من عار الأنوثة بتحويلها إلى تضحية عظيمة في سبيل رفاهية الأسرة وتحقيق طموحات الآباء، إنها تذكر أول طمثٍ لها، وكيف عوملت من قبل أمها على أنها همٌ وعارٌ يجب مسحه والتكتم عليه، لا كحقيقة بيولوجية حيوية، ليس بوسع أحد تخطئتها أو انكارها.

نصف تلك الأفكار كانت من خارج وعي "راوية"، كانت أكبر من سنها ونضجها العقلي، لكنها كانت تدور وتئز حولها، كفراشاتٍ مراوغات يحُمن حول رأس عصفور، يطرن بعيدًا إن حاول التقاط إحداهن، لكنهن لا يرحمن محاولاته لاصطيادهن، ويواصلن إغراءه بلا رحمة ولا شفقة، في ساعة نحس وكمد كتلك كان الدعم ضنيًا وعزيزًا وغير متوقع.

لكن صيحات الأم من أسفل سرعان ما سكتت، أو أُسكتت، استقبلت الأسرة ضيفًا عزيزًا جاء على عجل، يبدو أنه أُحيط علمًا من قِبل طرف محب للأسرة بأن ثمة مشكلة عائلية تؤرقهم، كان الزائر عزيزًا ومحبوبًا ومحترمًا، وبرغم ندرة زياراته لمنزل الأسرة، إلا أن حضوره كان يحاط بكل مظاهر الابتهاج والحفاوة، فهو بمثابة الجد من الطرفين، يعتبر الأستاذ "عبد العزيز" ابنًا له، ويعد زوجته

"أم زياد" ابنته التي لم يرزق بها، وبرغم أنه أنجب ذرية عريضة من الأبناء والأحفاد، لكنه كان يعيش برفقة زوجة مسنة طيبة كالملائكة، وابنة صغرى جامعية في شبه وحدة تامة، بيتهما الكبير عامر بكل صنوف الخيرات والنعم، لكن سؤال الأبناء المتفرقين في شتى المهن والأنحاء، عزيزٌ وقليل، واتباعًا لسنة الملكات الجديدات، لم يتبق للملكة الأم القديمة سوى التوقير وألقاب التشريف، وللأب سوى الاحترام والذكر الطيب، وفوق كل ذلك، فقد كان الميراث المنتظر قد قُسم فعلًا على الأبناء في حياة عينه، خشية الغبن والباطل ونهب ميراث الابنتين من قبل أخوتهما الذكور، بشتى الحيل والأعذار التي تقال عادة في تلك المناسبات، مما جعل الأب غير ذي صفة ليكون مطمعًا، أو يحاول الأبناء استدرار رضاه لأى سببٍ آخر غير البر، الذي تستوجبه البنوة والفضل العريض للأبوين، ولكن في كل الحالات فقد كانت الحياة الاجتماعية تمثل مصدرًا للحصول على الرعاية والمحبة من قبل الأقرباء، وحتى الغرباء كان لهم في محبة الأب المسن الطيب، وتدخلاته المفيدة في المشاكل بحسن نية للإصلاح والتوفيق، وهذا مما جعل حضوره في تلك الساعة بلسمًا يشفي، ويدًا حانية تمتد لتستل السيف المغمود في خاصرة الأسرة المنكوبة، وفرصة لتقديم حل ربما لم يفكر فيه أحد من الأبوين المكلومين، المحملين بالغضب وخيبة الأمل.

أُستقبل الحاج "راضي" أحسن استقبال من قِبل الأب، بينما كفكفت الأم دموعها، وسحبت طرحة خفيفة لتغطي شعرها وعنقها، ثم سلمت بحفاوة رغم ما هي فيه من ضيق، ودخلت إلى المطبخ لتعد واجب الضيافة، ساحبة معها طفلتها الشقية "جنى"، التي ما كان يصح أن تتركها لتفسد جلسة الرجلين، وترهقهما بملاعبها وأسئلتها التي لا تنتهي، جلس الرجلان في الصالة جلسة الأقارب وأصحاب البيت، لم تكن هناك حاجة للتصنع، أو للإغراق في تفاصيل

الترتيب، ومراعاة وجود ضيف غريب في البيت، فالرجل لم يكن غريبًا، لا يكون الآباء العجائز الطيبين ضيوفًا في أي مكان، إن شيبتهم وسنوات عمرهم التي منحتهم خبرة، واستهانة كاملة بقواعد التصنع والادعاء والتزييف، التي انقضت فيها زهرة شبابهم الزائل، حتى صحوا يومًا على رؤوسهم وهي تشتعل شيبًا وحكمة، وأدركوا من خلال سنوات عمرهم المهدرة، التي خلفوها وراءهم غير آسفين عليها في معظم الأحوال، صنوفًا من الحقائق، وإن كان بعضهم مؤلمًا، إلا أنها في غالب الأحوال كانت مفيدة وطبيعية للغاية، فرش وغطاء، وأربعة جدران، وبيت يرفرف عليه التسامح والتفاهم، وتقبل عيوب ومثالب الطبيعة البشرية، وأيضًا المباهاة بمآثرها التي لا يملكها جنس ولا نوع آخر على الأرض، هي جملة احتياجات الإنسان الحقيقية، والحفاظ على تلك المطالب البسيطة هي كل ما يعوزه ليتغلب على أي مشكلة تعوقه أو نائبة تعرض له في سنٍ كسن خال الأم الحكيم هذا، كان رسوب أحد أولاد العائلة لا يعني سنة مهدرة من عمر هذا الابن وكمًا مفقودًا من النقود والجهد، ومشوارًا قُطع بشق الأنفس، وتوجب إعادة قطعه وانهائه من جديد، بل فرصة للتعليم واكتساب الخبرة، ومعرفة أن اليوم الذي يذهب قد يعود في صورة شيء نتعلمه، وخبرة نكتسبها توفر علينا سنوات من التعلم والمحاولة والخطأ، كان حضور الحاج "راضي" في تلك الساعة هبة سحرية من هبات السماء، وهو بكل طيبته وقلبه المفتوح للناس، كان يحمل معزة خاصة لأسرة قريبته "هدى" وزوجها الطيب المحترم، كان يرى في رجل البيت ابنًا شبيها بأولاده، غير أنه يتميز عنهم ببره، وأيضًا بما يميزه من قبول وتقرب لأهل زوجته، على النقيض من رجالٍ كثر يعتبرون أسر وأقرباء زوجاتهم أعداء الداء لهم، وقنابل موقوتة منزوعة الفتيل، معدة لتخريب بيوتهم، وتقويض حياتهم مع نسائهم! جاء في بهرج من الرضى والتسامح الذي يعلو وجهه الطيب الناصع.

كان الحاج يتمتع ببشرةٍ بيضاء صافية، تكاد تكون شفافة لفرط نقائها وصفائها، وفي حمئة رعايته لنفسه لم يهمل الرجل المحاط بالاحترام والتبجيل من كل من حوله نصيبه من الدنيا، فأولع بالتطيب والروائح الدسمة المغرية، كان للمسك والعنبر والدهن عنده معنى ديني أكثر منه دنيوي أو شخصي، لديه سلسلة من عادات العناية الشخصية، وجدول خطوات يومي لا يكاد يحيد عنه في منشط أو مكره، حتى في الملمات لم يكن يفارق منزله، ليشارك في تشييع عزاء، أو يذهب مواسيًا أقارب أو معارف في فاجعة دون أن يبدو في خير مظهر، كانت زياراته لبيوت أقاربه بما فيهم الأبعدين منهم روتينية، وتقابل بترحاب وحفاوة مبالغ فيهما، فقد كان وجوده بلسمًا يساعد على تهدئة الخلافات، وإطفاء النيران المستعرة، وإشاعة جو السلام والطمأنينة في المكان، ولن ينسى أحد كيف كادت الأزمات تطيح ببيوتهم وعائلاتهم أحيانًا، قبل أن يظهر عمنا الحاج على أبواب منازلهم، ليختلف الأمر من حالٍ إلى حالٍ آخر، وتنتهي الخصومات وتُستل السخائم من القلوب المشتعلة بنار الحقد والخصام، فكيف بالله لا يرحب والد "راوية" بظهور الشيخ في شقته المحملة بالحقد والغضب والضغينة في تلك الساعة، ويهش ويبش لحضوره غير المنتظر؟!

دقائق قضاها الحاج، الذي قبل واجب الضيافة بصعوبة من يدي الأم المكلومة، حاولت الزوجة أن تبدو في خير حال، لكن عينيها المحمرتين من أثر البكاء المقموع، وشعيرات مقدمة رأس زوجها الثائرة، ووجهيهما المحملين بعلامات شقاق وغضب لا تُخفى على أحد، لم تغب لثانية واحدة عن فطنة الرجل الطيب المحبوب، ويبدو أنه أُحيط علمًا بالمشكلة التي تواجهها الأسرة الصغيرة، فهرع إلى هنا فاردًا أجنحته ليرفرف فوق عشهم، ويصب فيضًا من برودة الثلج والبرد، وطمأنينة الوفاق الشامل فوق الجحر الملتهب، فقوبل بكل

ترحاب، ولم يخف عنه الأب المكلوم خيبته وسخطه بسبب رسوب ابنته، وراح يردد بغيظٍ مستعر:

- "لن تذهب إلى المدرسة مرة أخرى.. سأبقيها في البيت وأزوجها أول عريس يتقدم إليها".

طالعته زوجته بهلع وهو يقول ما يقول، بينما راح الحاج يردد بلهجته الودود المطمئنة للقلوب:

- "لا لا لا.. كل شيء في علم الله.. أين البنت الغالية؟".

كان يعرف اسمها بالطبع، فهو بمثابة جدٍ لها، ولكنه استعمل صفة تحببها وتقربها من قلبي أبويها، كان يدرك أن السخط يورث خصومة غير منظورة، والشقاق يباعد بين القلوب، حتى يصبح الأب وولده وكأنهما غريبين عن بعضهما، أخبرته الأم أنها هرعت إلى السطوح لتختبئ من غضبة أبيها، وهمت بأن ترسل الطفلة لتنادي أختها وتستحضرها قسرها من ملجأها غير البعيد، لكن الرجل اعترض، ونهض فجأة قائلًا بطريقة طبيعية للغاية:

- "لا، إنها خائفة منكم الآن.. سوف أذهب إليها وأحدثها متلطفًا".

زعق الأب رغم إرادته المحتجة على إظهار سوء السلوك، أمام كبير العائلة المبجل من الجميع:

- "سأوسعها ضربًا وأنزلها عنوة من فوق السطح.. لابد أن تعاقب عقابًا قاسيًا".

استدار الحاج لينظر نحوه بهدوء، ثم نصحه بأن يخفف من غلوائه وخوفه بأن ردة فعل خاطئة، أو مسرفة في قسوتها، قد تجعله يخسر ابنته بقية حياته، أو

تدفعها للهروب من المنزل، والانضمام إلى طابور المراهقين والأطفال الذين يعيشون أسفل الكباري، ويتعرضون لشتى صنوف الإيذاء والانتهاك في الشوارع، ارتجف قلب الأم عند سماعها لتلك العبارات المرعبة، بينما هدأت مشاعر الأب، وراح عقله يتغلب على عواطفه الساخنة تدريجيًا، تركهما الجد الطيب ينضجان على مهل، ويدركان ما عليهما فعله الآن، وتوجه هو بخطواتٍ بطيئة واثقة نحو السطوح، وارتقى السلم متئدًا متمهلًا، لم يشهد الأب والأم ذلك المنظر، لكن الرجل المسن تحول فجأة، وراحت عيناه تلمعان ببريقٍ عجيبٍ وقوي وهو يرتقي السلم، مقتربًا شيئًا فشيئًا من حيث تختبئ البنت الناضجة، بعيدًا عن بيت أبويها المشتعل.

كانت مسافة طابقين تعد مشوارًا شاقًا بالنسبة إلى سنه المتقدم، لكن لياقته التي تتناقض مع كل الشروط الصحية، والاعتبارات الوظيفية لمن ولدوا معه في حقبة كان الزمن فيها غير الزمن بشكلٍ كامل، جعلت وصوله إلى سطوح المنزل الكبير، الذي افترشته بقايا لمات عائلية لم تعد تجري هنا، وفاضت أرجاؤه بذكريات لسنوات كان فيها الجيران يعدون أسرة واحدة كبيرة ومتماسكة، دون أن يلهث بشكلٍ واضح، أو يحس تعبًا يقعد به عن مواصلة التقدم أمرًا مقبولًا شكلًا وموضوعًا.

لم تكن "راوية" تعرف شيئًا عن قدوم الحاج "راضي"، ولم تكن تتوقعه، فقط بقيت هناك بعد أن غادرت العشة الخاوية الخانقة، مستندة إلى سور السطح، متطلعة إلى الجانب الآخر من المشهد، خلفية المبنى القديم الركين الذي يعيشون فيه، وحيث توجد شوارع وأزقة طالما اشتهت الانطلاق فيها على سجيتها، جارية مع النسيم ومتابعة الأطفال في لهوهم ولعبهم، وحتى سباتهم البذيئة المتبادلة كانت تستهويها، حيث رأت تحررًا طالما تطلعت إليه، انفلاتًا من

كل القيود، وهيمنة على المصير تُمنح منذ الصغر، هبة لا ترد.. تُعطى بغير حساب لقليلٍ من المواليد سعداء الحظ في مجتمعها الكبير، على شرط ألا يكونوا أناثًا، وألا يكون لآبائهم تطلعات أكبر من مستوى دخلهم وإمكاناتهم المادية، وأيضًا ألا يكون لديهم أنفس هشة متورمة، تستحضر الماضي وتختزن الصديد، وتتكور حول نفسها، طافحة برغبة لا تُطاق في الانفجار، ورغبة أشد تؤازرها اعتبارات اجتماعية لا حصر لها، في التكتم والسكوت والتعافي الذاتي، دون معونة طبيب أو مسعف، أو تدخل مشرط حاذق يستأصل ويزيل ويبتر، ويقتلع الألم من جذوره.

استغرقتها هذه الخواطر المتشابكة، فلم تحس بما حولها، حتى أحست بيدٍ مرتجفة مبهورة تنساب فوق كتفها الأيمن، وتتجه في خطٍ متعرج ملتوٍ قبيح، كمثار حية قديمة معبق جوفها بالسم والمقت والخداع، نحو مفرق كتفيها وخط ظهرها.

....

انتفضت.. وانخلعت من مكانها، كانت الرجفة التي أصابتها هائلة، إلى حد أنها تخيلت أنها ضُربت بصاعقة كهربية، ارتعدت فرائصها، وراحت أعضاؤها تتخلخل وتنخلع من مكانها، وكأن قلبها الصغير فارق موطنه، منسابًا عبر داخل غير ودود مقتربًا من مفرق ساقيها، وبين جنبيها ركضت بقية الأعضاء ملتاعة حائرة، كانت كل جارحة فيها تبحث عن ملجأ آمن تختبئ فيه، أما العقل.. الرجل الكبير المسيطر، فقد غشيته سحابة بيضاء شاحبة، لم يعد يرقب من خلفها سوى أفقٍ عديم اللون، أفق ساكن بغيض، وسماء مكفهرة ببياض اشد قتامة وإثارة للمخاوف من عتمة المساء وظلمة الليل الحالك البهيم، لقد سمعت دومًا أن من يتعرضن لحالات تحرش يفقدن القدرة على الحركة والتصرف لبعض الوقت،

وكثيرًا ما سخرت الفتيات غير المجربات، والنسوة غليظات القلوب، والرجال الذين يتفننون في الدفاع عن بني جنسهم، ورمي ثقل المسؤولية بأكمله على عاتق الضحية، أو الضحايا، من تلك الفكرة، متمسكين كلهم بمشروعية قانون الغاب رقم واحد (أكيد بمزاجها!)، محاولين إيجاد مبرر لما لا تبرير شرعي أو إنساني أو خلقي له، هؤلاء ليسوا بشر، إنما هم أحجار عسف على الطريق، لم يجربوا الضعف البشري، ولا الشعور بالحصار داخل ركن معتم، زاوية لا يزيد انفراجها عن صفر، بئر محكم مسدود بألواح الخشب من أعلى، تعمره الأفاعي وقرابين الشرك المسفوحة منذ قرونٍ مضت، تلك اللمسة المنسابة على الجسم تجعل الأمعاء تتقلص، والأحشاء تواصل عملها في الاتجاه العكسي، والمايسترو يرمي عصاه جانبًا، بعد أن بات عاجزًا عن استعمالها في الهيمنة على أعضاء فرقته، لحن عشوائي يضرب من عدة نواحي في وقتٍ واحد، نشازٌ يرد على نشازٍ فيجيبه نشازٌ ثالث، تلك كانت لحظة معاينة موت لا نهاية لها، لكن.. وحينما عادت الحياة إلى الجسد الخامد الميت، ارتفعت يدٌ قاسية لتبعد هذا المعتدي الأثيم، تلفظه وترده بفظاظة وعبوس وقسوة:

- "ما بكِ يا ابنتي؟".

تساءل الحاج مندهشًا من فجاجة البنت تجاهه، كان يقصد خيرًا، طبقًا لظنه الحسن عن نفسه، لكنه جاء ليحيل الأزمة الوحيدة إلى أزماتٍ عديدة، مصائب وبلايا متراكبة تفعل فعلها في النفس الهشة المحطمة!

حاول تهدئتها مستعملًا يديه كلما سنحت له الفرصة، لكن "راوية" انزاحت قصدًا عن مجال طولته، فباتت محصنة من وصوله إليها، وأجابت على مبادراته الطيبة المتتابعة بجفاء وغلظة، وحينما عرض أن يستحيل إلى حمامة سلام، ملوحًا

بجناحي عباءته البيضاء قِبلها كإغراءٍ لا يقاوم وفرصة لا تعوض، للحصول على الدعم والحماية، لم يجد منها إلا كل ازورار وجفوة، لكنه انسحب في النهاية ملوحًا بأمل أن يسفر بينها وبين أبويها الساخطين، أن يعقد اتفاق سلام، خوفها بقرار أبيها المفاجئ بحرمانها من استكمال دراستها، ومنعها من مواصلة التعليم نهائيًا، كانت تلك ضربة قذرة هوت فوق أشد لحظات الوجود هشاشة وضعفًا، فتركته ينزل أمامها، وتتبعته من مبعدة آمله أن تحصل على الحليب من بوز القرد، وأن يتمكن الرجل، رغم مقتها الشديد له من تحقيق فائدة صغيرة لها، ربما مضاعف من حصيلة ما سببه لها من أذى نفسي ومعنوي، سيلازمانها ما بقيت حية، أو ما ظلت ذاكرتها حية نشطة، تغتذي على أخبار المراهقة، ومرارات مراحل العمر المستضعفة، حيث يتوقع الجميع من الفتاة أن تكون ممسحة للأقدام، تستقبل كل قدم جديدة تدوسها بنشوة، وتتلقى كل مظالم المجتمع، وقواعده الخالية من العدل والانصاف، بابتسامة راضية متفهمة.

....

في الشقة الملتهبة كان هناك حريق حقيقي، كانت خيبة أمل الأبوين، مدعومة بآمالٍ عريضة مسفوحة أسرفا في تزيينها، ومغانم مالية فادحة، مقارنةً بميزانيتهما الهزيلة، ورغبات حارة في تخطي تصرفات البنت غير المقبولة، عبر تحويل طاقاتها في الجنوح واصطياد المشاكل، إلى الدراسة وتحقيق مستقبل باهر أو معقول، كلها تحطمت بقسوة تاركة نثارًا كبقايا الزجاج المهشم، قد تكون من الضآلة بحيث تفوتها الأعين غير المدققة، لكنها حادة ومسننة وشديدة الأذى، حاول الأب كبت غضبه حينما شاهد قريبه الطيب الوقور، يعود مقتادًا خلفه البنت غير المرغوب في أن تقع عليها الأعين الساخطة الآن، كانت الأم في مرحلة

هدوء نسبي، ركنت إليه مقصورة بتبعات التعب والإرهاق اللذين سببهما اضطرام غضبها وحدة انفعالاتها.

"راوية" من جهتها كانت تحس بوطأة الألم، كان اللوم وتأنيب الذات يقتلانها، وحين ظهر الحاج الطيب عرفت أنها وقعت بين شقي رحى قاسيتين ومميتين، إذ لم يكن مثل هذا الرجل الأريب نهاز الفرص، ليرفع مؤخرته الثقيلة عن أرضية منزله، ويقطع الشوارع قادمًا إلى منزل أقربائه البعيدين، ما لم يكن هناك ترتيبات، أو ربما نيات غير مستحبة تُعقد من جهتهما، فهل يفكرون في منعها من استكمال تعليمها، وربما من تزويجها مبكرًا بأي شخصٍ يطرق بابها؟!

لفظت "راوية" آخر أنفاس رعبها حين جنح فكرها، فتخيلت أن العريس المنتظر ربما ليس سوى الحاج نفسه، نهاز فرص وربما يريد أن يستحكم على مصيرها، ويضمها بين جدران بيته رفقة أسرته المنتشرة في كل صوب، لتكون خادمة وزوجة، يتحرش بها وينتهك حرمتها الجسدية متى يشاء ويحب، ارتعدت فرائص الفتاة.. وانتفضت كل خلية في بدنها، حين وصل بها تفكيرها المضطرم إلى حائط السد المخيف هذا!

تطلعت نحو الحاج بغلٍ وكرهٍ مكبوتين، ثم رأت أباها قائمًا، وبرغم شدة غضبه منها وسخطه عليها، ذلك الغضب الذي كان يلمع في عينيه المحمرتين، فإنه كان حصن الأمان لها في تلك الصحراء الباردة الموحشة، فكرت رغم كل شيء في أن تهرع لتلقي بنفسها في حضنه، وتعترف له بكل شيء، تشير إلى الجاني بإصبع قوي لا يخاف ولا يرتعش، وتتهمه وتدينه على مرأى ومسمع من أبويها، تأخذ حقها انتفاضة غضب بعد طول كبت وقهر لمشاعرها المستحقة، وتلوم من يستحق اللوم، تلقي بالعتب في حجر الجاني الحقيقي، الرجل الذي أحيا في روحها

مشاعر ومعالم ما كان لها أبدًا أن تعرفها، أو تفكر فيها إلا في أوانها المضبوط، وتنال دينًا مستحقًا لديه وإن كان متأخرًا، متأخر جدًا بحساب الزمان الهين الذي عاشته على تلك الأرض، وعلمها ما يفوق سنوات عمرها كلها من تجارب وخبرات، صحيح أن ثمة احتمال يصل سقف اليقين الجامد، بأن أحدًا لن يصدقها، فالحاج الطيب فوق كل ريبة وكل شك، لكن اعترافها وصراخها بما تكتمه في نفسها سيجعل جرحًا قديمًا، وراسخًا، داخل روحها يندمل بشكلٍ أسرع وأكثر صحة، سوف تتطهر أمام ذوي الشأن الآن، غير أن كل حومة التفكير المؤذية تلك لم تستغرق أقل من دقيقة واحدة، إذ أدركت الفتاة في تسلسل فكري ذي خطٍ معاكس مدى الضرر الذي يمكن أن يحيق بها من اعتراف أو اتهام كهذا، فأولًا ثمة احتمال وافر في ألا يصدقها أحد، سيؤخذ كلامها على أنه حيلة دفاعية تغطي بها خيبتها، ووسيلة غير شريفة للهروب إلى الأمام، عبر تحميل قضية رسوبها غير المتوقع باتهامات وتخريجات بعيدة كل البعد عن حدث الساعة الآن، إن هيبة الرجل ووقاره المصطنع، وما عُرف عنه من أخلاقيات ومعاملات حسنة ستقف إلى جانبه، سيكون منظره وعمره وأسرته ومنافعه للغير محاموه البارعون، إزاء طفلة غريرة، مراهقة فاشلة حمقاء، تصرخ متهمة إياه بأنه متحرش بالأطفال، رجل غير شريف، وإنسان جدير بالعقوبة والحجر والتأنيب، ثم إنها إن صدعت بما يزينه لها خيالها المحموم، الذي ينقب بجنون عن وسيلة للخلاص من حمأة الموقف المزرى، الذي تعلق فيه صاحبته في تلك الساعة، فقد تفقد فرصة الدعم والحماية الوحيدة المتوفرة لها الآن، بل على العكس فقد تنقلب المنضدة فوق رأسها، وتتهم بالغش والكذب والافتراء، وينظر إليها أبواها على أنها ابنة سيئة الخلق، مثيرة للمشاكل، ومجلبة للمصائب والفضائح، وقد تتحول نياتهم العقابية ضدها إلى قانون صارم، ينفذ على رقبتها، ناهيك عن إرادتها أو رغبتها، فيمنعونها فعلًا من العودة إلى المدرسة، ويرغمونها على البقاء في المنزل والزواج بأي

شخص، وربما يتحول كابوسها إلى حقيقة أشد رعبًا منه، فيكون العريس المختار هو الحاج ذاته، رغبة في التكتم على الفضيحة، ألم تسمع كيف تُجبر الفتيات في بعض المناطق على الزواج من مغتصبيهن لوأد الفضيحة، وإصلاح ما انكسر بنفس اليد الذي حطمته تحطيمًا!

غلبت النفعية وحسن التفكير إذن، فصبرت البنت.. ولاذت بالصمت، تاركة منتهكها يزين لأبيها العفو عنها، ومسامحتها، والسماح لها بأن تعيد السنة، مقابل وعد منها بتحقيق النجاح، والانكباب على المذاكرة بكل نشاطٍ وهمة، وزيادة في تزيين نياته الطيبة عرض الحاج أن يساعد حفيدته الطيبة، هكذا سماها دون خجلٍ أو حياء، في الاستذكار بنفسه، وهنا أدركت "راوية" أن الرجل جاء هنا ليكون صيادًا.. لينصب فخًا.. ويُعد شركًا، جاء بعد أن سمع الصياح في الغابة، فظن أنه ليس عليه إلا أن يجرد سهمه، ويطلقه في الظلمة المستترة، فتسقط الضحية من فورها، غير مضرجة بالدماء، بل بيضاء نظيفة لامعة، شهية مستطابة، معدة للأكل والالتهام، ما عليه إلا أن يضع الفوطة حول عنقه، ويغرس شوكته ويقتطع من الجزء الذي يعجبه، (فخذ، صدر، كتف)، مائدة ممدودة ويده تنال ما تشاء، لعله وجدها فرصة، لكن البنت قررت أن تقاسمه نفعيته وانتهازيته، فتتركه يقنع أبويها بتركها تستكمل دراستها الإعدادية، ثم تفوت عليه فرصة أحب أن يستغلها كما يريد، فتمنعه من الانتفاع بمقابل وقوفه بجوارها في ذلك الموقف العصيب، استكان الوالدين الناقمين لتهويد الجد الطيب، ووجدا في كلماته بلسمًا يشفي جروحهما في دقائقٍ معدودة، عرض بطيبتهما وطيب منبتهما، ثم راح يعرض أمثلة لشبان وبنات كانوا فاشلين في مستهل حياتهم، وقد رُفعت الأيدي عنهم، وفقدت كل الآمال، لكن الله عوض صبر آبائهم وأمهاتهم خيرًا، وصار هؤلاء الأولاد مفخرة للوالدين فيما بعد، تعمد

الجد أن يبدأ خطابه ويتممه مبتدئًا بالأب، كان يحاول أن يستنهض همته، ويضعه أمام مسؤولياته، باعتباره السيد والمسيطر، وصاحب القرار هنا، استعمل التسلط الذكوري ليستخلص البنت الغضة لنفسه، وينفرد بها تحت سمع وبصر أبويها اللذين يحسنان به الظن كل الحسن، والتصديق في الطيبة والوداعة ومحبة الجار كالنفس، حزمة من الأخلاقيات والمثل الطيبة تمشي على الأرض، وحدهم من أُذوا وانتهت براءتهم وعفتهم المبكرة يستطيعون البرهنة على عكس كل ذلك، لكن الموقف لم يكن يحتمل مكاشفة من أي نوع، فقط صوت واحد ينطق ليبرر ويصلح كل شيء، برغم همهمات الأب غير الراضية، وزومان الأم ونظراتها الحادة، كنظرات لبؤة جريحة سرق ضبع متلصص دخيل عشاء أشبالها خلسة من تحت أنفها، فإن جوًا من الهدوء ساد فورًا، راح القريب المسن الطيب يشرح للأسرة الحالة، والخيارات المتاحة أمامهم، وحتى بدون تدخله المطيب كالبلسم الشافي، فإن فكرة منع البنت من استكمال دراستها كانت مجرد فكرة انتقامية لحظية، إذ لم يكن لدي الأسرة خيار سوى متابعة الطريق الذي اختارته منذ البداية، إنهم ينتمون إلى طبقة مهددة كل لحظة بالنزول إلى الدرك الأسفل، والانسحاب من وجه الأرض، الذي يتوقون لأن يقبوا ويظهروا فوقه، والانجراف نحو الحضيض، النزول درجتين أو ثلاث حتى يتساووا ببائعي الخضر، والسريحة، والعاملين في الفاعل، الذي يعيشون اليوم بيومه، على حافة التهديد المستمر واليومي بفقدان مصدر عيشهم، الضمان الوحيد دون حدوث ذلك هو تأمين مصدر دخل ثابت يزيد طرديًا، الدخول تحت مظلة تأمين الراتب الشهري المتواتر، أموال الحكومة التي يبارك الله فيها، لأنها أصلًا مأخوذة حرامًا من جيوب من تُعطى لهم بالقطارة وبمذلة تتكرر كل شهر، لم يكن لدى العائلة أملاك، أو أمل في شيء يستحق أن يسمى ميراث، إن هو إلا فتات ينتظره الأب من أخوته، إن أعطوه شيئًا في المستقبل، وميراث صغير جدًا قد يوهب للأم من أخوتها

الوارثين بالعصب والتسلسل الذكوري، وشرف حمل الاسم أمانة غير محفوظة ولا مُصانة، أو يؤكل هنيئًا مريئًا دون شعور بالذنب، تحت مظلة مبررات مجتمعية وخلقية لا آخر لها، إذن فقد كان الأمان الوحيد في تلك العتمة المطبقة هو تعليم الأولاد وتسكينهم على سلم الترقي الحكومي، وحفظهم في أضابير الحكومة التي لا تنسى ولا تسامح في شيء، الروتين القاتل يعني الاستمرار في الحياة تحت الحد الأدنى من شروط العيش، لكن دون أن يؤمن لوازم رفاهية، أو مستلزمات حياة لم تطمع الأسرة أبدًا في الحصول عليها.

وفشل البنت الكبرى في التعليم كان يعني انخفاض في تراتبية العائلة، وسلب واحد من حدود معادلتها التي تحاول فرضها على الوجود، وإرغامه على قبولها، ربما لو حدث ذلك الموقف منذ ثلاثين أو أربعين عامًا لكان هينًا أشد الهون، فلم يكن ثمة حديث عن مشاركة حقيقية بين المرأة وزوجها حينذاك، ولا تسمع كلمة ندية ومساواة وخلافه، جهاز العروس لم يكن يزيد عن بضع أغراض زهيدة، تُشترى أو لا تشترى، كان الأمر يخص وجاهة اجتماعية تحاول أن تثبت نفسها، لكن لا أحد يعير أو يشين إذا لم يحقق المرء منها شيئًا، كان الناس بسطاء، مطالبهم ومطامحهم بسيطة، الآن يدخل العريس من الباب ليسأل أول ما يسأل عن راتب العروس، إن كانت تعمل، جهارًا أو بلفظ مهذب مستتر، ثم تبدأ المذبحة للأب المفجوع، الوالد الذي من المفترض أن يفرح بستر ابنته، فُيباغت بأن عليه تلالًا من الواجبات والمستحقات تنغص عليه فرحته، وربما أودت به إلى غياهب السجون وما وراء أسوارها، تعقدت كافة الأمور، والفتاة التي لا عمل ولا دخل خاص لها باتت عبئًا مزدوجًا على من يعيلونها، وعلى نفسها إذا ما وجدت ذاتها في موقفٍ يحتم عليها تبني واجبات الرجال والنساء معًا.. أية حياة هذه؟!

غير أننا مضطرون للمهادنة، وما دمنا لا نملك أسلحة ناجزة نغير بها الواقع، فعلينا ببساطة أن نخضع لإملاءاته، وفي حالات كثيرة علينا أن ننبطح - انبطح بالله عليك - وإلا دهسك القطار، وحولك إلى أشلاءٍ تحته!

لم تغب كل هذه الاعتبارات عن ذهن الأب المتقد غضبًا وهو يتفرس بابنته، لاذت بركنٍ تاركة مهمة المحاماة عنها للقريب الطيب، حمامة السلام التي دقت باب منزلها، وفردت أجنحتها محاولة نشر الوئام على الشقة الصغيرة، التي تحترق من فرط ما شُحن فيها من انفعالات وعواطف متضاربة، الأم من جهتها وجدت أن من واجبها أن تلوذ بالصمت في حضرة رجلين يتكلمان ويتناقشان، لم تنس واجبات الضيافة، ولا التزامات الأصول والأعراف، أعدت شرابًا باردًا، وهيئت طبقًا من المعمول، الذي تتفنن في حشوه بالمربي والمكسرات، برغم كل شيء لا يجب أن تقال عنها كلمة سوء واحدة، لا ينبغي أن يعتبرها قريبهم الحاج المحترم امرأة قليلة الذوق، أو أن تتعلل بما هي فيه لتتجاهل واجباتها كزوجة وأم وربة منزل.

مشكلة عائلة الأستاذ "عبد العزيز"، ومثيلاتها من الأسر الأخرى، أنهم يتفننون في لعب أدوارهم، ولو عن غير اقتناع، وينحازون إلى التظاهر والملاينة والمخادعة، حتى ترهق أعصابهم، وتتحطم قواهم، لذلك ينفجر البسطاء أحيانًا في جرائم مروعة، لا تحدث غالبًا بين من يعيشون الحياة على سجيتها، دون اعتناء بالتكلف والتصنع، يضيقون بالعيش والعيش يضيق بهم، لكن عليهم رغم ذلك المضي في الطريق الذي اختاروه حتى النهاية، يكدسون أغراضًا لا يحتاجون إليها حقيقة، من أجل المنظر الاجتماعي، واعتبارات الاستعلاء الأسري والعائلي، ويلجأون إلى الدين والرهن والاقتراض من أجل الوفاء بالتزامات ورفاهيات يمكنهم

بسهولة الاستغناء عنها، يقيمون أفراحًا ضخمة، وسرادقات عزاء مكلفة، ويتحملون في سبيل ذلك عنتًا ماديًا، وإرهاقًا معنويًا وصحيًا ونفسيًا، ويقعون على اختيارات باهظة بالنسبة لما يتمتعون به من دخلٍ محدود، يعيشون عمرهم بالكذب، بالاحتيال والخداع الزائف، المصيبة أن كافة تلك الذنوب تتجه نحو أنفسهم أولا، يخدعون أنفسهم وهم يتصورون أنهم يخادعون الآخرين، ويدخلون الغفلة عليهم، ويخدعونهم عن حقيقة حياتهم وظروفهم العسيرة.

كانت "راوية" ترى محاولات للستر بالغصب في منزلها كل يوم، الأم التي تدبق من مصروف بيتها، أو تحرم نفسها من كسوة في العيد لتوفر مالًا تشتري به هدية، أو تقدم به قربانًا مفروضًا في مناسبة اجتماعية، لن يقلل من شأنها أبدًا أن تذهب إليها خاوية الوفاض، محملة فقط بمشاعر المودة والمحبة الصادقة، فلم يعد للمشاعر الطيبة ثمن أو قيمة، لا يمكن مبادلتها بالنقد، أو صرفها من البنك، إذن فهي بلا قيمة، بضاعة بخسة لا يشتريها، أو ينظر إليها، أحد.

في جلسة التفاوض كانت شروط الأب واضحة ونهائية، أحجمت الأم عن التدخل المباشر، لكنها كانت تحدج زوجها بنظرات قاسية مباشرة، إذا وجدت أنه ينزلق في فخ المهادنة دون شروط، أو يسمح للشيخ الطيب بجرجرته في وصلة استعطاف واسترحام لا تسمن ولا تغني من جوع، كانت الأم خائفة أن تنجر العائلة إلى دائرة الفشل الذي لا ينتهي أبدًا إذا بدأ رسوب عام ثم السقوط لعامٍ آخر، ثم مجموع هزيل يجعل فرحة النجاح نكتة، ثم مدرسة متوسطة، تنتهي أعوامها الثلاثة بشهادة لا خير فيها، لا يمكن أن تتوظف بها البنت، وبالتالي فلن يخف حملها الثقيل عن كاهل الأبوين المثقل، بل ربما انتقل الحمل بالإرث الثقيل إلى الشقيقين الأصغر سنًا، كل هذه الاعتبارات المتشابكة دارت بسرعة

هائلة في ذهن الأم، وهي تتابع بصمتٍ شكلي وظاهري جلسة المباحثات الطويلة والشاقة بين زوجها وقريبها الطيب، من ناحيته كان الأب ينوي الاذعان منذ اللحظة الأولى، إذ لم يكن لديه خيار آخر، وناهيك عن كل الاعتبارات والأولويات الأخرى، فلم يكن الأب مستعدًا لأن يضحي بشهادة أي فرد من العائلة، لما يمثله ذلك من وجاهة اجتماعية في طبقته وبيئته، ووضع عائلي محترم ومهاب، فقط كان يرغب من تلك المسرحية المحملة بالعواطف والانفعالات الحارة إثبات وجوده، وقرص أذن ابنته، وكذا أخوتها الثلاثة بقوة، يريدهم أن يتعلموا أن للرسوب والفشل ثمن باهظ في ذلك البيت، وأن ثمن لهوهم ولعبهم وتضييعهم كل فرصة متاحة أمامهم سيدفعها أبوهم من صحته وشقاه، وسنوات عمره التي تنصرم في عملٍ شاق ومرهق من أجلهم، وتدفعه الأم من سهرها وكدها، ومحاجاتها على عائلتها، وحياتها التي ترهنها بغية أن تراهم في مراكز مرموقة، وتضعهم بعيدًا جدًا عن السلم ذي الدرجات الثلاث، الذي وُلدت على أول درجة منه، وأُرغمت على صعوده على غير إرادة أو رغبة منها، الميلاد والزواج ثم الموت، تلك كانت خياراتها الوحيدة، لكنها تريد خيارات أفضل وأوسع لأطفالها.

لم تصارح "هدى" زوجها، ولا أحد غيره أبدًا بتلك الخواطر غير المرغوبة في مجتمعها وبيئتها، لكن كان من المستحب بالنسبة إليها ألا تجد ابنتيها نفسيهما مضطرتين لقبول حياة تفرض عليهن القبول بالحد الأدنى من المطالب المشروعة، وبرغم أنها ما كانت لتعلن رغباتها أو تطلعاتها تلك على الملأ أبدًا، فإنها كانت تهفو دائمًا إلى اقتناء المجوهرات، والعيش في بيت متسع، بيت ملك لا تعيش فيه على مخاوف الطرد والإجلاء، أو مخاطر العجز عن تسديد إتاوته المعلومة في حينها، بسبب عجز أو فقر طارئ، أو مصيبة حادثة، حلمت دائمًا بالمصيف، وبالفساتين

الزاهية الغالية التي كانت تري النجمات يلبسنها، أو حلي المذيعات اللبنانيات الرقيقة في قنوات الطبخ والمسابقات التليفزيونية التافهة، كل عوامل الرفاهية ومسببات السعادة التي حرمت عليها، لا باختيار حر منها ومن زوجها، بل بذلك الإملاء المجحف القاسي: الأيد قصيرة والعين بصيرة!

شيء من كل ذلك لم يكن يغيب عن فطنة العجوز الطيب المتدخل، إنه نهم رغم سنه الكبير، وكثيراً ما شكت زوجه المتقاعدة من تلصصه على النساء، واشتهائه للقريبات أو الجارات، وإطرائه لجمالهن وفتنتهن في حضورها، لكن اللوم لم يكن من حقها، إذ كانت تخشى أن تتحول خواطره الشهوانية من مجرد التفرس وإبداء الإعجاب إلى خطوة خطرة، قد تدفع هي ثمنها باهظا من استقرار بيتها، وتمتعها بوجود زوجها وأبناءها، فيتزوج عليها مثلًا، أو يهملها ليلتحق بركب الرجال الذين يتخذون لهم عشيقات أو خليلات في الحرام، كلا الأمرين كان يقض مضجع الزوجة المسنة المقهورة، ويؤرق روتين أيامها الموهوبة للطبخ والغسيل والمسح، وتربية الأولاد والقيام على شؤونهم، طبق الأصل لما تعيشه زوجة السيد "عبد العزيز"، غير أن الأخيرة تحوذ نعمة لم يمنحها الله للأولى لسببٍ ما، وهي أن السيد الأصغر سنًا رجلٌ مكتفي، يغض بصره ويكف يده، ويفكر في عواقب الأمر قبل أن يفعله، لذلك فإن أي احتمالية لأن يبحث عما يفتقده خارج بيته لم تدر بخياله قط.

لم يطالب الأبوان بشروطٍ كثيرة، فقط عقاب البنت على رسوبها، والتي تمثل في قيود كثيرة، معظمها من ابتكار الأم المفجوعة من صدمة فوات فرصة صغيرة على أسرتها الظامئة، ووعد، يردفه تهديد ووعيد مبطنان يجمدان الدم في

العروق، باجتياز العام الدراسي القادم، وبدون أي مساعدة خارجية أو دروس خصوصية، كان على "راوية" أن تحقق النجاح في السنة الموهوبة لها من غير أن تعتمد على درس خصوصي، أو مجموعات تقوية، أو أي شكلٍ من أشكال الدعم الخارجي، وفوق كل ذلك عليها أن تتحمل بصبرٍ ودون تبرم، وبإحساس عظيم بالذنب والاستحقاق وجبة محترمة وشبه يومية من التقريع واللوم والتأنيب، وهو ما كان نية مستترة تظهر بوضوح في فلتات لسان أمها، كلما حاول القريب (الطيب) استدراج الأب الساخط لعقد نوعٍ من الصلح المشروط بينه وبين كريمته، وكان رفض الأبوين لحصول ابنتهما على دروس أو مساعدة في تحصيل دروسها عند إعادة السنة، فرصة عظيمة سرعان ما انتهزها الرجل الصياد بطبيعته، فعرض مستترًا خلف أشد مشاعر القرابة وسمات الطيبة والإخلاص، فجاجة وعرضًا عاريًا مقصودًا على أنظار المارة، أن تتلقى الفتاة المغضوب عليها المساعدة من ابنة الرجل، التي انهت تعليمها الجامعي في كلية الآداب، وتستقر في المنزل بانتظار العريس المناسب، كان الحاج من بين أشد المعارضين لفكرة عمل المرأة أو توظيفها، وفات الغرض الحقيقي من عرضه الكريم على الأبوين فواتًا مستحقًا، نتيجة ثقتهما العمياء الصماء البكماء فيه، أما البنت نفسها فقد كانت تدرك السبب الخفي المستتر وراء تلك الدعوة الناعمة المدهونة بالعسل، ورغم يقينها أن الرجل المسن الذي لا يرعى لشيبته حقها، ولا يرجو لربه الذي يتظاهر بأنه عبدٌ مخلصٌ طائعٌ له وقارًا، فإنها وفي ثبات أدهشها هي ذاتها، وافقت على عرضه غير الكريم!

كانت تلك حيلة تخلص بها رقبتها من الطوق، ولم تكن المساعدة التي سوف تقدمها لها الابنة الخريجة، التي رضخت لشروط وأفكار الأب العتيقة، تعنيها أو تهمها في شيء، لقد قررت أن تدخل عرين الأسد لتنزع أنيابه، عازمة

على أن تواجه الحية في جحرها، ولم تكن لتدخل أبويها في معركة صغيرة كتلك أية فائدة، فقد أدركت "راوية" في لمحة فهم ونضج يفوقان سنها بكثير، أن المعارك من هذا النوع غالبًا ما تكون معارك الإنسان وحده، دون توقع أو انتظار أي دعم من الآخرين، لقد أُنتهكت براءتها وحدها، بين يدي ذئبٍ عجوزٍ مفترس، لم يرع حرمة طفلة من لحمه ودمه، ولا ضعفها وانكسارها بين ذراعيه، ولم يفكر لحظة في أنه يقتل بيدٍ غليظة وغبية، فكرة نقية في عقلٍ لا يزال يدرج في أول طريقه إلى الحياة، وأنه يلطخ، ربما عن غير قصد استجابة لشهوته ورغبته التي لم تفتر، وإن فترت قدرته على إشباعها بالطرق الشرعية والمعلومة، من مصادر أكثر نضجًا وإدراكًا لعلاقة الرجل بالمرأة، حياة بأكملها، هذه اللحظات القليلة المسروقة ربما لم تشبع نهمه حينئذ، لكنها أرقت سنوات عمر قادم بأسره، فكأن تلك النوعية من الجرائم لا يفيد منها في الحقيقة أحد، فلا المجني عليه يدرك لماذا يوقع عليه مثل ذلك الاعتداء الغاشم، ولا الجاني يحقق نشوة الظفر، أو يصل إلى الرضا والامتلاء، وكأنها جريمة لا تغني ولا تسمن، فقط كل ما يجنيه الفاعل من خلفها أن يُزيد في كل يوم يمر على الضحية وهي تتألم وتتعذب، سجل خطاياه، ويُعاظم دفتر ذنوبه بتوابع جديدة يزيدها عليه كل ساعة.

كانت الدعوة الناعمة إذن مكشوفة بلا حجاب أمام عيني الفتاة، لكنها قبلتها مضمرة في نفسها التخطيط للانتقام، كانت طفلة مستضعفة حينما انتهكت ولطخت براءتها، لكنها الآن شابة ناضجة، فتاة دفعتها تجربة مريرة إلى اجتياز مراحل العمر قفزًا، فوثبت من قماط الطفولة إلى رداء الشباب دفعة واحدة، حاولت أن تعيش مراهقتها، لكن مراهقتها أرهقتها، لم يكن بوسعها تخيل العالم مكانًا خيرًا مليئًا بالرومانسية والأحلام الوردية، كما تفعل صويحباتها

ولداتها، فقد دخلت العالم من بابه الخلفي، بابه المظلم، ورأت مؤخرة رأسه الضخمة، صلعاء عارية تثير الرعب والتقزز والاشمئزاز، الهلع الذي أصاب كل طفل في العالم وهو يتخيل المارد الأسود المرعب، وهو يسحب الغطاء من فوق رأسه، بينما هو يرقد وحيدًا في الظلام، فيغوص تحت أغطيته أكثر وأكثر، ويتمسك بموقفه، ويبقى منتبهًا مطرطق الأذنين لسماع صوت أنفاس المارد الحارة، يعتصم في قلعته الموهومة حتى يدركه ملاك النوم، فيحرره من كل مخاوفه بسجى عميق، يجرف في طريقه كل مخاوف اليقظة وأحلامها المرعبة، أو يبلل فراشه.

وفي لحظة ستظل البنت تحاول فهم ما أصابها فيها سنوات طويلة قادمة، أو ربما تندم عليها بقية عمرها، قررت أن تغير مصيرها، وترفع الغطاء لتواجه المارد الذي يخيفها، آمله ليس في أن أتجد أنه ليس هناك مارد على الإطلاق، فهي تعرف أنه موجود، ولمساته المستخفية المقززة لا تزال تقشعر جلدها حتى اليوم، لكن أمنيتها كانت أن تراه مجرد مارد ضئيل هزيل، كتلة حقيرة متواضعة، وتعرف أخيراً أن من أقض مضجعها، وملأ نفسها بالمرارة سنوات عمرها التي لا تعز على الحصر والحساب، لم يعد إلا ركامًا سخيفًا عجوزًا ومهترئًا، لا يقدر على إيذاء أحد، وسيبلل هو فراشه حينما يرى سوأته قد تعرت وانكشفت، أمام من كانوا يرفعونه إلى مرتبة الأولياء والقديسين!

نية خطرة مبيتة، وخطة ربما كانت "راوية" بمصاعب حياتها الحالية، أضعف وأصغر من أن تنجح في تحقيقها، لكن الثقة بالنفس التي يخلفها الألم، والرغبة في المقاومة التي تجعل الغريق المحاط بجبال الماء، يبصق المياه الزائدة مرة بعد مرة، غير عابئ بأنها سترجع إلى داخله في أقل من طرفة عين، ملأت قلبًا غريرًا ظن أن الدنيا كلها بحجم راحة اليد التي أطبقت عليها وجعها منذ سنين،

وخبأته هناك في الظل والرطوبة، حيث راح يبرعم ويعشش، حتى تحول الفطر السام الضئيل إلى جبال جسيمة هائلة ومخوفة، وغابات من العشب الضار المهلك. لم تعارض الأم أي مما قيل، غير أن زومانها لم يتوقف، فأدرك الأب أنها راغبة في إضافة بند جديد إلى الاتفاقية، التي تعقد تحت سمعها وبصرها، غير قادرة على التدخل المباشر في بنودها، احترامًا لحق الرجال وسلطتهم، التي تتيح لهما أن يتخذوا القرارات وحدهم، حتى وإن لم يملكوا القدرة على تنفيذها قط، فانتحى بها جانبًا للحظة، حيث راحت تدمدم وتتجهم في وجهه، وهي تلقي إليه ببضع كلمات قليلة، كانت مطالباتها مشروطة وغير قابلة للتنازل، ومن وجهة نظر الأب كانت عادلة تمامًا، طالبت الأم غير منتوية أي تنازل أو مهادنة في حقوقها بأن تمد إليها الابنة يد المساعدة في شؤون المنزل، بجانب اهتمامها بدراستها، في الحقيقة كانت تلك عقوبة جانبية، إضافة إلى كونها اختبار حازم جدًا من قبل الأم المشبعة بتقاليد ومفاهيم مجتمعها المنغلق المحدود، فالفتاة كما يبدو رسبت عامها، وضيعت فرصة أولى في الحصول على شهادتها بسبب الإفراط في التدليل، والسماح لها بإفلات يدها من كل مسؤولية أو واجبات نحو أسرتها، وفي نمط تفكير الأم أدى ذلك إلى أن البنت صارت تسير على هواها، محلولة من كل قيد، لكن إذا تم الإلقاء بها في خضم مسؤوليات البيت الجسيمة، فقد تدرك أن لها واجبات ومهام أخرى تجاه عائلتها، وأيضًا قد ترعبها احتمالية أن تجد نفسها بلا وظيفة أو مصدر دخل، معتمدة اعتمادًا كليًا على عطف وكرم رجل، ومضطرة للرضى بقية عمرها بدور الأم والزوجة فقط، مرتضية بكل ما يحمله ذلك من أعباءٍ ومشاق، وفرص ضنينة لتطوير الذات وتحقيق أي شيء مهم في حياتها، النقطة الأخيرة لم تكن جلية في ذهن الأم، كانت مجرد فكرة ضبابية مشوشة، شعور طالما غالبته الأم وحاولت أن تنتصر عليه، إحساس بالضعة وتفاهة الشأن، غيرة غير محمودة كانت تعذبها كلما تطلعت نحو سيدة

من نفس سنها وجيلها، وتراها معلمة، أو طبيبة أو موظفة، أو تعمل في شركة خاصة، وتراقب مظهرها المعتني به، شعرها المرتب، أو لفة حجابها الأنيق، حقيبة يدها وحذاءها الملمع، ونظرة الاهتمام، حتى وإن كان خامدًا ميتًا في عينيها، والتعالي المستخفي خلف خطواتها الواثقة وهي تسير تجاه مقر عملها، محملة بشعور أن لها سندٌ وظهر من جهدها الخاص، ليست مرغمة على تحمل عشرة زوج لا تطيقه، أو محاصرة طيلة اليوم بأعباء منزلية لا آخر لها، ولا تفتأ أن تتكرر بحرفيتها مع شروق شمس كل يوم، تلك الغيرة وهذه المشاعر كانت الأم تكتمها، تتحفظ عليها وتحبسها قسرًا بين ضلوعها، وكانت تتظاهر دومًا بأنها تغبط نفسها، وتعتبر ذاتها محظوظة لأنها تزوجت، لم تظل عانسًا، أو تتعرض لمحنة الطلاق المهينة، حظها أفضل من حظ ألوف غيرها، ورجلها طيب وأمين ورب عائلة كما ينبغي، غير أن تمني نعمة الغير والتفكير في مستقبل مختلف تمامًا، لم يتح لها قط أن تصل إليه، جعلاها دائمًا تعتبر الحياة البيتية الروتينية عقابًا من نوعٍ ما، تأديب لكل فتاةٍ تتمرد على الفرص المتاحة لها، أو تهرب من المدرسة، أو تفشل في تحقيق مراد أبويها من إلحاقها بمنظومة تعليم هشة وفاشلة، لكنها تحقق رصيدًا واحدًا على الأقل، تمنح البنت في مجتمعٍ ضاغط وكابت ومكبوت فرصة لتغيير المصير، الذي تُدفع إليه دفعًا منذ لحظة لفها بالأقماط، وتسميتها وتلقيبها بالعروسة، وعي مشوش يناقض كل ما كانت تلك المرأة تعلنه وتدافع عنه علنًا، تمرد كامل على قيم وقناعات كانت هي في الظاهر من أشد المؤمنين بها، والمدافعين عنها، التطلع لحياة مختلفة، أمل لم يتسن لها قط الوصول إليه، لذا وفي حالة تجعل الأبناء هم امتداد حي وفاعل للآباء، كان على "راوية"، ثم "جنى" الصغيرة، تحقيقه، تعويضًا للأم وتعزية لأحلامها المرمية في ركنٍ قصي من عقلها، ركن مغلف بخيوط العنكبوت والظلام الدامس، كان البيت وأموره إذن عقوبة للفتاة الراسبة، مثلما كان قرصة إذن ناجعة وفعالة لها،

أدركت "راوية "دوافع الأم دون صعوبة، بينما ظنها الأب مجرد محاولة انتقام عبثية وقليلة الأهمية، لم يكن في منزلهم عمل شاق بالمعني المفهوم، والطبخ والكنس وتنظيف المنزل، كانت كلها أمور تتقنها الأم وتنتهي منها سريعًا، إضافة إلى أنها كانت لا تسمح أبدًا لأحد غيرها بأن يمد يدٌ إلى تلك الأعمال الدقيقة من وجهة نظرها، اعتقادًا منها أن أي شخص غيرها سيتدخل سوف يفسد عملها بدلًا من أن يؤدي لها واجب المساعدة، لم يبق إذن سوى رعاية الأولاد، ومن المستحيل أن يفكر الأب للحظة أن زوجته ستدعو ابنتهما البكر لتولي نصيب من العناية بأخوتها، أو التدخل في تربيتهم وتقويم أخلاقهم.

وسرعان ما ظهر تهافت حجة الأم بالنسبة للجميع، ولها هي شخصيًا قبل أي شخص آخر، بيد أن الأب المفجوع الذي يتحرق شوقًا للانتهاء من هذا اليوم المرتبك العسير، أذعن لكافة المطالبات التي تليت على أسماعه فيما بين العاشرة صباحًا والثالثة عصرًا من ذلك اليوم، آملًا في أن ينقضي ذلك النهار العصيب الشاق مجللًا باتفاق بأن تعيد البنت سنتها الدراسية، وتذاكر معتمدة على جهودها الذاتية، فقط سيسمح لها بالتردد على منزل الحاج "راضي" يومين أو ثلاثة في الأسبوع، لتساعدها ابنته العزيزة في دروسها، إضافة إلى أنها ستنفذ كل ما تعهد به إليها أمها من واجبات منزلية، مهما كان نوعها.

اتفاقية استسلام عدها الأب معاهدة سلام، آملًا أن ترتفع أغصان الزيتون، وترفرف الرايات البيضاء فوق شقته الصغيرة المكدسة بالأنفس، وقطع الأثاث الزائدة عن الحاجة، بينما انفرط الحاج منتشيًا فوق كنبة الصالون، وتقبل مشروبًا مرطبًا من يدي الأم، وراح يشرب ويمزمز هازًا شاربه الدقيق المنمنم، كان الذئب العجوز يهنئ نفسه على حنكته، ومهارته في اصطياد ضحيته الغضة الصغيرة، وفي عقر منزله أيضًا ووقتما يشتهي، ويستعد للاحتفال بانتصاره الرخيص على جثة

ابنة قريبه الغافل الأحمق حسن النية، أما على الناحية الأخرى فكانت "راوية"، التي وُجهت نحوها كل السهام من كافة الأيدي المرتعشة الجبانة، صامتة وصامدة، تراقب آباءها وهم يدفعون بها، بحسن نية وغفلة منقطعة النظير، تجاه شبكة عنكبوت أبيض سام وخطير، وترتب بدهاء الأنثى الصغيرة، وبلا خوف أو تلجلج، للإيقاع بمعذبها، وشنقه بشبكته الخاصة التي نسجها بصبر عبر أكثر من خمسين عامًا، تعلم فيها أن المظهر الطيب والمبالغة في الدعاية للتقوى والطهر الظاهرين، هما أهم أسلحة يمكن لأي سافل أو معتدٍ أن يحوذهما في خزانة أدوات غدره، ويحرص على سلامتهما، وتنظيفهما كل حينٍ وآخر من الأتربة والصدأ.

■■■

الفصـل الثامن

في سبتمبر تبدأ معركة الطالب المصري الطاحنة مع نظامٍ تعليمي وُضع خصيصًا لا لتمييز الخبيث من الطيب، وفرز المستحقين للنجاح والتفوق ممن يحققون الفشل والإخفاق عن جدارة كاملة، وهبة مكللة باللعنة ممن يقدمون على مخالطة فيروس قاتل دون اتخاذ أي تدابير أو احتياطات ما، في شهرٍ مضمخ بآمال انصرام الصيف بثقله وجسامته في دولة حارة، تستند إلى ميراثٍ عريضٍ طويلٍ ومكذوب من ادعاءات الاعتدال والوسطية في كل شيء، يكون هلال المدارس يعني أعباء إضافية تثقل كاهل شعب بأكمله، شعب مولود وفي فمه ملعقة حديدية صدئة، ومحاط بمطالب لا يُوفر له تحقيقها، بكل نفس ذائقة الموت، إلا الحد الأدنى من حتمية البقاء لا رفاهية العيش ولذائذه، وحين يبدأ سبتمبر تلهث قرابة ثلاثة ملايين أسرة مصرية، مثل أسرة الأستاذ "عبد العزيز" خلف توفير ضمانات واهنة لاستمرار العائلة في أداء واجباتها الأساسية، ثلاثة أطفال في المدارس، في مراحل تعليمية مختلفة، يضاف إليهم احتمال واهن في إلحاق أصغر الأطفال "جنى" بمدرسة الروضة للمرة الأولى في حياتها القصيرة الشاقة، وهو الاحتمال الذي أُلغي فور ظهور حقيقة أن الأسرة قد تتحمل بأعباءٍ إضافية، نتيجة رسوب وفشل بكر الأولاد في عامها الدراسي المنصرم الخائب السعي، حقيقة أن الاتفاق الذي أُبرم بعد مفاوضات أكثر مشقة وإرهاقًا للأعصاب من مفاوضات منتجع كامب ديفيد، قد نص على أنه لا يحق للفتاة الموصومة بالفشل والسقوط، أن تطالب بأية مساعدة إضافية أو عونٍ خارجي لها لاجتياز عامها الجديد، فرصتها الوحيدة والأخيرة.

إلا أن فكرة أن الأبوين قد يرضخان، إذا ما وجدا أن تعنتهما وتصلبهما إزاء احتياجات البنت غير المعلنة، قد تعني أن تعاني هي، ويعانيا معها أيضًا مرارة الخيبة والإخفاق والفشل مرة ثانية، ويضطران للقبول بإلحاقها بإحدى مجموعات الدروس الخصوصية، طغت طاردة إمكانية التضحية بفتح منفذ إضافي للإنفاق، وتبديد المزيد من ميزانيتهما الضئيلة، تُركت "جنى" الصغيرة لمصيرها تجابه عامًا آخر من التعليم المنزلي الذي يقتصر على تركها تخالط أطفال الشارع وتتعلم منهم عبر سلسلة طويلة من عمليات العصف الذهني الشاقة، كل فنون السباب والخبث والرداءة، التي تبتسم لها الأمهات الغافلات وتنفرج أشداقهن بفرحة غشيمة بلهاء بتحول أولادهن من أطفال أبرياء إلى مشاريع بلطجية وقطاع طرق صغار، وهكذا اقتطع عامٌ من عمر الطفلة الموهوبة، قُضي عليها أن تقضيه في فراغٍ لا يملأ عقلها، إلا أنه يوفر لها مزيدًا من الفرص للالتصاق بالأم، ونهل المزيد من محبتها الصافية غير المشروطة، وتعلم الكثير من مهارات التعايش والتآلف مع البيئة والمجتمع والطبيعة البشرية الناقصة، وهي المهارات التي لا يتقنها أحد غير الأمهات المثابرات.

أما "راوية" فوجدت نفسها موقوفة على حد شفرة حادة ومسننة وقاطعة، كانت تلك آخر فرصة لها، لكنها كانت فرصة مغموسة بالسم، طريق ممهد بالسكاكين وممتلئ بالمطبات الصناعية التي لا ترحم، كان عليها اجتياز العام الدراسي، وتحقيق نجاح يستحق أن يضحي الأبوان بجانب لا غنى عنه من مصروف بيتهما، الذي يتم تسيير أموره في غالبية الأحوال بالصبر والمحايلة ومجاهدة النفس، والتخلي عن الكثير من الرفاهيات، والتزام جانب الحذر والضن بالقليل الذي يملكونه، وبرغم ذلك كان الأمل يسوق هذه الأسرة، مثلما كان يسوق ملايين العائلات المشابهة في تحسين حياتهم الآنية، وحياة أبنائهم

المستقبلية، هؤلاء أناس يعيشون طمعًا في مستقبل يحقق لهم الأمل، بينما يتنازلون عن منالات حاضرهم القريبة الدانية، معتقدين أنها أقل وأبخس ثمنًا من وعود مستقبلهم المرضية السمينة، كانت الفتاة تدرك الرابطة غير المرئية بين طموحات أسرتها، التي تنتمي لطبقة تعيش أساسًا على خبز الأمل والطموح اليومي، وبين فوزها بفرصة ثانية لإصلاح فشلها في العام الماضي، من ناحية أخري كانت دعوة الحاج "راضي" المستترة إلى جحره العفن، الوكر القذر الذي ينسلخ فيه من الصورة التي يراه ويعرفه الناس عليها كل يوم، مرتدًا إلى حمأة السلوك الحيواني الوضيع، لإنسان هذبه الدين والخلق المجتمعي من الخارج وحسب، بينما تغافل هو عن تأديب نفسه من الداخل، وهي المهمة التي تفشل فيها جميع الشرائع والتحريمات والدساتير والقوانين والتشريعات، ما لم يتولاها صاحبها أولًا عن طيب خاطر، ورغبة صادقة في إصلاح النفس وتقويم الروح، لم تكن "راوية" خائفة أو مترددة، إذ لم تعد ترى في الشيخ الفاني الذي يتلوى ثعبان الشهوة والرغبة غير المضبطة في عروقه الهامدة، أكثر من مجرد شبح في مدينة الملاهي، صورة مخيفة مرسومة على الحائط، شخبطة بلا معني تحاول أن تبدو مرعبة، صورة ابتكرها خيالها أولًا، تمامًا مثلما تصور لها ظاهرة (الباريدوليا) أن غطاء سريرها يلتوى في صورة وجهٍ قبيح، أو أن فيشة الكهرباء في الصالة له وجه حزين وعينان مكسورتان في ذلة، كان قد تعرى أمامها تمامًا، وفقد سطوته الأسطورية المرعبة، وأضافت القوة المكتسبة من مواجهة محنة الرسوب والوصم بالفشل مزيدًا من القوة إلى ما لديها من قوى طبيعية، قوى لم تُستثمر أبدًا بشكلٍ صحيح، فقد تحالفت قيود مجتمعها وتعليماته الصارمة بشأن السلوك النموذجي الواجب على جنس الإناث احتذائه، وتربية أمها الخالية من أي تعقل

أو منطقية، وإن كانت مفعمة بالحب والحنان والانجراف خلف التقاليد، تحالفًا على ملء رأسها بفكرة الضعف، تخيلت أنها أضعف من أن تواجه معذبها وتصرخ في وجهه، تتهمه وتدينه دون خوف أو تلجلج، تعترف بالحقيقة التي كتمتها طويلًا، وتعلنها بصراحة مقرة بما تركته فيها تجربتها القصيرة المتوحشة من أثرٍ عميق، جرح فيما هو تحت اللحم الحي، ضربة في العظام وثلمة في الهيكل الجامد، من العسير جدًا أن تُشفى، لكن هذا ليس محالًا، بالله ليس محالًا على الإطلاق.

أرادها أن تغشي بيته بمجرد أن انتهى من عقد الصلح المشروط مع أبويها، متحججًا بالمساعدة الكريمة التي ستقدمها ابنته الجامعية للفتاة الراسبة، لكن "راوية" أرادت أن تعد نفسها للمعركة جيدًا، كانت تدرك أن الرجل الأريب يحضر لها فخًا، فقررت أن تجهز له شركًا في المقابل، ثقة المراهقين المرعبة التي تجعل فتاة لا تتجاوز الثالثة أو الرابعة عشرة، أو صبي في نفس العمر، يعتقدان أنهما سيلوذان بالفرار من المنزل، ليجدا عربة تقلهما إلى منزل الثري المسن الوحيد، الذي ينتظر شخصًا واحدًا في العالم يورثه أمواله وقصوره وممتلكاته، أو سيعثران على سفينة متأهبة للرحيل، تحملهما إلى عالمٍ آخر مليء بالثراء والرفاهية، وبعيد جدًا عن تعليمات الآباء، وتحكماتهم التي تخنق الروح، الصبوة التي تعاين بوادر النضج وإرهاصات الشهوة والرغبة للمرة الأولى، وترى الجحيم أسطورة لا يمكن أن تكون لها صلة بهما، وأن الموت بعيد جدًا، مليون عام ربما أو أكثر، ومخاوف الضياع والاخفاق لا تجوز في حقهما، ولا تثير فيهما أقل قدر من التصديق أو الامتثال، غير أن تلك الحقيقة كانت معكوسة هنا، فالبنت كانت مرغوبة لا راغبة، مهددة ولا تمثل مصدرًا للتهديد لتربية الأبوين المتحفظة المثلى، كان هناك غول ينتظر خلف الستار، غول يرغب ويشتهي ويطلق أعنف

التهديدات عبر انفراج فمه القبيح عن فكين مشوهين مخيفين، يتظاهر بالابتسام والمودة، بينما هو يحمل أشد المخاطر وأكثرها ترويعًا في جعبته.

في الرابع عشر من سبتمبر، وكان يوم سبت بدأت المدارس عملها، توجهت "راوية" وعلى وجهها غبرة إلى مدرستها، كانت تعرف أنها ستدخل نفس المبنى، نفس الفصل ربما.. لتجد نفسها وسط طالبات يصغرنها بعامٍ أو أكثر، من المؤكد أنه سيكون هناك راسبات مثلها، لكنهن كلهن سيكن في خانة (البنات الفاشلات)، الكبيرات اللائي تدرس زميلاتهن السابقات في المدارس الثانوية العامة، أو التعليم الصناعي والتجاري هذا العام، البنات الخائبات، المجذومات اللائي يخشى الجميع منهن.

فالمعلمون يخافون نزواتهن وعبثهن، وعدم اكتراثهن بأي شيء، والطالبات المستجدات يتخذونهن مسخوطات يخفن مصيرهن، ويتحرزن من الانغماس وسطهن أو التعامل معهن، لئلا تلحق بهن شائبة من الفشل أو الإخفاق، كانت تلك الأفكار كلها دانية قريبة، ولم تكن "راوية" تجد فيها أي غضاضة، إذ كانت فكرة جلد الذات، والتمتع بالشعور باضطهاد أبويها، ومصححي الامتحانات، ونظام التعليم، وربما وزير التربية والتعليم نفسه لها، تملأ نفسها، مانعة عنها عذاب الشعور بالإخفاق والفشل وانعدام الكفاءة، الأصابع الأربعة تشير إلى غيرها، أما الإصبع الخامس فيتجه نحوها، لكن بلطفٍ وتحنن، أما ما آثار حفيظتها وأغضبها حقًا فهو إصرار أبويها على عدم ابتياع أي مستلزمات مدرسية جديدة لها، عدا الكراسات والكشاكيل، فلم يشتروا لها حقيبة أو حافظة أقلام، أو رداء مدرسي أزرق جديد، كلها أغراض مستعملة، بُليت من العام الفائت، وصارت مثل وجبة باردة متعفنة، يثير مظهرها الجوع والنهم، لكن النفس تأبى أن تُقبل عليها، ولو هلكت من فرط المسغبة والجوع.

في فصلٍ مُلاصق لفصلها السابق حُشرت الفتاة الناقمة وسط خمس وستين طالبة مثلها، كان منهن سبع تلميذات منقطعات، سُجلت أسماؤهن غيابًا في اليوم الأول للدراسة، وهكذا تأكد أنهن لن يظهرن حتى اليوم الأخير، لأن اليوم الأول هو كل شيء، الحضور والقوائم وحجز مكان مميز للجلوس، هذه هي النعم التي يقدمها التعليم في غالبية الأحوال، أما الباقي فهي مواهب وفروق فردية لا يرعاها أحدٌ غالبًا أو يراها أصلًا، ولحسن الحظ كان أكثر من ربع التلميذات من صاحبات السوابق، راسبات فاشلات، مجذومات يحسن عدم الاقتراب منهن، ومن هؤلاء الربع الميمون كانت هناك أربع فقط من فصل "راوية" السابق، التي وجدت في رؤيتهن واكتشاف مشاركتهن لها في بأسائها بلسمًا إضافيًا لجرحها الغائر.

بعد تلاوة القوائم والصعود إلى الأدوار العليا، بدأت عملية إدخال الطالبات إلى الفصول، وأثناء مساعدة طالبات فصل ثالثة سادس، فصل "راوية" الجديد، على اختيار وترتيب أماكن الجلوس، رأت الفتاة منظرًا أزعجها وأثار انتباهها بشدة، كان أحد المعلمين الجدد في المدرسة، لم تره إلا في النصف الثاني من العام الماضي، منقول من إحدى مدارس الأرياف النائية بناءً على رغبته، ولم يحدث أبدًا أن دخل فصلها القديم، أو تعاملت معه أو عرفت حتى اسمه، كان هذا الشاب الذي يناهز الخامسة والثلاثين.. نحيلًا أسمر سمرة مغبرة غريبة، لونه يدل فيما يبدو على قلة الاعتناء بالنظافة الشخصية، وليس بقوانين الميلاتونين الجامدة، في سروالٍ أسود متسع عليه بشكلٍ كبير، وقميصٍ باهت بشكلٍ يجعل تحديد لونه الأصلي - أزرق أم سماوي أم أبيض - مستحيلًا، عند السبورة وقف يشرف على دخول الطالبات وجلوسهن، وفجأة وأثناء دخول مجموعة من ثلاث تلميذات،

بدا أنهن جئن معًا، ومرور واحدة منهن من خلفه لصق السبورة، إذ لم تعد وقفته في مقدمة منتصف الفصل، تسمح لمن سيجلس في الصف الأيمن بالمرور إلا من هذا المنفذ الضيق، أو عبر مقاعد الصف الأوسط، وبينما كانت الفتاة تمر بهدوء تراجع فجأة وبشكلٍ مقصود، فاحتكت خلفيته بها بشكلٍ تام، حتى أحست التلميذة المرعوبة بسخونة جسده على مقدمة ردائها المدرسي الجديد، تهدجت أنفاس الفتاة واحمر وجهها، بينما لم يعن المعلم المتظاهر بالانشغال والغفلة، بالاعتذار منها، أو تبرير موقفه الشائن الواضح التعمد، كانت الفتاة في حالة ذعر مؤقتة، لكن رعبها لم يكن يساوي شيئًا بجانب مشاعر "راوية" المضطربة الساخنة في تلك اللحظة.

تقطعت أنفاسها للحظة، ثم راحت تتفرس في وجه المعلم الغريب بشكلٍ واضح وبغضبٍ شديد، التصقت الطالبة الناجية بمقعدها، وكان وجهها محمرًا، وعيناها تلمعان بدموعٍ غزيرة حبيسة، دموع مقموعة خلف ستارٍ شفاف، لم تشك للحظة في تعمد المدرس وسوء نيته، بل ظنت الأمر رمية من سوء الحظ أصابتها هي من دون زميلاتها، لكن هذا لم يمنع شعورًا غريبًا ودخيلًا وغير مفهوم من أن يعصف بكيانها المرتجف كله، على الناحية الأخرى كانت "راوية" متأكدة كل التأكد من أنه تحرش مكشوف ومقصود، تم بعفوية وادعاء بعدم القصد، ادعاء مفضوح يسهل كشف زيفه، لكن الفتيات الأخريات فاتهن ملاحظة الفعل والنية وكل شيء، مرت لحظات هدأت فيها مشاعر البنت المعتدي عليها، وخفت الحيل النفسية العتيقة إلى نجدتها، وإخراجها مما هي فيه، برغم أن فتاة أخرى، شريكة في ذلك المربع الإسمنتي الذي تتكدس فيه بنات في عمر الزهور، بذور ناضجة، يراها الرجل ورودًا تتفتح.. لكن أوان قطافها على كل حال لم يحن بعد، بينما يعاينها الذكر المجرد من النخوة وحس الرجولة، كثمارٍ يانعة تهتز فوق

شجيراتها، تفاحاتٍ متدلية على حائط لا يعود إلى صاحبها الأصلي، دخيلة تستعرض نفسها، وتعرض مفاتنها على المارة، من حق كل جائع أن يمد يده نحوها، والقوانين التي تمنع ذلك لا تقل سخفًا في رأيه عن تلك التي تحرم الجائع من سرقة رغيف طازج من فرن على ناصية الشارع، تحلل كامل من القيود والقواعد، ومزاجية ترى في الاحتياجات الذاتية مدارًا يجب أن تلتف حوله قوانين وشرائع وأنظمة العالم، دور الضحية المعكوس، والظن أن كل فتاة خرجت من بيتها، إنما هي قنبلة بيولوجية تنشر فيرموناتها داعية الجنادب والزنابير والذباب للتحرش بعصارتها ورحيقها، وارتشافه دون ضابط يقيدهم، إملاءات الذات المتورمة بالاعتقاد بالأهلية والاستحقاق، وأن الآخرين ما وُجدوا إلا لخدمته، والطبطبة على شهواته وقضائها، بأي صورة وفي أي مكان يريدهما هو، كانت تلك اللحظات تمثل مثالًا قبيحًا لرجلٍ خان المبادئ التي تربى عليها، وإن لم يكن فيما فعله مضادة عظيمة لما لقنه إياه الشارع والمقاهي، وقعدات الذكور الممتلئين بظنون الألوهة والأهمية والجدارة المطلقة، وسمح لشهواته أن تقوده، ولو للحظة عابرة من الزمان.

ولسوء حظه وحظ المدعية عليه فإن الحصة الأولى كلها كانت من نصيبه، فابتسم ابتسامة لزجة، وأرهف أذنيه متسمعًا في شبه استمتاع إلى أصوات الضجيج والفوضى الآتية من الخارج، اليوم الدراسي الأول كالعادة يكون مثالًا للفوضى المستحكمة، ونموذجًا لكيف يكون العمل بالبركة والعك الموغل في القدم، أنصت للحظة، ثم ابتسم ابتسامة كشفت عن أسنان نضيدة جميلة، تخالف كل المخالفة مظهره الرث غير المرتب، ويبدو أنه ورثها عن غير تعب منه، ولم يتحصل عليها عن طريق عناية دؤوبة ومنتظمة، كان حديثه الأول للتلميذات معسولًا، وبعد جملتين افتتاحيتين أو ثلاث راح يمر بين الصفوف الثلاثة، التي شغلتها

الطالبات، جال بينهن متظاهرًا بالانغماس في الحديث، كان يضحك ويلقي النكات، ويتظاهر بالجدية في لحظات أخري، تكلم عن المستقبل وأهمية التعليم، ثم ألقى نكتة سمجة لم تضحك لها إلا ثلاث طالبات، وكان ضحكهن رياء ومداهنة لمعلم ربما يُفرض عليهن كمدرس مادة بشكلٍ مستمرٍ طوال العام، لكن "راوية "لم تضحك، وغيرها أيضًا لم يضحكن، فقد ركزت أنظارها لتتأكد مما ترى، كان الرجل المشمول بصفة المعلم ومهمته المقدسة، يتعمد لمس أكتاف أو أجزاء الفتيات البارزة خارج المقاعد الضيقة، التي تلاصقن فيها ثلاثًا ثلاثة، يستعمل يده متظاهرًا بحسن النية، أو يحك ركبته في زوايا أرادفهن البارزة من أطراف المقاعد، كان يفعل كل ذلك بشكلٍ متقن، دون أن يبدو منتبهًا أو متعمدًا، وكأنه لاعب في سيرك يؤدي لعبة خطرة تدرب عليها كثيرًا، لعبة ترهق بدنه لكنها تملأ نفسه الأمارة بالسوء بالنشوة ومتعة الظفر، متعة تافهة مختلسة، لذة عابرة عديمة القيمة، بدا أن الرجل محترف ومتمكن حقًا، كان وقت الحصة الأولى يطول ويطول، والرجل سارد في أحاديثه السخيفة، مصرًا على أن يتعرف أسماء الطالبات واحدة.. واحدة، ورغم تخوف الفتيات منه، وأن كثيرات منهن انتبهن لما يصنع، فأخذن يتزحزحن إلى الداخل، ضاغطات المسافة الفارغة بينهن وبين زميلاتهن الجالسات لصق الحائط، ومتهجمات على مساحتهن الشخصية، حتى أن بعض الطالبات الممتلئات دفعن زميلاتهن حتى كدن يخترقن الحائط الصلد، وينفذن إلى الناحية الأخرى، لكنه تظاهر بأنه لم يلحظ كل ذلك، بل واصل ما يفعل في قحة يحسد عليها.

تطلعت البنات كل منهن نحو الأخرى منتظرات الحكم بصبرٍ نافد، وعندما نطق المعلم بالحقيقة، معلنًا أنه لن يكون من ضمن هيئة التدريس التي تتولى

تعليم تلميذات فصل ثالثة سادس هذا العام، تنفست البنات رحيق النجاة والسعادة، كن ينتظرن خروجه وغروبه عن وجوههن بفارغ الصبر، غير أن الثلاث أرباع الساعة التي قُضي عليهن أن يتحملنه فيها بدت وكأنها مسحورة، تمتد إلى ما لا نهاية، الساعة السحرية التي رقصت فيها "سندريلا" مع الأمير، لكن الأمير كان مكروهًا شائهًا وبغيضًا تلك المرة، وأيضًا أنه هو، لا الأميرة المدعوة قسرًا إلى حفلته العربيد، من غادر تاركًا آثاره خلفه، فردة من روحه القزمة الملطخة، عصاته الرفيعة التي استخدمها في بداية الحصة للزجر والتخويف، ثم لم يلبث أن تخلى عنها، مستعيضًا عنها بجوارحه النشطة الآثمة، غادر الفصل أخيرًا قرابة الساعة العاشرة، بعد أن استقطع زمنًا لا بأس به من وقت الحصة الثانية، وقت لم يكن من حقه، مثلما أن المذبحة الصامتة التي أقدم عليها في الفصل المنكوب لم تكن من حقه أيضًا، لكن أمثاله لا يعرفون الحقوق إلا فيما يخصهم ويمس مصالحهم فقط، خرج غير مأسوف عليه، تاركا عصاه كعلامة سكين حُفرت فوق منضدة المعلم الجرداء العارية، فهرعت إحدى الفتيات خلفه تسلمها له من مسافة مأمونة، إذ كانت عودته إلى داخل الفصل، متحججًا بعصاه التافهة واردًا بشدة، لذلك رأت أكثر الطالبات شجاعة أن تتخلص وتخلص زميلاتها من هذا الخطر الملعون.

أخيرا فارق ظله مساحتهم غير الآمنة أو المسورة، وكانت "راوية" من موقعها في الدرج الثاني ضمن الصف الأوسط تراقبه عن كثب، ودون أن تغفل عنه لحظة واحدة، وفي ذهنها المتقد بحرارة التجربة المشابهة كان ينمو سؤال مخيف، هلام يتشكل في صورة وحش أسطوري لا سبيل للتخلص منه، أو السيطرة عليه، فهل يُفرض عليها مواجهة إضافية في مدرستها، وهل تنقل أرض

معركتها إلى المدرسة، أيمكن لفتاة في مثل سنها أن تقاتل على جبهتين، أو أن ترمي بنفسها في لجة المحيط الهادر، دون أن يدركها الغرق؟!

....

في العصر حثتها أمها التي حرصت على كتمان مودتها، مقدمة لابنتها الحد الأدنى من واجبات الرعاية الأمومية، استمرارًا في العقاب الذي فرضته عليها منذ شهورٍ طويلة، على التوجه إلى منزل قريبهم الطيب لتلقي درس اللغة الإنجليزية من ابنته الذكية:

- "من الأفضل أن تبدئي من أول يوم في المدرسة، وإلا رسبتِ وفشلتِ مرة ثانية!".

كان أسلوب التبكيت الحار والمستمر هو وسيلتها في كبح جماح ابنتها، والسيطرة على سلوكها الفج، من ناحيتها لم تعلق البنت، وجدت نفسها مساقة إلى حكم إعدام، ليس من حقها استئنافه أو الاحتجاج عليه، لذا كان طريقها شاقًا ووحيدًا، أن تخبئ سكينًا حادًا فيما خُفي من روحها وأفكارها، وتستله في اللحظة المناسبة لتقطع الحبل الذي يتدلى كخية محكمة أمامها، ملأتها حادثة اليوم بشجاعة جديدة إضافية، لأنها أدركت أن الخوف لن يسعفها، لن يعفيها من الألم، أو يحميها من تهجمات الذكور عليها، لذا فعلى قطعة الحلوى أن تتعلم كيف تدافع عن نفسها، لم يعد الغطاء ينفعها، لأن المعتدين يرون من حقهم تقشيره وهتكه، بزعم أنه شفاف أو غير ملائم لمعاييرهم، لذلك فإن الحلوى يجب أن يكون لها مخالب وأسنان، وربما أيدي طائلة كذلك.

بدون كلمة اعتراض حملت "راوية" أغراضها ورحلت في هدوء، أدركت أن أي محاولة للمكاشفة مع أمها سوف تكون فاشلة تمامًا، لن تدعم أم تربت على

هذا الكم الهائل من الموروثات والانحيازات المسبقة، وشبه التقديس لكبار السن، ولكل من حمل لقب (حاج) أو (شيخ) على وجه الخصوص، ابنتها في ادعاءات فاضحة تطلقها تجاه رجلٍ يعتبرونه من أرباب العائلة المحترمين، رجل لم ير أحدٌ منه سوء قط، فكيف يكذبون عقولهم وأعينهم الناضجة، ويصدقون عقل وعيني فتاة غرة لا تزال تتعلم وتتدرب كيف تكون امرأة صالحة، وخاضعة ومستكينة في مجتمعها، كيف يتنازلون عن ثقتهم القاتلة في حسن آرائهم، ومتانة أخلاق رجالهم المسنين الأفاضل، ويتركون زعمهم بأن كل من تخطى الخمسين، وحاذ زوجة مترهلة بُليت أعضاءها في الأعمال المنزلية، وربى أطفالًا جعلهم شباب وشابات، واعتمر جمة من الشعر الرمادي، وتشبثت يمينه بمسبحة من اللؤلؤ، يمكن أن يكون منتهكًا قذر، وشيطانًا تتضاءل أمام شره كل موبقات ورذائل شياطين الجحيم!

في بيته الكبير كان الحاج كامنًا، لم يكن متأكدًا من أن البنت سوف تغشي منزله اليوم، لكن أماني وروائح تتسلل كهسيس الثعابين الماكرة كانت تنتشر في دمه، أحاسيس خفية بأنه سيمد يده الكبيرة البيضاء الناعمة ليلامس خدًا متوردًا، ويقبض على ذراع بضة لدنة، وربما لامس متظاهرًا كخلفه معلم المدرسة غير المحترم، صدرًا ناهضًا، جسدًا يانع لم تستنزفه واجبات الزواج والأمومة بعد، كان الشيخ يؤمن بأن للمرأة مدة صلاحية محدودة، كالفاكهة والأطعمة المعلبة، فما أن تصبح أمًا، وتناهز الأربعين أو الخامسة والأربعين من عمرها، وترقد بجسدها الشحيم المتهدل على شلتة الأمومة، مراقبة بعينين لا تكلان بيتها وهو في أتم البهاء، ومكتفية عاطفيًا بأطفالها ونظافة منزلها، وخلو حوض مطبخها من الأواني المتسخة، وسلة حمامها من قطع الملابس التي تحتاج للغسيل، حتى يتوجب

عليها أن تقر بأنها فقدت امتيازات الأنوثة وفضائلها، وتتقبل عن طيب خاطر حاجة رجلها إلى امرأة أخرى تدلله وتشبع شهواته وتخدم على نزواته، في المقابل لم يكن التفكير المعاكس واردًا أو مقبولًا مطلقًا لدى الحاج.

فزوجته التي تصغره فعليًا بسنواتٍ عدة إن شكت ضعفه، أو هفت نفسها إلى رجلٍ يشبع الأنوثة الضامرة فيها، فذلك يعد في نظره عهرًا وفجورًا، لا يُسمح حتى بمناقشته في محضر منه، ولكن ولأن إملاءات وقيود المجتمع كثيراً ما تفرض علينا خيارات مغايرة لكل ما تطلبه أنفسنا، أو ما تشتهيه قلوبنا، فإن إقدام الرجل على الزواج بأخرى، أو تهديد استقرار عائلته بامرأة دخيلة على حياتهم وحياته، كان يعني إعلان حرب مضمر في الأسرة، لن يتقبل أولاده الأمر، ستهجره زوجته إلى بيت أخوتها، أو ربما تلجأ إلى بيت أحد أولادها المتزوجين في الخارج، وسيرميه الناس بالانحراف وقلة الأصل، واتباع شهواته وهو في سن العقل والحكمة، وربما خسر أولاده، وتهددت حياته العائلية بأكملها.

إزاء تلك الحقائق المزعجة كان على الرجل تحقيق نزواته بطرقٍ أخرى ومؤقتة، وأقل ضررًا على كل ما جهد في بنائه خمسين عامًا من عمره، كان يطلق بصره في النساء في الطرقات، ولا يترك فرصة ملامسة أو مداعبة عابرة إلا واستغلها، وكثيرًا ما انتهز تدخله في خصومات عائلية، أو شجارات بين الجيران حول منزله، ليظهر بمظهر المصلح العطوف، يتدخل ولا يخرج إلا برقم هاتف سيدة جديدة، إحدى القريبات الشابات، أو الجارات الفتيات، خاصة من يواجهن مشاكل مع أزواجهن، أو يقفن مقلقلات مهددات على حافة الطلاق، مستغلًا أنه فوق الشبهات، كل الشبهات، يحصل على الأرقام متظاهرًا برغبته في الصلح، والتقريب بين الطرفين المتنازعين، ثم يجعل من تلك المرأة العبيطة ألعوبته،

اتصالات لا تتوقف وتدخل في أدق الخصائص، حتى بدأت بعض النساء الأكثر حصافة، وإدراكًا لطبيعة مكر الرجال يتفهمن أنه وتحت ستار الإصلاح والتوفيق، يتعمد السؤال عن أدق الخصوصيات الحميمة، منها على سبيل التحديد مقدمًا نفسه كواعظٍ صالح يروم الخير والعافية، ذئب متلفع بفروة حمل بيضاء نقية بلا شوائب، أبٌ محترمٌ ورجلٌ موثوق، لكن ما أشد العفن وأكثر الديدان التي كانت ترعى تحت العمة البيضاء الشاهقة.

في كل الحالات كانت المواجهة خيارًا غير مطروح على الإطلاق، لذا فقد حل محله اختيار آخر أقل ضررًا، وأشد صيانة لسمعة العائلة والمنطقة، وهو اعتباره رجل مسن مخرف، زوج عجوز تحللت قواه، وتفسخت مواهبه الجسمانية، فلجأ إلى التعكز على ما بقي فيه رمق حياة من جسده البالي، الاستمتاع بمداعبة النساء، والضحك معهن، وتسقط ما تيسر من أحاديث الهوى والجسد والعلاقات الخاصة، نكتة مكشوفة يلقيها متظاهرًا بحسن النية فتهتز لها أسلاك ووصلات الهاتف طربًا، بسبب ضحكة مائعة تطلقها زوجة محسورة، تحس أن رجلها انصرف عنها، فتنتقم انتقامًا نظيفًا بأن ترمي بأسماعها لرجلٍ آخر، وإن كان في سن أبيها، يغازلها بتعفف، ودون إفراط في الإفصاح عن قصده الخفي، الظاهر كل الظهور مع ذلك.

عاش الرجل دهرًا على تلك المنح القليلة التي لا تسد جوعه، ولا تروي ظمأه، لكنه سرعان ما بحث عن وسيلة تنفيس أنفع، وأكثر تحقيقًا لمطامحه، طبطبة صغيرة على رغباته المقموعة، والإنسان إذا تلبس ثوب المظلوم لم يسعه في أقرب وقت إلا أن ينقلب ظالمًا، وهذا ما حدث تمامًا، فسريعًا ما بدأ ينشر بذوره العفنة حوله، ولم تسلم صغيرات كثيرات، إذا ما أمن من أن يفضحنه ويكشفن

ستره، من تحرشاته ومحاولاته الصفيقة لملامستهن بكل الطرق، لم يمنعه ذلك من الانغماس في العبادة والصلاة وارتياد المساجد، لأن الأمرين كانا جد منفصلين في وعيه، ولإدراكه الداخلي بخساسته فإن الدفاع النفسي الذي اتخذه كان المبالغة في إظهار التقوى والورع، وبتلك الطريقة ألبس أمره على الناس، وعلا فوق كل الشبهات والأقاويل، فمن سيصدق طفلة أو مراهقة حمقاء صغيرة، ويكذب أو يتهم شيخًا جليلًا، له لحية بيضاء منمقة، ومسبحة لؤلؤية لا تفارق يده!

تمتمات الورع والتقوى والتسبيحات التي لا تتوقف، لكن نصب فخ صغير لفتاة من أقاربه كان شيئًا مختلفًا، لقد تعود الذئب دائمًا أن يكون صياد، ولم يلعب دور الطريدة مطلقًا، لذلك فغروره وشدة ثقته في ذكائه ستمنعه من رؤية الشرك الذي يُنصب له، هذا إن كان الفخ المنصوب قابل للرؤية أو الملاحظة على الإطلاق.

....

وصلت البنت في حالة تخبط وتشوش، كانت مترددة ومتحفزة في نفس الوقت، تعرف أنها تُساق إلى فخٍ محكم، فخ لا يمكنها إعلان ما يلحق بها فيه، وفي ذات الوقت تملأها ثقة ساذجة ونقية في قدرتها على دفع الضرر الذي يهددها، إن الأيام والسنوات العصيبة التي قضتها منذ أن تعرضت لأول مرة للمسة متلصصة ومقززة قد أنضجتها على صهد لا يرحم، قطعة اللحم التي نضجت قبل الأوان على درجة حرارة قصوي، فلم تُسوى على مهل، وتأخذ فرصتها كي تتباعد جزيئاتها بحرية، تاركة لها متنفسًا تنزلق من خلاله الحرارة حية ودودة، بل طاردتها النيران المحرقة فتفرقت أجزاؤها شيعًا في رعبٍ وهلعٍ، تفسخت دون أن يتغير طعمها أو تحلو عصاراتها، هذا ما يوفره نمط حياة يطارد

الناس، ويدفعهم دفعًا للانتقال إلى المرحلة التالية، ثم المرحلة التي تليها، دون أن يطرح أولًا السؤال المنطقي والعادل: هل هم مستعدون للانتقال والارتقاء، أم لا تزال عيدانهم خضراء طرية؟! برغم أنها اكتست بعفن الموت، وقشرة التحلل قبل الأوان بكثير..

في البيت كان المدخل فارغًا، زُين بكنبة بلدية وعدد من المقاعد، لجلوس رب البيت رفقة بعض الرجال المسنين أمثاله، في ليالي الشتاء الطويلة، التي يستحب قضاؤها في مرحٍ وسمرٍ وقرقرة، في أجواء دافئة وعامرة بالأنفاس المكتومة، بدلًا من البقاء وجهًا لوجه أمام دفعات البرد، وصفعات الصقيع التي تكتسح الشوارع اكتساحًا فيما بين شهري (نوفمبر، ويناير)، هناك استوي صاحب البيت يحصي غنائمه، عدد من الكتب الصفراء القديمة التي لم يطالعها قط، والتي يحتفظ بها ليقرضها عن طيب خاطر لبعض (المستشيخين)، ممن يحبون الإفتاء في مصالح الناس عن علمٍ وعن غير علم، جلهم من الطلاب الذين ضربتهم موجة ادعاء العلم، والتظاهر بالمعرفة، أحدهم كان يتطوع ليؤم الناس في الصلوات الخمس المفروضة، في حال تغيب أو اختفاء الأئمة الرسميين، الذين تعينهم الدولة وتدفع لهم رواتبهم، ويُلقي عليهم خطبًا قصيرة مفعمة بقصص مؤثرة مبكية، معظمها إن لم يكن كلها من الإسرائيليات، والأحاديث المنكرة والغريبة، وكتب السير والتراجم التي تخلط الحابل بالنابل، وتفرم التاريخ مع جغرافية القرون الوسطي، مع أخبار الملوك القدامى، وتعجنها كلها بالزيت، لتخرج منها كتلة من الأخبار والأقاصيص المزورة والسخيفة، كان هذا الشاب المغتر بمعرفته زبونًا مهمًا، وقد وجد فيه الشيخ صيدًا ثمينًا وسهلًا، فاهتم بتزويده بمصادر لا تنضب، يستخرج منها خرافاته وأساطيره وأخباره العجائبية.

في لحظة التجلي تلك دخلت "راوية"، في تنورة مقلمة طويلة تصل حتى كعبيها، وبلوزة سوداء، حرصت على توثيق أزرارها جميعًا جيدًا، بما فيها آخر زر بالقرب من العنق، والتأكد من ثباتها مكانها، وقد غطت شعرها بطرحة بيضاء لم تهتم بأن تستر رأسها تمامًا، بل لفتها تاركة طرفيها يتهدلان على كتفيها طويلين ومتأرجحين مع حركتها النشطة، وفي قدميها حذاء المدرسة، الذي قيل لها أنها لن تحصل على بديلٍ له ما لم يبل هذا تمامًا، ويفرغ أمله كالموتى، كان مظهرها ينم عن فتاة جاءت لتقضي مصلحة، وكانت حافظة الأوراق التي تحملها خفيفة، خفة ما بداخلها من أغراض مدرسية، كراسة وقلم فقط، أما كتاب اللغة الإنجليزية للصف الثالث الإعدادي، الفصل الدراسي الأول، فقد استوى على يدها اليسرى بارزًا وظاهرًا للعيان، كانت تلك حيلة دفاعية لم تنتبه إليها البنت في لجة اضطرابها، فإظهارها لكتابها كان لونًا من ألوان نفي تهمة الإغراء، وتحويل نفسها من جسدٍ أنثوي لا يزال يُدرج في مراحل النضج، إلى تلميذة تستجدي العلم وتجري خلف تحقيق النجاح، لم يأبه الشيخ الأخرق بسلاح الفتاة المصوب إلى ناظريه الحادين الوقحين، فقد عاين فيها بمجرد أن ظهر شبحها على باب بيته الكبير العامر، كتلة حية وكاملة من الإغراء ودعوات الإفساد، والتلذذ بالصيد والمطاردة.

نهض هاشًا باشًا إليها ورحب بها بحرارة، صافحها ثم انسابت يده الغليظة الكبيرة على ذراعها الأيسر، متظاهرًا بالترحيب والاحتفاء بقدومها، لكن وفي حركة غير متوقعه له على الإطلاق دفعت البنت يده، وأبعدته برفق دون أن يظهر في حركتها ما يدل على تحفز، أو توقع لسوء نية أو سوء فعل، اعتبرها الرجل بادرة خجل وحياء اعتيادية، وقبيل أن ينطلق حسه القوي مناديًا، كانت ابنته الخريجة تظهر على أول السلم، فتاة في الرابعة والعشرين، نضرة حسنة الصورة، غير أن شبهًا كبيرًا بينها وبين أبيها، أقام حاجزًا فوريًا بينها وبين "راوية"، التي سلمت

عليها بلطف، بدون أن تُظهر امتعاضها من تلك المصادفة غير المحببة، صافحتها البنت ملقية ببعض عبارات الترحيب المحفوظة، ثم راحت تخفف عنها الأمر مطمئنة إياها أن نجاحها مؤكد هذه المرة، وأن إعادة عام دراسي ليست نهاية الدنيا، وبينما كانت الابنة تتغني بوصلة من وصلات التنمية البشرية التي تشبه علب حلوى الجيلاتين الجاهزة الرخيصة، مائة لون بنفس الطعم وذات القوام، استغل الأب الفرصة ليلامس ذراع "راوية" ويسحب كفه على امتداده في حركة أكثر جرأة وأقل حياء، غير أن الفتاة التي جاءت هنا مستعدة لخوض غمار معركتين، لا معركة واحدة، فاجأت الشيخ غير المحتشم وقالت له أمام ابنته:

- "يدك يا عمو.. لا أحب أن يلمسني أحد".

سكتت الابنة مندهشة، بينما راح الأب المصدوم يتمم محرجًا بأنه مثل والدها، وأنها في عمر أحفاده، ثم حول الموضوع إلى مزاحٍ رخيص، وهو يتحدث عن جيل البنات اللائي يخجلن من كل شيء، وهههه، لكن صوته كان جافًا مشروخًا، ونبراته واضحة التلجلج والإحراج، أنهت ابنته الموقف بابتسامة أودعتها كل ما تحمله من تفهم، وادعاءات بالمرح والمشاركة في الدعابة، ثم تقدمت أمام الضيفة الصغيرة، لتقودها إلى الطابق الثاني، حيث توجد غرفة جلوس ثانية، خُصصت للضيوف من النساء، والقريبات اللائي كن يزرن الأم من حينٍ لآخر، أو صديقات الابنة وزميلاتها السابقات في الجامعة، اللائي كن يلممن بمنزلها في أحايين نادرة.

كانت المضيفة الشابة خريجة جامعية منذ عامين، حصلت على شهادتها في اللغة الإنجليزية، لكن فرص العمل كانت ضنينة ونادرة، وبإضافة أفكار والدها المتزمتة، التي دفعها لاستكمال تعليمها فقط لتحسين فرصتها في اصطياد عريس

أفضل، وأحسن مركزًا، فقد عني كل ذلك أن حصولها على العمل لم يكن ضروريًا، إن كان مقبولًا على الإطلاق، لكنها لم تشغل بالها، فقد امتلأت رأسها منذ نعومة أظفارها بأفكار العريس والبيت والزواج، وكانت تعتبر بقاءها في بيت والدها أمرًا مؤقتًا، ولا تلبث أن تغادره متأبطة ذراع أول عريس مناسب، غير أن للطبيعة البشرية قيودها وفروضها، فإن حياة البيت كانت مملة جدًا ورتيبة، ومع قلة الخروج وتزمت الأب إزاء السماح للفتيات بالتنزه أو الخروج بمفردهن، وجدت "ندى" أن تدريس أطفال مقابل أجر، أو مساعدة قريبة بعيدة للأسرة في دروس اللغة الإنجليزية، تعد ترفيهًا نادرًا بالنسبة إليها، منذ أول وهلة أقيم حاجز خفي بين "راوية" وقريبتها الأكبر سنًا، كان مرده هو الشبه الكبير بين الابنة ووالدها، وهو أمر لم تكن "ندى" مذنبة فيه، كما أنها لا تُلام أيضًا على ما لا تعرفه يقينًا من سلوك أبيها الشائن نحو المراهقات، والنساء اللائي يتيسر له الاتصال بهن، لم تكن الشابة تعلم شيئًا عن كل ذلك، لكن الذنب كان يسري إليها نصيب وافر منه بقسرية الوراثة والدم والنسب، لم تحبها "راوية" من أول وهلة، اعتبرتها نسخة مصغرة من الأب المتحرش يتحتم عليها أن تتفرس فيها راغمه لساعة أو ساعتين من الزمان، وليس لمرة أو مرتين وحسب، لا بل على مدى العام الدراسي، بدأت "ندى" بمراجعة بسيطة مع "راوية"، وطلبت منها كتابة حروف اللغة الإنجليزية الكبيرة والصغيرة، ثم راحت تمُلي عليها كلماتٍ بسيطة وقصيرة، تزيدها تدريجيًا، وكانت البنت منكبة على كراستها تكتب ما هو مطلوب منها، دون أن ترفع رأسها، محاولة بكل الطرق ألا تنظر طويلًا في وجه الشابة، وألا تلتقي عيناها بعيني الثانية مطلقًا، في البداية أثبتت "راوية "أنها على إلمامٍ بأساسيات مهمة، لكن ما إن بدأ الموج يسحبها عميقًا حتى ظهر عجزها وتقصيرها، كانت تستطيع كتابة الحروف جيدًا، ودون أخطاء جسيمة، وكذا الكلمات البسيطة، غير أن قدراتها تلاشت أمام تركيب الجمل، أو التمييز بين

الأزمنة، أو كتابة الأعداد المنطوقة بالحروف، وهنا تأكدت "ندى" أن عليها أن تبدأ تقريبًا مع تلميذتها الجديدة من أول الخيط.

لم يزعجها ذلك بل وجدت فيه فرصة عظيمة لإثبات مهارتها كمعلمة، وكانت تأمل إذا ما نجحت في مساعدة قريبتها الصغيرة على اجتياز عامها الثاني في الشهادة الإعدادية، أن يسمح لها والدها بالعمل كمعلمة بالحصة، أو الاشتغال في أحد السناتر الخاصة، أو حتى التدريس لمجموعات كبيرة من الطلاب وبأجرٍ حقيقي، لا أجر رمزي بخس كما كان يرغمها عليه، ليظهر أمام أهل منطقته بمظهر الرجل الطيب فاعل الخير.

استغرقت الحصة الأولى ساعة ونصف، كانت "ندى" مستعدة لأن تستمر لما هو أكثر من ذلك، لكن التلميذة اعتذرت بضرورة عودتها إلى منزلها فورًا، وأعلنت رغبتها في الذهاب دون تأخير، تركتها "ندى" تذهب، بعد أن كلفتها بكتابة بعض الجمل القصيرة من أول دروس الوحدة الأولى، وأحاطتها علمًا بموعد الحصة القادمة، هرعت "راوية" تهبط إلى الدور الأرضي، فشيعتها "ندى" إلى نصف السلم كما تقتضي الأصول، وكادت تلحق بها حتى باب البيت الخارجي، قبل أن تسمع صوت أبيها من أسفل يدعوها للبقاء حيث هي، لأنه ينوي أن يصاحب الضيفة الصغيرة إلى بداية الشارع، ابتسمت "ندى" وعادت من حيث أتت، وهم العجوز بأن يتبع "راوية" إلى خارج البيت، لكن البنت قالت له في جرأة وصراحة:

- "ابق أنت يا عمو.. فأنا أعرف طريقي جيدًا.. سلام".

وركضت خارجًا دون أن تترك له فرصة لمراجعتها أو اللحاق بها، انحط الرجل متكومًا فوق كنبته العزيزة شاعرًا بخيبة أمل، بينما عادت ابنته إلى غرفة

الجلوس لتعيد ترتيبها وتسوية مقاعدها، وهي تحس بأن ثمة شيء غريب يحدث هنا!

....

تكررت تلك الزيارات الدراسية الصارمة، لم تستفد "راوية" الكثير من المجهود التدريسي الشاق الذي كانت تقوم به ابنة الشيخ، لأن الحاجز النفسي الذي أقيم عن غير قصد، بينهما حال بينها وبين الاستفادة من علم ودروس الفتاة، غير أن رغبة الطالبة المخلصة في النجاح، واجتياز هذا العام العسير بأي ثمن، جعلتها تعوض الوقت المهدر في دروس لم تستفد منها شيئًا، في نفس الوقت الذي لا تستطيع الاعتراض عليها، أو المطالبة بإعفائها منها، بالانكباب على الاستذكار الجاد في البيت، سُمح لها أخيرًا بارتياد المدرسة بانتظام كل يوم، وتخلت الأم عن شروطها الصارمة إزاء حضور ابنتها للحصص المدرسية، وحتى ما يخص زيها، فقد لوح لها الأب بتصريحٍ غير معلن من زوجته، بأنه من الممكن، وكنوعٍ من المكافأة على الجهد الواضح الذي تبذله في الاستذكار، أن يعطياها حذاءً وحقيبة جديدين ترتاد بهما المدرسة، لم يكن الأستاذ "عبد العزيز" وحرمه السيدة "هدى" شريرين أو قاسيين، فقط كانا فردين مخلصين وتابعين كاملي التبعية لمجتمعها، ينحازان لقيوده ويؤمنان بمبادئه، ويربيان أبناءهما وفقًا لما سبق وأن تربيا عليه هما شخصيًا.

لم تقابل "راوية" زوجة الحاج "راضي"، أو كنته التي تعيش معهم في البيت الكبير، إلا في مراتٍ نادرة ومعدودة، بشكلٍ ما حرص الشيخ على ألا تختلط البنت بجوه العائلي، وألا ترتبط بعلاقات متينة مع أحد أفراد أسرته، عدا ابنته "ندى"، التي يعرف عنها أبوها عزلتها وقلة غرامها بالثرثرة، وكان لـ "ندى" فضيلة أخرى

يكبرها فيها أبوها ويقدرها كل التقدير، وهي أنها لم تكن من النوع الفضولي، الذي يهوي حشر أنفه في كل شيء، وبسبب سلبيتها الفكرية تلك لم تلحظ كثيراً مما كان يجري تحت أنفها من أحداثٍ ومواقف غريبة.

استمر الرجل، الأب والجد والرجل الصالح في مجتمعه، في محاولة التودد إلى قريبته الطفلة، التي تدرس تحت إشراف ابنته الغافلة المغفلة، كان يتقرب إليها تحت ستار كثيف، لا يمكن اختراقه أو استشفاف ما تحته، من المودة المخلصة لرجل في سن جدها نحو طفلة تغشي منزله يومًا بعد يوم، "ندى" التي لا تعرف طرفًا من سلوك أبيها ومحاولاته الملحة مع جارات وقريبات وزائرات، اختلفن إلى هذا البيت العامر في أوقات مختلفة، ظلت على عهدها، ترعى الفرصة الوحيدة التي أوتيتها للتنفيس عن طموحها المكبوت، متجاهلة تمامًا الحرب الخفية وغير المحسوسة التي كانت تدور بين أبيها الشيخ المُهاب المحترم، وبين تلميذتها التي تقدمت في دروسها بثقة، مستعينة بتلك الهبة التي أسعفتها بها الحيل النفسية، ومتأكدة تمامًا من أنها ستخرج من تلك الحرب الصغرى منتصرة ظافرة.

■■■

الفصل التاسع

في شهر أكتوبر تلقت الأم وأسرتها دعوة شفاهية لحضور حفل زفاف لقريبة لهم، ابن عمة لزوجها، في منطقة لا تبعد عن منزلهم إلا مسافة قصيرة، ولأن الحصار كان قد فُك بشكلٍ جزئي عن رقبة "راوية"، مدعومًا بما أبدته البنت من رغبة واضحة في التغلب على عثرة العام الماضي، فقد سُمح لها، إن أحبت ورغبت بمصاحبة العائلة إلى ذلك الحفل البهيج، في بداية المساء كانت الأم مشغولة بشكل أكثر من المعتاد، أصرت على أن تعد عشاءً مبكرًا جدًا لعائلتها، قبل حتى أن تدور الساعة في الخامسة من بعد العصر، جهزت المائدة ورصت الأطباق، ثم دعتهم كلهم إلى وليمتها الصغيرة، وهي تهتف بحماس:

- "كلوا هنا واملؤوا بطونكم، حتى إذا قدموا لنا عشاءً في الفرح أكلتم قليلًا ومسحتم أفواهكم وشكرتم الله، وقمتم قبل أن يقوم الناس، فلا يقول أحد أننا جائعين أو مفجوعين".

بشكلٍ غريب مست كلمات الأم قلب "راوية"، وجعلتها تنظر نظرة جديدة إلى والدتها، رأتها لأول مرة في صورة المرأة الحريصة على مصلحة عائلتها، والتي تحب لها أن تظهر بأفضل صورة ممكنة، حتى في أبسط الأمور، صحيح أن فعل الأم كان مرجعه في الأساس هو عادات وأفكار شعبية بالية، وتخوفات من كلام النساء ونم الجارات وهمس القريبات، لكن شدة حرصها على مظهرهم أمام الجميع، جعل الابنة الكبرى التي بدأت تمر بمرحلة تغيير شاملة، تحس بالإكبار نحو أمها، حتى وإن كانت العلاقة بينهما لم تعد طبيعية تمامًا مثلما كانت، سخر

الأب بلطف من أفكار زوجته، لكنه جلس إلى المائدة، وملأ بطنه بأوراك الدجاج التي يحبها، وألتهم طبقًا كبيراً من المكرونة بالبشاميل، وحتى أطباق السلطة أكلت عن آخرها بواسطة خمسة أفواه نهمة، بينما ظلت الأم تراقبهم بسرور، وهي تضع بين الحين والآخر لقمة في فيها مبتسمة، وكأن ما يلتهمه زوجها وأولادها كان ينزل مباشرة في معدتها هي، ويغنيها عن الانغماس في الأكل بشراهة مثلهم.

انتهت الوجبة فبقيت المائدة حافلة ببقايا العظام وفتات الخبز، والأطباق المتسخة، فنهض الجميع، وعكفت الأم على جمع الأطباق والأواني بسرعة وتركيز في نفس الوقت، لكنها فوجئت بابنتها تتقدم منها، ثم تهتف بهدوء:

- "ماما، هل أغسل الأطباق قبل أن نخرج".

كانت المفاجأة مذهلة إلى حد أن السيدة "هدى" توقفت عن جمع ما على المائدة من أطباق وأكواب وملاعق، وفردت جسمها المنحني، ثم راحت تتطلع بدهشة إلى ابنتها التي وقفت قبالتها وهي تنظر إليها، بنظرة لا تحدٍ فيها ولا مشاكسة، وكان ذلك غريبًا جدًا على سلوك الفتاة المراهقة، وقد مر وقتٌ طويلٌ فعلًا منذ أن كانت في تلك الحالة من الصفاء والتصالح مع من حولها.

در قلب الأم عطفًا وإشفاقًا نحو ابنتها، وبرغم غيظها الذي لم تنطف جذوته تمامًا بعد، إلا أنها أجابتها دون تبرم:

- "لا يا "راوية"، لا داعي، سنكومها في الحوض، وسأغسلها عند عودتنا، أو نتركها حتى الصباح، الدنيا لن تطير".

كان موقفًا صغيراً جدًا، ربما يراه الكثيرون تافهًا، إلا أنه كان عظيم القيمة

والأهمية في حياة تلك الأسرة الصغيرة، التي تكافح لكي تنجو بمركبها الصغير المحندق، وسط عواصف التغيير وأعاصير التشتت التي تحيط بالمجتمع كله، ومن موقفه عند باب غرفة نومه.. وقف الأب ينظر راضيًا إلى ابنته وهي تغادر بهدوء، ثم أسعدته الابتسامة الخفيفة التي أضاءت وجه زوجته للحظة، قبل أن تعاود نشاطها وتجمع بقية ما فوق المائدة من أوانٍ وبقايا طعام بسرعة وبراعة، وتحملها على دفعتين إلى المطبخ.

أرضاه ما رآه، فرجع إلى همه الخاص الصغير، وهو رباط العنق اللعين، الذي يحيره في ربطه، ويحيره أكثر في إبقائه على الصورة اللائقة طوال الوقت المطلوب، دون أن تنفك عقدته الصعبة، أو يتلوى كحية خرقاء في مليون اتجاه!

....

زفاف عائلي بسيط وبهيج، لم تتكلف الأسرة المضيفة كثيراً من أجل المظاهر الفارغة، لكنها حرصت على إقامة سرادق أمام منزل العريس امتلأ بالرجال من المعازيم، بينما تجمعت معظم المدعوات من النساء داخل البيت نفسه، وفي ركنٍ من السرادق خصص لهن وفُصل بينه وبين المساحة التي يحتلها الرجال فاصل من قماشٍ مشدود، وضع تحته صف من المقاعد الخشبية، وكأنه خط حدود بين عالم الرجال وعالم النساء!

في داخل البيت وجدت "راوية" نفسها، محاطة بعشرات وعشرات من النساء والبنات، على الرأس جلست والدة العريس، الحماة المنتظرة، الحرباء الكبيرة، التي تترقب وصول عروس ابنها بسعادة ظاهرة في العينين الكبيرتين، اللتين تحلتا بخطوط الكحل المنتظمة الأنيقة، رفلت الحما في ثوبٍ مطبوع يغلب

عليه اللون الأبيض، واهتمت بنفسها.. فبرغم سنها حرصت على استعمال أدوات المكياج كلها ببراعة تحسدها عليها بنات العشرين والثلاثين، حسدًا يكفي لأن يودي بها إلى مشرحة زينهم خلال أسبوع واحد لا أكثر، بالإضافة إلى العريس كان لدى تلك الأم المغبوطة ولدٌ ثان، طالب مدارس فنية نحيل وغريب الشكل، كان يحرص على اقتحام دوائر النساء المضروبة حول أمه، ليقترب من والدته، متظاهرًا بأنه يسر إليها بأمورٍ خطيرة، بينما كان في الحقيقة ينتهز الفرصة ليطلق أنظاره في الإناث المتوافرات بكرمٍ شديدٍ حوله، لم تفت نزواته الصغيرة على فطنة النساء والفتيات الكبار، وراحت الزوجات والأمهات يبعدن بناتهن، الأصغر سنًا والأقل فهمًا، عن طريقه مخافة أن تُتهم كريماتهن بقلة الحياء، أو أنهن يعرضن أنفسهن كعرائس مرشحات للشاب الذي بدا مكتمل الرجولة، ومتلهفًا بشدة على أن يلحق بأخيه، ويحظى بعروسٍ تسر العين مثله، كانت تلك طريقة عرض أكثر من بارعة، تستعمل أسلوب إخفاء الجواهر الثمينة في العلب القطيفة المغلقة، فقط من أجل لفت الأنظار إلى نقاوتها وجمالها، لم تنتبه "راوية" إلى شيءٍ مما كان يدور حولها.

كانت في فستانٍ مزركش وبهيج، يقارب شكله مظهر ثوب أم العريس، إلا أن ألوانه كانت أكثر جرأة وانطلاقًا، تصميم الفستان أوف شولدر، وهذا يعني أنه كان عاري الكتفين، لكن البدي الكارينا بلونه الفضي اللامع حل مشكلة عدم ملائمة الفستان للارتداء في بيتٍ متحفظ كبيت الأستاذ "عبد العزيز"، وبسبب طبيعة الثوب بزهوره وأوراق شجره، وانعكاسه على منظر البدي اللامع، بدا الثوب وكأنه أفرع وأوراق خضراء معلقة فوق شجرة، اكتملت الأناقة بطرحة صغيرة لفتها "راوية" حول شعرها، سامحة لمؤخرة رأسها بالظهور بحرية، ملامحها الفتية تبدت في وجهٍ لامع، بطبقة كريم أساس بنفس درجة لون البشرة،

وضربات خفيفة من قلم روج، لم يكن طلاء الشفاه سرًا هذه المرة، فقد أدخلتها أمها خلسة إلى غرفتها، قبيل مغادرتهم شقتهم بدقائق، منتهزه ضجة تجهز الصغار، وانشغال الأب بالجري خلف ولديه، ومحاولاته المستميتة لإبقاء "جنى" ممسكة بيده، وأوقفت ابنتها البكرية أمام مرآة التسريحة، ثم مسحت على وجهها بمنديلٍ ورقي نظيف، لتعيد توزيع الكريم بشكلٍ متساوٍ على مساحات بشرتها، ووضعت لها طبقتين أو ثلاث من روج بناتي شاحب اللون، فعلت الأم كل ذلك دون كلمة واحدة، لكن مودتها المفاجئة كانت فيما يبدو ردًا، ومكافأة تثير العطف، لما أبدته البنت نحوها من مودة ورغبة في المساعدة منذ لحظات.

في تلك الليلة أحست "راوية" بتقاربٍ كبيرٍ مع أمها، لم تعد ذلك (البعبع) الذي يتلو الأوامر، وكل عمله في المنزل هو الرقابة على التصرفات، وتنفيذ القوانين، وإبلاغ الأب بالخروقات التي تتم على نظام الأسرة المقدس، في لمحة فهم كانت متأخرة بعض الشيء، أدركت الفتاة أن أمها لا تتسلط على ميول ابنتها ورغباتها كراهة منها لرؤيتها سعيدة، ومحققة لما تصبو إليه، بل لأن خوفها كان أكبر من أملها، خوفها من كسر القيود وتحطيم الأغلال، كانت الأم حكيمة بالصورة التي جُبلت عليها النساء، حتى أشدهن أمية وبعدًا عن مصادر التعلم، الحكمة التي منشؤها إدراك الواقع الذي يُرى ويُلمس ويُدرك بالحواس، الواقع الحقيقي خارج صفحات الكتب، وبعيدًا عن نميمة الفيس بوك، وعن أحلام صفحات المجلات الفاخرة المطبوعة بالألوان، هذه الحكمة المؤذية، المغلفة بواقعية تمرض وتقتل أملًا جنينا مختبئا في الروح، أمل في أننا نستطيع تغيير العالم، وتحويله إلى الصورة التي ترضينا وتحقق آمالنا، بينما الحقيقة أن العالم هو الذي يغيرنا، كالماء الدقيق المنهمر بلطف فوق صخرة صلدة، لا يُرى أثره ردحًا من الزمن، لكنه يكسرها ويفلقها إلى نصفين في النهاية، وكذا كانت قيود

المجتمع مدار تفكير الأم، لأنها وكما تربت منذ صغرها، كانت السلامة هي مدار وجودها، السلامة لرجلها من الملمات والمحن، التي قد تتركهم بلا عائل ولا حامٍ ولا سند يعتمدون عليه، والسلامة لأولادها من التطلع إلى ما قد لا تطاله أيديهم أبدًا، ومن الخروج على تقاليد وعادات المجتمع، وبالتالي فقدان غطاء الحماية والأمان الذي يوفره لهم قيد المجتمع الثقيل المربوط حول أقدامهم، البنتين بالذات كانا مثار خوف الأم وهمها، المعاندة والتمرد والخروج عن الرأي عنت كلها بالنسبة لزوجة تكافح للوصول بأسرتها إلى بر الأمان، خطرًا جسيمًا من الغرق والانفلات، ومن ثم السقوط إلى قاعٍ لا تستطيع ولا حتى ألف يد حريصة ومدربة انتشالهن منه، كل المواقف التي ظهرت فيها الزوجة بمظهر الأم الصارمة، وربما القاسية، كانت غطاء يخفي هشاشة ثقتها في قدرة عائلتها على تخطي المصاعب، إنهم جميعًا معلقون بخيطٍ واحد، محفوظون خلف جدارٍ قويٍ واحدٍ هو (الأب)، وإذا تمزق هذا الخيط، أو أصبح الحمل أكبر من طاقته على الرفع والحفظ والقيادة، سيجدون أنفسهم في العراء، في زمن لم يعد أحد يهتم بأولاد أو عائلة غيره، بعض الآباء الآن يتخلصون من أولادهم أنفسهم، ويتركونهم نهبًا للشارع والضياع، صرامة الأم تجاه سلوك "راوية" كان ألمًا صغيرًا في صدرها، وسببه هو شدة خوفها من ابنتها المراهقة، وخوفها عليها أيضًا، وحتى تجاهلها للتلميحات التي واجهتها بها حول سلوك شائن لشخصٍ ما نحوها، كان لنفس السبب لم ترغب الأم في أن تنفتح عينا ابنتها على عالمٍ قبيح، ومتورم بالإثم والشهوة والعدوان، والاستهانة بسلب ما هو للغير من حقوقٍ وفضائل.

اختارت الأم أن تتعامى وتتغافل، بينما اختار عقلها أن تكذب وتتهم خيال ابنتها، إذ لا يمكن لامرأة في سنها ووضعها، تعيش منزوية وخاضعة تمامًا تحت

مظلة الحماية المجتمعية، والثقة في الرجال وتوقير المسنين، والأمل في الأقارب، برغم مقتها للكثيرين منهم، أن تدع ستار روحها الهش يتهتك، وعري وقبح فظيعان، عملت كل ما بجهدها كي تتجاهلهما وتنكرهما، وتبعد شرهما عن أطفالها وعن باب منزل عائلتها، أن يتكشفا أمام عينيها مجردين مكشوفي السوءات، بلا خجلٍ أو حياء، أو غشاء رقيق يحول بينها وبين رؤية حقيقتهما.

كل ذلك لم تتفهمه "راوية" إلا بغموضٍ وشمولٍ شديدين، فاتها ما فاتها، لكنها أدركت منذ تلك الليلة، أن أمها شريكتها في معركتها لا عدوتها، وأن عليها إذا أرادت أن تخرج منتصرة من حياتها بأكملها، ألا تعادي قوانين الوالدين، بل تستعملها وتستغلها بحرصٍ وحذرٍ وذكاء.

....

في المدرسة استمرت الأحداث الرتيبة متواترة، وجدت الفتاة نفسها محشورة في فصل تتكدس به فتيات جلهن تملأ الأحلام رؤوسهن، مراهقات الرابعة والخامسة عشرة، فتيات أحيط بهن وبأحلامهن مبكرًا، حتى بات التعليم مهربًا لا منفذًا، طلوع الروح التي تفرضها قوانين صارمة تجعل تصريف القنوات كلها في نهرٍ واحد كبيرٍ وملوث بشدة، الجميع يمدون أيديهم لينتزعوا منه أسماكه المسمومة، لأنه لم يعد ثمة غيث ينزل من السماء، ولا زرع يزدهر في الحقول، التربية الصارمة التي جعلت التعليم والشهادة للفتاة هما المفر الوحيد من الطوق المضروب حولها، كانت معظم هؤلاء البنات يعلمن، كما "راوية"، أن نوال الشهادة، والتكالب على فرصة الوظيفة، هو الخيار الوحيد المتوفر لتحسين حياتهن، لن يسمح لهن بتجريب طرق بديلة، أو اختيار خطط أخري لفعل ما يفعله الناس بطريقة غير التي يفعلونه بها، في وسط كومة من الفتيات، اللائي

ترهقن فترة عصيبة من العمر، فترة الحلول والنشوء من جديد، وإدراك مغبة الوضع الذي ولدن ليجدن أنفسهن عليه، البلوغ وما أدراك ما البلوغ، والشائعات المرعبة حول خصوصيات أجسادهن، النزوع نحو الحب للحب ذاته، وما الرجل إلا خيال ظل تلقى الأعنة عليه.

نموذج جاهز يتلبسه كل رجلٍ متوافر فيصير حبيبًا محتملًا، تلك المشاعر الفياضة التي تضطرب لها أفئدة تفتقر كل فرص الإعلان والإفصاح عما تعانيه، وكل محاولة ممكنة للحصول على الدعم والإرشاد السليم، في أجواء كتلك تصبح البنات مرجعيات معتمدة لبعضهن، لقد جربت "راوية" آراء ومختلسات زميلاتها العام الماضي، ولم تجن من ذلك إلا المرارة، وتشوه فكرتها عن العلاقة الحقيقية بين الرجل والمرأة، النصفان المكملان لبعضهما، النصفان المتصارعان منذ الأزل وحتى الأزل، والفضيحة والتهديد، لكن كل ذلك توارى مع عامٍ جديدٍ تدرك أنه يحمل لها خطرًا مزدوجًا، فرصة أخيرة ووحيدة، كجراحة بائسة وأخيرة قبل إعلان أن المرض ميؤوس منه ولا شفاء له، وأن الألم سيدوم مدى الحياة، وأن الخطر سيبقى ملازمًا، كعفريتٍ لا تصرفه أعتى الرقي ولا أشد التعويذات فعالية، تلك الحقيقة الموجعة التي شملتها بواقعيتها المرعبة، فأعمت أبصارها عن الكثير مما يحدث حولها، وباعتبارها طالبة راسبة، أو (معيدة)، مثلما رُقم أمام اسمها في قائمة الفصل، فقد حملت عارًا مضاعفًا، وأصبحت هي وشلة صويحباتها في المأساة هدفًا للفتيات الجدد المتنمرات، البنات اللائي تملئهن ثقة ساذجة، واللاتي يعتقدن أن القفز فوق مقررات اللغة العربية، واللغة الإنجليزية والتاريخ والجغرافيا، ورياضيات وعلوم الصف الثاني الإعدادي، يتيح لهن الحق في الائتمار بهؤلاء الراسبات الفاشلات، البنات التي تكبرهن كل واحدة منهن بعامٍ كامل، عارٌ فادح هي الثلاثمائة والخمسة والستين وربع يومًا الاضافية، التي تحملها كل

فاشلة ومعيدة على كتفيها، زيادة عما تمتلكه هؤلاء المستجدات من سنوات وأيام أخف وطأة وأقل حملًا مما لديهن، والتآمر عليهن، واتخاذهن لهوًا ولعبًا، كانت الفتيات كلهن يكافحن قلق المراهقة، ويتخبطن في سراديبها المظلمة، يتلمسن طريقهن في العتمة بإشعال حريق ذي منفعة مزدوجة، ينير لهن طريقًا دامسًا، كما ويدفع بحرارة الشعور والوجود والفاعلية في قلوب رانت عليها مخاوف لا أساس لها، ورغبات ومطامح لا سبيل إلى إشباعها، أو حتى مجرد الاعتراف بها علنًا.

هشاشة الروح التي ندافعها عن أنفسنا، ونغالبها بأن نسن أنيابنا ومخالبنا على غيرنا، وبذلك نداري ضعفنا الموروث، ونضع حدًا لمخاوفنا بأن نتحول نحن بذواتنا من أنفسٍ صغيرة هشة وقلقة، إلى مفترسات نهاشة يخافها الآخرون، ويفرون منها فرارهم من الأسود والنمرة الجائعة القاتلة.

من ذلك الصنف ابتُلي فصل ثالثة بعينة محترمة، كمٌ هائل من العقد النفسية الدفينة، التي سببها الكبت الإجباري للمشاعر، والشعور بالاستعلاء دون سندٍ حقيقي، الأحلام التي طوحت برؤوس تتعاظم طموحاتها لتتجاوز الأرض، وتنطلق نحو القمر، بل تبلغ نهاية المجرة دون عناء، ودون اعتبار للكتلة أو معاناة سرعة الضوء وحساباتها الدقيقة المتعبة، بينما تضيق مساحاتها الفعلية عن احتواء مشاعر وطموحات لم يتم ضبطها، ولا التعامل معها بجدية وضمير، بنات كن معظمهن يعتبر أنفسهن طبيبات مقدمًا، أو يستمتعن بشهرة عظيمة كنجمات وممثلات، لم يؤدين دورًا واحدًا في حياتهن، أو يخضن حروبًا لا يعلم عنها أحد شيئًا، معارك لم تحدث في الواقع فعلًا، بل هي مجرد صور وتهاويل، ونزاعات غير شرعية بين العقل والقلب والضمير والواقع الضاغط المرعب، من بين

هؤلاء كانت "نور"، فتاة جنى عليها طموح لا حد له، كانت تعد نفسها عارضة أزياء، جسدها الرشيق وقدها الممشوق لم يكن عليه أي عتب فيما ملأ نفسها من ثقة مفرطة، إذ كانت مؤهلاتها الجسمانية لا تهيئها لشيءٍ من كل ذلك، فقد كانت بدينة ممتلئة الساقين، ولها وجهٌ مستدير بخدين مكتنزين، لكنها كانت واثقة أنها سوف تكون يومًا في رشاقة بالبرينا، وفي حلاوة الممثلات الأجنبيات ذوات الشعر الأشقر، أو في جمال نجماتها التركيات المفضلات، وفي فتنة فتيات جبال لبنان بما اشتهر عنهن من حسنٍ صريحٍ ومميز، كل ذلك سيتحقق لها على طبق من ذهب، رغم أنها تواصل التهام الشطائر، ولا تحرم نفسها من فطيرة دسمة، أو وجبة غداء مدرسي محشوة بالدهون المشبعة ومكدسة بالنشويات والسكريات، لكن الأحلام لا سقف ولا رابط لها، في تلك المعمعة كانت "نور" ترى نفسها نجمة في الانتظار، إوزة فاتنة وسط قطيعٍ من الدجاج الغبي القبيح، كانت تستعرض مؤهلاتها المنعدمة بيونيفورم مدرسي حشرت نفسها فيه حشرًا، وتزدهي بمعاكسات ومغازلات من شبابٍ لم يروها أو يلاحظوا وجودها قط، ولم يكن زيفها وادعاؤها ليضايق "راوية"، التي كانت منغمسة في معركتها الخاصة، لولا أن الخروف بدأ بمشاكسة الذئب ببلاهة يُحسد عليها..

ذات يوم، وكان وقت الفسحة قد حان.. اشتبكت الفتاتان في عراكٍ لم يفهم أحد أبدًا منشأه أو سببه، كان من نوعية المشاجرات التي تنشب بين الصغار لأسباب هم آخر من يعلم بها، فالتحفز الذي في الدماء المتفجرة يجعل اقتراب أي عود ثقاب مطفئ بمثابة شرارة تندلع منها أعتى الحرائق المدمرة، تعاركت البنتان، وتعاملت "نور" مع وزنها كأنه نقطة سبق تتيح لها فوز سريع وهين، لكن "راوية"، بما لها من خبرة قتالية، وتاريخ محترم في شجارات مزقت فيها شعور زميلاتها، أو أوسعتهن ضربًا دون أن يملكن ما يكفي من قوة لدفع عدوانها

الغشوم عن أنفسهن، كل هذا أنهى الشجار والعراك بين الفتاتين، الذي احتدم وسط محاولات بعض التلميذات المرتجلة لفض الاشتباك، بنهاية غير مستحبة، حيث وصلت الاستغاثة إلى مجلس المعلمات، اللائي جلسن في حجرتهن الصغيرة ليرتحن، ويلتهمن على عجلٍ شطائر أحضرنها معهن من بيوتهن، أو اشترينها، رغم كل تحذيرات وزارة الصحة ومناشدات برامج التوعية الصحية في التلفاز، من مطاعم ومقاصف الشوارع، ولأنهن يتحملن بقدرٍ شاقٍ من العمل، بينما ينقمن على زميلتهن، أخصائية التربية النفسية، ما تتمتع به من راحة، وما تنعم به من جلوسٍ طويل، يطول حتى عدد ساعات اليوم الدراسي الفعلية، فقد أغلقن أذانهن وتجاهلن صيحات الاستغاثة المصطنعة، ليجبرن المرأة المحسودة على النهوض، ولو لمرة واحدة في حياتها، لتهتم بمقتضيات عملها الرسمي، الذي تتقاضى عليه أجرًا كاملًا يماثل أجورهن، دون أن تلم بمعشار ما عليها من جهد وواجبات مقابله، مرغمة تحركت كتلتها الجسيمة، كانت الأستاذة "حمدية" نموذجًا للموظف المصري التقليدي، تعشق الشكوى وتعبد التذمر، وتتمتع بأحاسيس لا تتخلي عنها من الظلم وقلة التقدير، في المقابل فقد كانت مقتضيات مهنتها ترهقها وتكبدها مشقة هائلة، دون حتى أن تقوم بها فعليًا، الجهد المسفوح بدون مقابل عادل، والتعب والمشقة المتوقعان تترك في نفسها أثرًا مماثلًا تمامًا لتعب ومشقة حقيقيان وحادثان على أرض الواقع، العسر الذهني الذي أصاب دولة في عظمها، وضربها في الأساسات، فظن مشرعوها ومخططوها، أن بالإمكان الحصول على أكبر قدر من الفائدة بأجرٍ هين أو مخجل أو غير ملائم، في المقابل فإن المصري الذي صارع تاريخ عنيف ممتلئ حتى آخره بتقلبات هائلة، وغزوات مرعبة، وتغيرات شاملة، تغيرات مخيفة لكنها بقيت دائمًا على السطح فقط، بينما ظل القاع مصريًا ضحلًا يصعب جدًا على الأسماك الكبيرة والقروش استعماره، أو التأثير فيه، تلك الحقيقة الصغيرة والبديعة جعلت هناك

نظام تكيف مذهل لدى المصريين، قدرة هائلة على محاكاة الحاكمين، في نفس الوقت الذي يسخرون فيه منهم، ويناصبونهم عداء لا هوادة فيه، ويتفننون في إفساد عملهم، وتدمير كل مخطط لهم، بتلك القدرة عملت "حمدية "وملايين غيرها على تحطيم أسس الهيكل التنظيمي الذي تنتمي إليه، قلة الضمير لم تكن هي أساس المشكلة أو أصلها، بل الرفض الطبيعي والفطري للمنظومة التي وُجدت فيها بأكملها، وعدم القدرة على تقبلها أو الشعور بالانتماء إليها، في ظروفٍ كتلك تصبح مشاكل الطلاب، خاصة الفتيات منهم وجعًا كبيرًا في الرأس، وإفسادًا غير مقبول لطبيعة العمل الرتيب والروتيني في مؤسسة تعلمية كتلك، الكل يتظاهر بأنه يعمل، والكل يتظاهر بالامتنان والخضوع للنظام التعليمي بكل مقتضياته وإملاءاته، وتحول اليوم الدراسي من مجرد سير هادئ ومنظم لسلسلة من الأحداث المتشابهة والمتوقعة، إلى ساحة حرب مصغرة تتبادل فيها فتاتان كبيرتان الصفعات والركلات، كان أمرا مرعبًا، نقطة الهلع هنا هي أن الطلاب هنا من جنس الإناث، ولا يمكن التعامل معهن بالأسلوب التقليدي المتبع، خاصة لكونهن في سن المراهقة، فلا يجوز الاكتفاء بصفع كلٍ منهن على مؤخرة عنقها، وصرفها إلى منزل أهلها، وتهديدها بعدم الحضور صباحًا إلا برفقة ولي أمرها، لأن أول ما سيفعله ولي الأمر المبجل في الغد هو الدفاع بحرارة عن تربية ابنته، وسيرد الأمر على المعلمين وإدارة المدرسة ككل، ويتهمهم بالتقصير، وربما تطور الأمر إلى تعدي من الأب، أو الأم، إن كانت طويلة اللسان ماضية اليد، على من يتصدى للتعامل معهن من القائمين على حل المشكلة!

برغم سلبيتها الأسطورية ووخمها الذي صار مثالًا يحتذى، فإنها كانت مدركة لصعوبة المشكلة التي وضعت أمامها، ولخشيتها أن يتسبب أي تصرف في غير محله من قبلها في مضاعفة المشكلة، أو تدخل المدير أو حضور ذوي

الطالبتين الشاكيتين، فإنها أدارت دفة المشكلة بمهارة، مستعينة بميراث قديم وعريض من أساليب تخويف وترهيب الإناث، ذكرتهن أولًا بتربيتهن المحترمة في البيت، ثم عرجت على الأغنية التقليدية، الأسطوانة المشروخة التي مل منها الناس من فرط ما سمعوها مرارًا وتكرارًا، أغنية سمعة البنت وكلام الناس عنها، والإساءة للعائلة، واتهام الناس لتربية الأم بالفشل والخسران، وحبل غليظ مجدول من التهديدات برفع الأمر إلى السيد المدير، إلى استدعاء ولي الأمر والشكوى له، إلى اتخاذ اجراءات عقابية متنوعة، وحتى التهديد بالفصل المؤقت من المدرسة، كل ذلك لم يؤثر مطلقًا في البنتين اللتين كانتا تدركان بفطنتهما أن كل ما قيل ليس إلا كلامًا في الهواء، وإلا فلما لما تبادر الأخصائية المحترمة بسؤالهن عن سبب المشكلة الأصلي أولًا؟!

في الحقيقة أن الأستاذة قد فعلت، لكنها عالجت الأمر بإهمالٍ تام فلم تهتم بسماع الحقيقة، أعطت نصف دقيقة لكلٍ من الفتاتين لتحكي القصة من وجهة نظرها، ثم قضت بقية الربع ساعة الذهبية في سرد نصائحها وتنظيراتها الفارغة، كانت تلك هي الطريقة التي تُدار بها الأمور في المدرسة عادة، وجهة نظر الطالب كانت تقال على مضض، وبخجلٍ وحياء، وكأنهم يرتكبون فعلًا فاضحًا في قلب الطريق العام، أما وجهة نظر المعلمين والإدارة والموجهين، والمنظرين ومتفلسفي الإدارات التعليمية، والموجهين الكبار القادمين من مراكز المحافظات، والذين يعيشون عادة في يوتوبيا بلهاء، ولا يعلمون شيئًا عما يجري داخل الفصول، وبين الطرقات وحول الحمامات، فهي تُعلن وتُذاع بصريخ ودعاء ولجاجة وصوت مرتفع، صياح لابد منه لإخفاء حقيقة وحيدة ومخزية، وهي أن من يقومون بالعمل ويوجهونه يحتاجون لمن يعلمهم ويوجههم هم أنفسهم أولًا!

سمعت الفتاتان المحاضرة، كانتا متأكدتين أنهما ستسمعانها كالعادة، ثم خضعتا لإملاء الأخصائية فاعتذرت كلٌ منهما للأخرى على مضض، اعتذار بارد في الوجه، يخفي لهيب من الحقد والعداء المتبادل، الذي راح ينمو في دخيلة نفسي بنتين، لا يجمعهما في الحقيقة أي خلاف أو حقد مشترك، مجرد لعب عيال بين طالبتين، كلٌ منهما تريد أن تظهر وتتفوق بطريقتها الخاصة، لكن نهاية الموقف المملة أذكت رغبة أشد في إعلان الانتصار والفوز بطريقة مختلفة، أضمرت "نور" في نفسها أمرًا، بينما كانت "راوية" التي أُستدرجت مرة أخرى إلى طريق الشقاوة والتمرد، اللذين تحاول جاهدة الابتعاد عنهما هذا العام الحاسم، فرصتها الأخيرة التي مُنحت لها بدون طيب خاطر وعلى مضض، تحضر خطة معاكسة، أفرخت بذرة الخلاف التافه نبتة صغيرة وضعيفة من الكراهية والحقد المتبادلين، ما كان أسهل اجتثاثها والقضاء عليها، لو أن المعلمة كانت أكثر فهمًا وإلمامًا بواجباتها الوظيفية والإنسانية، واستنادًا إلى طبيعة تفكير الفتيات المراهقات، وأسلوب معالجة المشكلة العقيم، فقد راحت النبتة الملوثة تنمو بسرعة مهولة، وخلال بضعة أيام كانت شجرة الكراهية والخصام تظلل المدرسة بأسرها، وعلمت جميع طالبات مدرسة الإعدادية للبنات أن "نور " و"راوية" تتبادلان العداء، وتنتظر كلٌ منهما الفرصة للانقضاض على الأخرى وتشويهها.

■■■

الفصل العاشر

قرب نهاية الفصل الدراسي الأول، ومع هلول زهور يناير اليانعة، التي تفصل بين الحق والباطل، وتبرئ العام الجديد من استهلاك عامٍ منصرم، يصر كل الإصرار على التشبث بالبقاء والدوام، تتكون في العالم أنوار جديدة لم تُشاهد من قبل، أنوار عام وبدايات رقم من عمر الزمان، لم يطالعه الناس ولم يقرؤوه في كتبهم ومذكراتهم من قبل، ٢٠١٥، ٢٠١٦، ٢٠١٧، هذه الأرقام العجيبة لم يقرأها إنسان على مدى قرونٍ طويلة مضت، لعبة الزمان الوقحة وتصاريف القدر العجيبة، ودورات الوجود الهائلة، العجلة العملاقة التي تدور وتدور، وتدهس البشر تحتها وتهرسهم، لكنها في رتابتها وحركتها اللانهائية، التي ما تفتأ تتكرر بحذافيرها كل مرة، تقتل أرواحهم ببطءٍ وتؤدة، يفوقان في قسوتهما ووقع آلامهما كل الميتات السريعة الناجزة، والتي لا تستغرق إلا لحظة واحدة من عمر الزمان، في أسطورة حضرية مكررة ومعادة استمر العام الدراسي في سيره الحثيث، كانت روائح وطلة يناير المميزة تعني أن انتصاف العام أصبح ضروريًا، وخضوع الطلاب لاختبار يبين قدراتهم، ويثبت ما ألموا به من موضوعاتٍ وتدريبات ومعلوماتٍ جديدة قد بات ضربًا من الواقع، الذي لا سبيل لإنكاره أو التنصل منه، انكب طلاب العلم في طول مصر وعرضها على الاستعداد لاختبارات الفصل الدراسي الأول، وشُحنت القلوب والعقول، وتحولت البيوت والمدارس وسناتر الدروس الخصوصية إلى معسكراتٍ مغلقة، معسكرات تعذيب وترهيب وتنفير إجباري من العلم والتعليم، مقررات مكدسة، وفكرة جمع المنهج كله قبيل

الامتحان أُبتذلت حتى أصبحت مقززة، إذ أن المنهج الذي سيُجمع من أجل اجتياز الامتحان، من المفترض أن يكون ذخرًا علميًا وثقافيًا للطالب بقية عمره، لكنه يتحول إلى كومة ثقيلة من الحجارة التي يتوجب إزالتها، جرفها والتخلص منها في البحر، ورقة الامتحان المرعبة تتحول إلى ثغرة تبتلع ألوف الأفكار، وملايين الأحلام الطموحة، ويغرق في لجتها التي لا تعرف الرحمة مواهب كان من المأمول أن تؤتي ثمارها يومًا ما.

ومع فكرة الرسوب المسبقة، والخوف من تكرار الفشل، مورس ضغطٌ إضافي، وعظيم وشديد الوطأة على "راوية"، كان من نوع الضغط المعنوي الذي لا يحس إلا بصعوبة، لكنه كان موجود ومحقق وملموس بكل طريقةٍ ممكنة، في الأشهر الماضية خاضت البنت حربًا صامتة، حربًا لم يُستعمل فيها إلا سلاحٌ واحدٌ ووحيد، سلاح الصمود والثبات، مواجهة التحدي الصامت بآخر أشد صمودًا، والتهديد المبطن بترهيب معلن بصمت ودون خوف أو تردد، كان الشيخ المفتون، الذي حول طاقاته مجتمعة، وكرس كل ما أوتي من رغبة مضطرمة كالنار، تنكرها عليه أعراف وتقاليد وقيود أسرية واجتماعية لا حد لها، يضع الخطط التي لا تنتهي للظفر بأمله الواهي قصير الأجل، لقد اعتنق فكرة أوحت إليه بأن الفتاة المراهقة قد تكون مفتونة به، فكرة غبية لكنها لم تكن مجانبة تمامًا لبضع حقائق مؤذية وملتبسة نفسيًا، فلأنه لم يكن جاهلًا فقد سمع وقرأ كثيرًا عن تعلق بعض الضحايا بجلادهم، ووقوع الفتيات والفتيان الصغار ممن يتعرضون لاعتداء أو تحرش جنسي أحيانًا في غرام منتهكيهم، لم تكن ثمة علاقة تربطه بكل هذا الميراث المر من العقد النفسية، والتداخلات الطبية، وعقدة (ستوكهولم) وما إلى ذلك، لكن فطرته الاجتماعية أعلمته أن كثيرًا من النسوة

المتزوجات يبقين على أزواجهن الذين يوسعونهن ضربًا واعتداءً وتعذيبًا، كان الرجل قاصرًا في عقله وتفكيره، ومحملًا بتراثٍ عريضٍ من الأفكار البالية، مما حدا به إلى الايمان بأن الأنثى بطبيعتها تميل لمن يعاملها بقسوة وامتهان، ظن أنه قصور وخلل في طبيعتها، ونقصان في عقلها وطغيان في عاطفتها، لكنه لم يفهم أن المرء ينحاز لمصدر الأمان، ويبحث عن حائطٍ يستند إليه، فإذا عز عليه إيجاد المأوى الآمن الدافئ، اتخذ من أرصفة الشوارع الباردة فرشًا وغطاء ووسادة، لا لأنه ينحاز إلى برودتها وقسوتها فعلًا، بل لأنه لا يجد تحت يده سواها.

وبتلك الفكرة العقيمة لم يتفهم العجوز الشهواني أن خوف الفتاة منه لم يعد له مبرر، لم يعد ممكنا تخويفها بأبي رجل مسلوخة، وحتى إذا خافته فإنها ستراه الآن على حقيقته، ذئب عجوز واهن يسهل جدًا مقاومته والتغلب عليه، بل والتلاعب به إذا لزم الأمر.

وهذا ما حدث بالضبط، لقد نصب الشيخ فخاخًا لا نهاية لها، وكمن في بيته منتظرًا لحظات الإشباع والتلهف، ساعة أن تدور الساعة في الثالثة عصرًا، وتخضر أعتاب منزله المقفرة بقفزات رشيقة فاتنة لفتاةٍ غضة، تتلاعب الطبيعة بمفاتنها التي تحكم تغطيتها وكبتها، لكن رائحة الورد لا يمكن التحفظ عليها، وعبير النضوج يضوي في الأرجاء، مستحثًا أعصاب الكبار الفانين المرتجفة على الإياب والعودة للعمل، ربما لم يكن الزواج الثاني متاحًا أمام الحاج، وخيار أن يقترن سرًا بامرأة في ثلاثينياتها أو أربعينياتها لتناسب عمره كان أمرًا مستبعدًا جدًا، لكنه الآن صار محالًا بالنسبة إليه، إذ أدرك الرجل أن فكرة الخضوع لإملاءات السن أصبحت منفرة وقاسية بالنسبة إليه، إنه لا يريد امرأة ثيبًا تلائمه في السن والمكانة، لقد ضيع من عمره ما ضيع خضوعًا للتقاليد، والآن وإن قرر

المواجهة وإعلان التحدي، والوقوف في وجه زوجه المشغولة بخريف عمرها، والراضية بما أُستهلك في شبابها من دلال وحب بالحلال المتاح، وركنت إلى قيود الزمن تتخذ منها ستارًا يحمي تجاعيدها وغضون وجهها، فلن يرض أبدًا بفضلة غيره، لن يقبل امرأة ثانية يناديها الخريف من مبعدة، أو يقف على مسافة خمس أو عشر سنوات منها، إنه يريد فتاة غضة، صبية جميلة تدرج في مباهج العمر، ظبية تركض في المرج فتلاحقها النجوم وسهام الغزل، لا سيدة تمشي الهوينى وخلفها ثلاثة أو أربعة عقود منصرمة، تردمها بقيودٍ وعمرٍ فائت ومطالب، ومشاحنات وتوقعات كثيرة خائبة، إنه لا يريد أن يختتم حياته، بل أن يبدأها من جديد، ربما طوحت الأحلام برأس الشيخ المسن، لكنه أعطى لنفسه كل الحق في أن يحلم، لم يفكر بالطبع في أن يطلب يد الطالبة التي تغشي منزله للحصول على مساعدة تعليمية من ابنته، لأن ذلك سيكون إسرافًا في عرض مباذل أفكاره ورغباته على المجتمع، وفرصة ثمينة تناله فيها سهام النقد والتجريح من زوجته الكنود، ومن أبنائه المتربصين بأي محاولة منه لتعكير استقرار الأسرة، لكنه سيجعل من البنت حقلًا للتجارب، سيعرض عليها فتنته الذابلة، ويعتبرها نموذجًا لتفريغ شهواته، وتعديل وتجريب خططه، إذ ربما يقع الصيد الثمين من تلقاء نفسه بين يديه، فيغنيه عن مواجهة العائلة، وعن وجع الرأس أمام كل من سيتحزبون ويتضامنون ضده، لكن إذا عز عليه إغواء الفتاة، ووجد أن طريقه مسدود بأشق عوائق ممكنة، فقد يستعيد في تلك التجربة قدرًا من شبابه الذاهب، ويتخذ من لهوه الفاجر المؤقت رصيدًا يشبك منه مصيدة، تسقط له فيها كاعب يتيمة أو فقيرة، أو يسحب ذيل المودة مع أرملة أو مطلقة سهلة المنال، أو حتى يتزوج سرًا بامرأة مناسبة تحفظ سره، وتلهم أيامه القليلة الباقية بعبير الفردوس وعطر الحوريات المنتظر في الجنة، الأمر المشين في القصة أن

الرجل كان يأمل في جنة ربه ومغفرته، في نفس الوقت الذي يضع فيه بلا حياء، ولا خوف من خالقه، المشاريع للإيقاع بطفلة، والاستحواذ عليها بين حبائله!

على الطرف الآخر كانت "راوية" تدرك عمق الورطة التي هي فيها، إن التعرض لتهجمات الخطر مرة ومرتين وثلاث يخلق عازلًا يقي من الجبن وسرعة الخضوع للتهديد، لقد قويت شوكتها يوم أن أدركت أنها وحدها في تلك المعركة، بلا سند ولا حماية لأن من يملكون تقديم الاثنين لا يصدقونها، ليس تكذيبًا لما تقول، بل حماية لثقافتهم ومثلهم الهشة من الانهيار تمامًا أمام أعينهم، اختاروا أن يتظاهروا بالعمى، ويستغشوا ثيابهم بدلًا من أن يروا ويسمعوا ما ينسف ما تربت عليه أجيال عديدة نسفًا، ويبلل ثقتهم في كبارهم وشيوخهم وأصحاب الكلمة والرأي فيهم، كانت تشفق على أبيها وأمها لأنها تعلم أنهما ضعيفين أمام سطوة الشيخوخة، وطفلين غرين في مواجهة عجوزٍ محنك يعرف من أين تؤكل الكتف، والأهم أنه يعلم تمامًا أي كتف بالتحديد أسهل في قضمه، وأيسر في مضغه.

مع بشائر الامتحانات كانت حصص المراجعة أساسية، والتردد على بيت الحاج القريب للأب والأم أمرًا طبيعيًا، لم يداخل أحد سكان البيت شك في سبب لزوم الأب والجد المنزل ساعات الظهيرة وأوقات العصاري، كان من دأبه أن يغشي المقاهي، ليلاعب لداته ممن فاتهم قطار الحياة الصاخب المندفع بأقصى سرعة ألعابًا تجدد الشباب، والثقة في ديمومة الحياة واستمرارية اندفاعها في الأوصال المرتعشة الواهنة، مصرًا على أن يتشبث بأذيال شبابه الذي ولى برع الشيخ الستيني في الشطرنج وألعاب الورق الخفيفة، لم يكن يقامر أو يُقدم على المراهنة، فقد كانت تلك ذنوبًا ثقال في رأيه، لكنه كان يلاحق المنافسين بحركاته

البارعة، وقفشاته المحكمة في الوقت المناسب، العجيب أن معظم قفشات الشيخ وملحه الطريفة كانت عن النساء، وكل ما يتعلق بأمورهن الحميمة، لم يكن ذلك متنافرًا مع مظاهر أو طباع هذه الثلة من الرجال الكبار سنًا، فقد كانوا جميعهم نموذجًا حيًا وصادقًا لمجتمع يعشش التناقض، والتظاهر بالأمر ونقيضه في دمائه، التقوى الظاهرية المغرقة في تفاصيل ودقائق لم يلم بها حتى الأوائل من السلف الصالح المرجو والمُتبع، في مقابل ميل لا يخفى للتهتك والاستهتار والخوض في كل الملذات، هؤلاء الذين يحسبون علاقتهم بربهم بمقياس العرض والطلب، ويساومون خالقهم على الجنان بعد الحسنات، كما يعدون الفكة والجنيهات الفضية في جيوبهم، ليرشوا بها الأطفال والصبية غير المدركين، حُبب إليهم من الدنيا العيش بوجهين، يختلف كلٌ منهما عن الآخر اختلافًا بينًا، ويُعاديه ويخالفه في كل شيء، تلك الشلة من الأشباه تلاشت من أفق الرجل، الذي يكمن كصيادٍ في انتظار فريسته عصر كل يوم، يكفيه أن يجد ريحها، أو يظفر منها بلمسة أو تربيتة عابرة على ذراعها، سفاسف المتع هذه كانت ترضيه، وتهيئ له وجبات حرة وعامرة في جنان خيال خصبة، حياة رغدة يتطلع إليها، ولما كانت كل الأبواب المؤدية إليها مسدودة في وجهه، فلم يجد الشيخ عارًا أو عيبًا في أن يسترق النظر أو يختطف السمع من ثغور الأبواب، حتى تواتيه الفرصة ليفتح الباب على مصراعيه، نعم حتمًا ستأتي ساعة حظ يلكم فيها كل من يعترض سبيله، يدفع الباب الموصد دونه، ويفتحه على مصراعيه ليطل على الجنة التي يشتهيها، ويعاينها عن قرب دون حاجز أو مانع ما!

قبيل امتحان اللغة الإنجليزية حددت "ندى" لقريبة أبيها الصغيرة حصتين للمراجعة، يومي الثلاثاء عصرًا، بعد امتحان الهندسة، والأربعاء صباحًا، كان يوم امتحان اللغة الإنجليزية هو يوم الخميس، والنموذج المنتظر مبشرًا بأسئلة في

مستوى الطالب المتوسط، لكن بربك من يعلم مستوى الطالب المتوسط في مص؟!

إنهم يخبطون خبطًا عشوائيًا، ويظنون النوادر قاعدة تستحق أن يشيد لها تمثال، لذلك فقد كان المدرسين يعلمون علم اليقين أن نماذج الامتحانات التي نشرتها الوزارة هي قطة سوداء في غرفة معتمة، لا يعني سماع صوتها أنك قادر على الإمساك بها بسهولة أبدًا، انكب الطلاب على التحصيل، وعلى حشو أدمغتهم بالدروس التي سينسون نصفها بمجرد مرور ساعة واحدة بعيد تأدية الامتحان، أما البقية فإن عسف النظام التعليمي، ومخاوف الغبن في التصحيح، والفشل في تحقيق أعلى الدرجات، جديرة كلها بالقضاء على ما تبقى في وعي التلاميذ، مما لُقنوه على مدى فصلٍ دراسيٍ كامل.

أما "راوية" فقد كانت تخوض معركتين في جبهة واحدة، والعجيب إنهما ضد عدوٍ واحد، فقد كانت تريد أن تثبت نفسها لابنة معذبها الذي يتوق لانتهاكها ونهشها حية، دون أن ينتزع الشوك الرقيق من بدنها المثقل، بنفس الدرجة التي كانت تتلهف بها للانتصار على أبيها، وكان لذلك الظن وجاهة عندها، فالفتاة ابنته وما هي إلا بضعة منه، وتمكنها من تحقيق الفوز عليها، وإثبات نفسها أمامها، يعني أنها قطعت نصف الطريق نحو إجبار الأب المتربص على التراجع، لم تكن "راوية" تتوق، في تلك المرحلة المبكرة من حربها ضد العجوز، إلا إلى الفوز السلبي عليه، إقناعه بأن يغرب عن وجهها وينصرف بعيدًا، أن يخليها حرة وأن يبعد أذاه عنها، غير أن فترة الامتحانات حملت لها همًا ثقيلًا جديدًا، فقد أُكتشف معتدٍ جديدٍ في مدرستها، ظل جديد للهجمة الشرسة والمنظمة على إناث البشر، المعلم الهمام الذي بدأ عام بنات مدرسة (أسماء بنت

أبي بكر) الجديد بوصلة تحرش مبتذلة وسخيفة، لقد تمادى الرجل في غيه طيلة الفصل الدراسي المنصرم، وأقدم على تصرفات طائشة وجنونية، حتى فاحت رائحته، وعُرفت سيرته بين جمع الطالبات، وتجنبًا لأذاه تعمدت البنات البقاء بعيدًا عن مجال وجوده وحركته، كان تخصصه لا يضعه في تعامل مباشر مع التلميذات، لكنه كان يقحم نفسه إقحامًا في وسطهن، يستعمل شقلبات القرود وخفة دم النسانيس ليتحصل على حصص احتياطية، لا يفعل فيها شيئًا سوى التظاهر برواية قصص ممتعة لتسلية التلميذات، بينما يستعمل يديه وركبتيه ولسانه في التحرش بكل واحدةٍ متاحة له منهن، لم يحتاج الأمر إلا إلى أسبوعين، بعد بدء العام الجديد، حتى طارت شهرته وساءت سيرته في المدرسة، وساعدت طبيعة المنشأة التعليمية، وكونها مخصصة لتعليم البنات، وتعمل فيها الكثير من المعلمات اللائي كن يتجاوزن ستين في المائة من قوة العمل في المدرسة، على سرعة نقل وترويج الشائعات، كانت شائعات في مبتدأ الأمر، ثم لم تلبث أن تأكدت، أكدها المتهم بنفسه في لفتة غباء غريبة ونادرة، كان الأستاذ "س. س. م" من نوعية الرجال الذين لا يصبرون على نوازعهم ورغباتهم، متزوج.. غير أن الزواج أجج خبث طويته بدلًا من أن يعالجها، لم يجد المعلم متوسط الحال في زوجته ما يرضي خاطره، فانطلق على سجيته يشبع هواه من الأذى الطفيف الذي يسببه للبنات، والذعر الذي يعايشنه وهن يبعدن يديه عنهن بكل الطرق، انطلق مستجيبًا لشيطانه دون أن يطرح على نفسه سؤالًا محرجًا ولو لمرة واحدة: هل وجدت زوجته فيه ما يرضيها أيضًا أم لا؟!

لم يكن ذلك السؤال مما نمى في وعيه المجتمعي، فقد تربى على أن كل شيء من حقه وحده، لذلك انساق خلف نزواته متأكدًا من أن سلطته الأدبية كمعلمٍ

تعفيه من المساءلة والتوبيخ والعقاب، لن تجرؤ الطالبات على تحديه، وشكواه علنًا لصاحب سلطةٍ ما في المدرسة، كان ذلك هو أول فصل دراسي يقضيه في منشأة البنات هذه، بعد أن أُخرج بكامل رغبته من المدرسة الابتدائية التي كان يعمل فيها، استعمل الواسطة والمحسوبية ليُنقل إلى تلك المدرسة تحديدًا، متحججًا بقربها من منزله، وهو ما لم يكن صحيحًا على الإطلاق، لكن أعذاره الحقيقية لم تُخف على أحد، غير أن المعضلة بقيت قائمة كما هي:

- فهل تجرؤ البنات المتضررات على تحدي سلطة معلم في المدرسة، وتقديم شكوى ضده!

في قضية ملتبسة كتلك كانت كل الأطراف ترى نفسها على حق، غير أن الصغيرات كنَّ وحدهن من يعرفن الحق، ومن يملكن أن يجأرن به علنا، لكن المجتمع اختار أن يكبت أصواتهن وأن يقمعها، ويمنعها بكل وسيلة ممكنة، كمن الشيخ مترصدًا لصيده، بينما اختار شبيهه، المسربل بثياب رسول العلم، مكانًا مقدسًا ساحة لنشاطه المشبوه، كلا الرجلين لم يكن يختلف عن الآخر في قليلٍ أو كثير، وعساه المعلم المعتدي المتطاول، حين يتقدم به السن، أن يختار منزلًا ينصب فيه فِخَاخِه للصغيرات واليافعات، غير أن للحاج المسن ميزة لا يشاركه فيها الآخر، وهو أن الشاهد على جرمه كان واحدًا، لم يكن ثمة قضية تقام ضده اعتمادًا على شاهد واحد فقط، إذن فقد كانت قضية "راوية" خاسرة، من قبل أن تُرفع أو يُبت فيها، لأن أصابع اتهامها كانت تتجه صوب رجلٍ يخالفها جميع الناس، وعلى رأسهم الكبار البالغون العقلاء والمجربون، في نظرتها نحوه.

في العراء بقيت تدافع عن حمي يظنه الجميع آمنًا، تحت مظلة قيد ثقيل يوضع على عاتق الضحية وحدها، جزء من تلك اللعبة كان مرهقًا للأعصاب، لكن

الانغماس في الحرب يحرض حتى أشد الأشخاص جبنًا على إظهار شجاعتهم، واستعدادهم للتضحية والفداء.

....

مُساقة بأقدارٍ لا ترحم، مشدودة حول عنقها بإحكام، راحت "راوية" تتردد على منزل الرجل، تدارس ابنته لغة غريبة، لقومٍ ليس لديهم كل هذه القائمة من الموانع والتعقيدات، ثم تستكمل طريقها تاركة صيادًا عجوزًا هرم، قط سقطت مخالبه يتلمظ وهو يعد الشباك، ويعد مدخراته ليشتري له أنيابًا جديدة قادرة على القضم والعض والمضغ، في حصة المراجعة الأولى كانت "راوية" شاردة، بررت ذلك بإرهاقها من امتحان الهندسة، وسهر الليلة الماضية، فلم تعلق "ندى" ولم تهتم، برغم أن تلك لم تكن الحقيقة أبدًا، وانصرفت الفتاة جارة كومة من الهموم المتباينة خلفها، جبل من المخاوف، والآثام التي تتلصص في الظلام، حقائق يُحسن جدًا إنكارها، محاولة محوها محوًا إن كان هذا ممكنًا، لقد بدأت تشعر بالخوف والتردد، وساءت نظرتها إلى كل الرجال، بما فيهم "حسن" ذلك الشاب اللطيف، الذي لقيها اليوم عصرًا مصادفة، وهي تغذي الخطى تجاه منزل قريبها لتأخذ الحصة، فسار بجوارها بعد أن أعاد تعريف نفسه، لكنها لم تكن قد نسيته أو نسيت اسمه، من الغريب أن شعورها نحوه كان مرتبكًا ومختلطًا، لم تحس تجاهه بقلقٍ أو خوف مشؤوم كالذي تقابل به محاولات الحاج، أو محاولات المعلم المعتدي الغشوم للاقتراب منها، لكنها لم تحس نحوه مودة صافية، لم تخافه غير أن الحذر كان يملأها، سار الهوينى بجوارها دون أن تبدر منه بادرة سوء، غير أنه رجل في النهاية، ويستحسن جدًا أن تأخذ حذرها منه وتتقيه، وتقابل محاولاته المرتجلة للتقرب منها بالصدود والتثبيط، وهكذا تآمرت حفنة من الرجال الأغبياء، ممن يعجزون عن السيطرة على أنفسهم أو كبح جماح

ذواتهم، على تحويل حياة بقية الرجال إلى جحيم، وتشويه العلاقة السوية والضرورية بين جنس الرجال وجنس النساء، كل تلك الكومة من الظنون السيئة، والشكوك التي تتطاير مع ذرات الغبار، وتنشر نفسها في الهواء تحول القلوب النضرة الغضة، التي تتوق إلى تبادل الحب، وتتلهف إلى الحنان والتعاطي مع الجنس الآخر المختلف، إلى آبار عكرة تهوي فيها الجيف الميتة وسحب الرمال، وأكوام الحجارة، وتحول ماؤها الصافي إلى عكارة، ربما يدوم كدرها وتلوثها إلى الأبد.

صبيحة الأربعاء كان موعد حصة المراجعة النهائية، الحصة التي ستدخل "راوية" امتحان اللغة الإنجليزية اعتمادًا على ما ألمت به من معلومات، وما استوعبته من مواضيعٍ ووحدات خلالها، كان الصباح هو موعد الحضور، دون دق أية أجراس، لكن أليس الصبح بقريب؟! خاصة لو كانت الساعة العاشرة صباحًا هي مدار الاهتمام، فلم يكن كرور الساعات منذ لحظة استيقاظ الأسرة في السابعة صباحًا، ثم تناول إفطار روتيني من الفول بالسمن البلدي، الذي تعتبره الأم بندًا أساسيًا من بنود ميزانية البيت، ومهما قترت على نفسها وعلى عائلتها في أيام التقشف والشظف، فإن رطلي السمن البلدي اللذين تشتريهما من سيدة ريفية تدور على بيوت الشارع، لتبيع بضاعتها من البيض الطازج واللبن الرايب والسمن والقشدة البيتي الممتازين، كانا خارج حسابات الزهد والاستغناء، وقد عودتهم مدام "هدى" على أن تبذل المزيد من كرمها في مواسم الامتحانات، وأوقات المحن العائلية، لذلك ففي هذا الصباح، بينما ابنتها البكر تقف على أعتاب أيام قد تحدد مصير حياتها القادم، أتحفتهم الأم المملوءة بالأمل والتطلعات بسفرة إفطار عامرة وفريدة، أكلت "راوية" على امتلاء، إذ كانت خواطرها مشوشة منذ الليلة الماضية.. لم تعرف ما أصابها ولم يكن لخوفها من الامتحان القادم صبيحة الغد دخل فيما تعانيه من مشاعرٍ مضطربة، لو أسرفنا

على أنفسنا في الوصف والتكريم لقلنا إنها تملك حدسًا فائقًا، وتنبؤًا مستقبليًا ببعض الأمور السيئة التي قد تحدث اليوم، لكن ماذا يمكن أن يحدث اليوم؟!

كل خير بكل تأكيد.. سوف تذهب إلى حصتها المجانية لتراجع دروسها، ثم تعود خلال ساعتين لتواصل الاستذكار والمراجعة، حتى يحين موعد الغداء لتأكل ثم تأخذ غفوة تعينها على مذاكرة بقية اليوم والليلة، إلى أن تذهب إلى فراشها آملة أن يكون اختبار الغد سهلًا ميسورًا، ومن المقرر الذي حفظوه.. فلم يتركوا شاردة ولا واردة منه إلا أصموها صمًا، كقطيطات عمياء تتحس العالم بأطرافها اللينة الضعيفة، غير أن تدخلات القدر وحسابات الأحداث غير المرتبة، قد تحول مسار يومنا كله إلى اتجاهٍ آخر مختلف كلية.

بمجرد إتمام الإفطار هرعت الأم تجمع أطباقها وأكوابها وملاعقها، عرضت "راوية" المساعدة.. لكن الأم حثتها على الاستعداد للدرس بلباقة، ورفضت حتى المساعدة المرتجلة التي حاولت "جنى" الصغيرة أن تقدمها، والتي كانت معاونتها تفسد أكثر مما تصلح.

بعد نصف ساعة كانت "راوية" تغادر منزلها، في ثيابٍ بسيطة، وعلى رأسها سكارف مزركش بالورود اليانعة الملونة، لفته بإهمال ليغطي جزءًا كبيرًا من رأسها، تاركا غرة شعرها وجبينها العريض الناصح، مكشوفين للعيان، ولم تعلق الأم بكلمة على مظهر ابنتها، إذ كان الصلح غير المكتوب بينهما يشير بوضوح إلى ترك صغائر الأمور، التي قد تهيج مكامن الخلاف والتشاحن بينهما جانبًا، والتركيز فقط على الأمور المهمة والخطيرة.

وصلت "راوية" إلى منزل "ندى" بعد عشر دقائق، لكنها لم تجد "ندى"، في الحقيقة هي لم تجد أحدًا في المنزل على الإطلاق!

فلسببٍ ما غادرت "ندى" وأمها وأخوتها وعائلاتهم في البيت الكبير، ولم يبق جالسًا في المنزل الخاوي سوى والد "ندى"، الحاج الطيب الوقور، وحده!

....

لم يكن الأمر فخًا أو مصيدة مدبرة، بل إنها كانت فعلًا مجرد مصادفة، لكن الرجل الذي تلقفها ووقعت في حجره كان صيادًا حقيقيًا، لذلك قرر أن يداعب القدر بإحكام ما أغفله في خطته الصغيرة المرتجلة، ذهب أهل البيت عن بكرة أبيهم لزيارة الحاجة زوجته، التي أجريت لها عملية الزائدة الدودية في صبيحة اليوم الباكرة، لكن "ندى" وحدها بقيت مع أبيها، لذلك عرف الرجل كيف يتخلص من ابنته ببساطة، ويرسلها بعيدًا بشكلٍ لبق لا يثير ريبة الفتاة ولا شكوكها، ككل أب شرقي كان الحاج "راضي" يظن في ابنته البراءة والطهر التامين، ويجزم أنها لا تعرف، ولا يمكن أن تعرف، شيئًا مما يدور برأسه، وأن عالم الرجال ورغباتهم ونزواتهم بعيد عنها جدًا، غير أن الواقع دائمًا ما يكون معاكسًا بشدة، فـ "ندى" كانت مرتبطة عاطفيًا بزميلٍ سابقٍ لها في كلية الآداب، كما أنها أيضًا لاحظت من طرفٍ خفي، ودون أن تصرح تصريحًا يلفت أنظار الوالد المساق خلف شهواته الجامحة، أو أن يطلعه على حقيقة إدراكها لما يحدث حولها، نظرات أبيها المسن المحترم غير البريئة تجاه قريبتهم المراهقة، التي تتردد على منزلهم بانتظام، وأيقنت.. وإن وقف بها خيالها وسلطة الانتماء الأبوي عن الوصول إلى كامل الحقيقة المرعبة، أن أبيها الشيخ المحاط بكل احترام وتقدير ومهابة، ينظر إلى زائرة بيتهم نظرات لا تغلب عليها صفة البراءة والطهر!

كان ذلك أقصى ما وصل إليه خيال "ندى" القاصر، إذ لم تكن لتصدق أو تتخيل أن أباها أشفع نظراته الآثمة بأفعال أكثر إثمًا وفجورًا، كانت الخريجة التي

أرغمت على التنازل عن حلمها وفرصتها في العمل، تعيش واقعها من غير أن تحاول اختراق الحجب المضروبة حولها بإطلاق العنان لخيالاتها المسرفة، أملت فقط في أن يقتنع أبوها ويسمح لها بأن تحصل على عمل، أو حتى يدع لها الحق في الاختيار، بدلًا من أن يطبق على أنفاسها بلايا مسلسلة كثيرة لا آخر لها، وكلها تدور حول خيارات تخصها وحدها.

كانت بالطبع ابنة بيئتها وبيتها، ولم تكن فتاة متمردة أو (فيمينست) تبحث عن حقوقها، وتقاتل لأجل الحصول عليها، لكن رفض أبيها لعملها، وقمعه لرغبتها في أن تحقق شيئًا لنفسها، مع ما تلاحظه عليه من ولع بالنساء، وما علمته سرًا من كونه يلاحق بعض المطلقات والأرامل الشابات، والزوجات اللائي على شقاقٍ مع أزواجهن، ويحاول استمالتهن بكل الطرق، بما فيها المغازلة الصريحة والكلام المعسول، جعلها تدرك أن أباها مثله كمثل تسعة وتسعين بالمائة من ناس بلدها، يقول ما لا يفعل، ويفعل عكس ما يقول دون أن يلحظ المفارقة، أو يهتم بالتناقض.

كانت الفتاة إذن تشعر دون أن تعرف بيقين، لم تتوافر لها الصورة كاملة، لكن النصف الذي كان لديها مع قليل من الخيال وتنحية الانحيازات الأسرية الغالبة جانبًا، كان كافيًا لكي تدرك الجانب الآخر المفقود من الصورة، غير أن "ندى" اختارت التجاهل، واستمرار الثقة في أبيها وأخلاقه ومثله، في هذا الصباح حين خوا المنزل على عروشه، وفوجئت به يطلب إليها.. تمامًا قبيل الساعة التاسعة بقليل، أن تذهب لتسحب له مبلغًا ماليًا من أقرب ماكينة Atm لم يخامر البنت أي شك في نوايا أو مبررات والدها، كانت تعلم أنهم سيذهبون بعد الظهر ليأخذوا دورهم في مرافقة أمها، التي ترقد في المستشفى طريحة الفراش

بعد إجراء عمليتها الجراحية الطارئة، وقد يبقون هناك حتى صبيحة اليوم التالي، وبالطبع سيحتاجون نفقات ومصاريف، صحيح أن أجرة الطبيب وتكاليف المستشفى دُفعت كاملة ساعة إجراء الجراحة البسيطة، لكن الأمر لن يسلم من مصروفات أو احتياجات طارئة، وضعت "ندي" ثيابها وذهبت بصمتٍ وخضوع، فقط لتصل "راوية" بعد مغادرتها بلحظات، كان الفخ قد أُعد بكثيرٍ من الارتجال والعفوية، وقليلٍ من الدهاء والتخطيط المحكم، لم يكن في ذهن الشيخ خطة محددة، أو أمرًا معينا يريد الوصول إليه، لكنه فكر أن انفراده بالفتاة المراهقة ولو لحظات معدودة، قد يسهل له استثارة حواسها، وتنشيط معرفتها بالرجال وعالمهم، الذي يظن جازمًا أنها لا تعلم منه إلا طرف أبيها وإخوتها الصغار، لم يعرف أبدًا أن البنت على علمٍ كامل بتلك الأمور، وإن كانت معرفة مشوشة وخاطئة في كثيرٍ من تفاصيلها ودقائقها، لذلك أعتقد أنه سيكون فارسها الأول، فهو وسيم طيب الملامح رغم سنه، وقد تحبه وتقع في هواه، ظن نفسه جديرًا بذلك وهكذا يحقق فائدة مزدوجة، يرضي شهواته الجامحة، ويعظم ثقته في نفسه، ما قد يعطيه القوة والمقدرة لمواجهة عائلته بأسرها، ومصارحتها بأنه يريد الزواج من امرأة أخرى على أمهم الضعيفة الواهنة، التي لحقت بها عوارض الزمن، وأصابتها الشيخوخة بسهامها في غير رحمة أو شفقة.

في المقابل فإن "راوية" وحين دلفت بقدمها عرين الأسد العجوز، الذي ينتظر على لهفة، وأدركت من ثلاث أو أربع كلمات باردة تبادلتها معه، أنهما وحدهما تمامًا في المنزل الكبير الخالي، لم تحس بأي خوفٍ أو رغبة في الفرار، لقد ملأتها تجارب قصيرة مريرة بالثقة في نفسها، وعبأ ميلها الطارئ للشاب، الذي ترصدها وتتبعها في مرتين، مدعيًا أن لقاءه بها كان مصادفة عابرة، وإن شابه

الكثير من التخوف والحذر الغريزي بالرغبة في أن تستعيد ثقتها في جنس الرجال، وليس من وسيلة يستطيع المرء بها أن يشحن ثقته بغيره، سوى أن يثق بنفسه أولًا، كانت عثرة العام الماضي، بل عثراته الكثيرة قد صنعت حاجزًا داخلها بينها وبين ما كانت عليه سابقًا، لقد أدركت عواقب التمرد والجنوح، فليس فقط أن ضاعت عليها فرصة لأن تلحق بزميلاتها، وتكون الآن تستعد لامتحانات الصف الأول الثانوي، بل أيضًا تفقد احترامها لنفسها، وقدرًا كبيرًا من تعاطف أهلها معها، ودعمهم لها، لقد أظهر الأبوان قدرًا كبيرًا من الدعم والتفهم طيلة أشهر الفصل الدراسي المنقضية، حاولا تناسي وإصلاح أخطاء الماضي والعفو عنها، فقد فهما أخيرًا أن تلك ليست أفضل وسيلة للتعامل مع فتاةٍ مراهقة، ولا هذا خير سبيل لوضعها على طريقها الصحيح، غيرت الأم من أسلوب معاملتها لابنتها، وساهم الأب في التقريب بين المرأتين المتنافرتين، حقيقة فقد كانت كلٌ من "راوية" وأمها تتعاملان معاملة الند للند، منذ أن بلغت البنت سن النضج والأنوثة، هذا كله خاطئ، وعبءٌ عظيم على مشاعر يجب أن تكون بالغة الصفاء والنقاء والشفافية، لكن عفا الله عما سلف، وأي محكمة يمكنها أن تكون أكثر عدلًا وتسامحًا من نظرة أم لابنتها، أو من ظن أب في فتاته البكر التي سعد بها أيما سعادة في سنواتها الأولى.

اتخذت "راوية" الخطوة الصحيحة الأولى إذن، أن تعود البنت التي يريدها أبواها، وبتلك الثقة تستطيع أن تواجه لا عجوز خرف أحمق فقط، بل العالم المقيت والمتربص والوحشي بأسره إذا استحكم الأمر..

....

عندما وضعت قدميها داخل البيت الصامت، ووجدت بقايا الرجل المقيت، الذي يتربص بأنوثتها الصغيرة البازغة، مرصوصة فوق كنبة المدخل البلدي العتيقة، شاله الصوفي غامق اللون، ومنشفة متسخة يبدو أنه كان يمسح بها قدميه، أو يزيل بها بقايا عفنةٍ ما، برغم أنها كانت بعيدة عن مرمى شمها، إلا أن رائحة عطنة ومحترقة هبت عليها حين تطلعت نحو المنشفة الرمادية القذرة، ومبسم متروك جانبًا، كتاب لم تستطع أن تميز أحرف عنوانه من تلك المسافة، لكن غلافه الجلدي وحجمه الضخم وشيا بأنه كتابٌ ديني أو مجلد تفسير، كانت تلك سخرية مجسدة بحق الله، فكل تلك الأغراض الصغيرة عديمة الأهمية عززت كراهية "راوية" لقريبها المتصابي الوقح، وزادت من رغبتها في التعدي عليه ومواجهته إذا لزم الأمر، لكنها تتمنى الآن، في لحظة خوف وإحجام طارئة، ألا تضطر أبدًا للدفاع عن نفسها، وتلطيخ يومها بتجربة مريرة أخرى.

عندما لاحظت سكون البيت وهدوئه تساءلت متظاهرة بالبراءة وعدم الفهم عن مكان أهل البيت، فقال الرجل وهو يصعد بصره فيها ويصوبه:

- "الحاجة في المستشفى، شفاها الله، أجروا لها عملية الزائدة وكلهم هناك معها".

- "إذن فأين الآنسة "ندى"؟ هل ذهبت مع البقية، أم تراها تنتظرني في الطابق الأعلى؟".

- "ندى ذهبت لتسحب لي مبلغًا من المال، أنتِ تعرفين يا ابنتي أنا رجلٌ شيخٌ كبير، ولا أعرف شيئًا عن ماكينات سحب النقود تلك".

حجة مقبولة، غير أنها لم تكن بارعة تمامًا كما تصور، والأهم أنها لم تخل على البنت، ولم تدفعها للتخلي عن تحفزها وتأهبها، اللذين جاءت تتخفي وتختبئ خلفهما متظاهرة بالشجاعة والجسارة، دعاها إلى الجلوس على كنبته، كان يعد العدة لجلسة لطيفة وطويلة، لم يجسر خياله على توقعات مهلكة أو مبالغ فيها، فالفرصة لا تسمح والوقت محدود وضيق، إنه لا يتطلع أبدًا إلى تملك البنت، أو الاقتراب منها بشكلٍ مبالغ فيه، ذلك قد يشكل خطورة عليه هو نفسه، لآنه إن تمادى فقد لا يستطيع كبح جماح نفسه، وقد يقع في الحرج، أو يتسبب لنفسه في فضيحة مدوية، تُغلق دونه الأبواب، وتجعل أهل البنت لا يأتمنونه عليها بعد ذلك، أو حتى يفقد فرصته في الاتصال بغيرها من النسوة، اللائي يظهر أمامهن بمظهر الواعظ والناصح الأمين، لكنه كان يتلهف إلى إشباع مؤثر وسريع، وجبة خفيفة كثيرة الدهن والملح، كالتي كان أبناؤه وأحفاده يبتاعونها بعد ساعات العمل الطويلة من الخارج، وتأبى نفسه الآنفة المعتزة بطناجرها وطعامها الدسم أن تشاركهم فيها، كان الرجل مدفوعًا بقوى أقوى منه تخطط وتدبر بدلًا منه، لم يدرك أبدًا إلى أين يمكن أن يقوده هذا، لكن تمنى أن تنجذب البنت إليه، وتتقبل تقربه منها بشكلٍ يجعل عامل الخطر في تصديه للانفراد بها في منزله الكبير الخالي يصل حتى الصفر الآمن، حاول اقناعها بالجلوس لكنها اعتصمت بباب البيت الخارجي المفتوح، كان بابه يُترك مفتوحًا دائمًا، علامة الاستعلاء وشعور بالسطوة، وأيضًا إضافة عامل الكرم والترحيب بالغرباء إلى قائمة الصفات الحميدة التي يحب أن يُعرف بها وتشتهر عنه، ولذلك وعندما رأى صدودها الذي لم يشوبه خوف أو توتر ظاهرين، أقدم الحاج على

الاقتراب من البنت.. حاذاها متظاهرًا بأنه يدفعها للجلوس، ولامس ذراعها بسرعة، لكنها أمسكت أصابعه بقوة وأبعدتها، ظنها علامة خجل وتجاوب، فمد أصابعًا مرتجفة إلى قرب نهدها البارز، عندئذ.. وبلا خوف أو تردد دفعته "راوية" بعيدًا بقسوة، استعملت ذراعيها على استطالتهما، ودفعته في صدره فسقط إلى الخلف، وقع فوق طرف كنبته، فاحمر وجهه وأربد، لقد أُخذ على حين غرة، لم يتوقع رد فعل بذلك العنف أو بتلك الجرأة، لكن قوتها في مواجهته أذكت رغبة الصياد القديمة في تهشيم الفريسة التي تقاومه، وتتمرد على سلطان أسلحته وإمكانياته، ونحرها نحرًا بقسوة، نهض من سقطته ليقف أمامها قائلًا بلطفٍ مصطنع:

- "ما بكِ يا حلوة أنا مثل جدك".

عندئذ كرر محاولته للمسها بجرأة وفجور أوضح وأكثر صراحة في تلك المرة الثالثة، فتناولت البنت التي رمت بكراريسها وكتبها جانبًا، منفضة السجائر الثقيلة التي كانت مرمية على أحد جوانب الكنبة العتيقة، وضربته بها بمنتهى الغل والقسوة على يده، نزلت المنفضة الصدفية بثقلها فوق أصابع الرجل المسن فعوى من الألم، تحول وجهه إلى اللون القاتم، وتراجع وهو يحيط يمناه المتضررة بيده الثانية ويضغط على أصابعه لكبت وإيقاف الألم، لم تتراجع "راوية" بل نهرته قائلة دون خوف:

- "إذا حاولت لمسي مرة أخرى فسأهشم رأسك يا...".

شتمته بلفظٍ بذيء للغاية، إهانة ثانية لكرامته التي أُهينت بما يكفي في تلك الساعة، فتناولت أغراضها وجرت خارجًا، فقط لتصطدم بـ "ندى"، التي

عادت من مشوارها القصير، بعد أن سحبت بالفيزا مبلغًا أكبر مما طلب منها أبيها، لقد تمردت هي الأخرى على سلطة وقيود والدها، ولو لمرة واحدة في حياتها كلها، بوغتت الفتاة بطالبتها تهرع خارجة من المنزل، وعلى وجهها علامات تشي بأنها خاضت صراعًا محمومًا مع غريمٍ ما، صاحت بها "ندى" أن توقفي.. ثم سألتها مرتبكة عما بها، فأجابتها "راوية" دون لجلجة خوف أو شعور بالندم:

- "اسألي أبوكِ القذر".

اتسعت عينا "ندى" من قسوة ما تسمع، وكادت تطلب تفسيرًا إضافيًا، لكن الفتاة لم تعطها الفرصة لتسأل أو تعرف شيئًا، فقد سحبت نفسها ومضت عائدة إلى منزلها دون أن تبالي بمعلمتها التي تنادي وتكرر النداء خلفها.

....

بعد أن عبرت مسافة آمنة نظرت "راوية" خلفها، كانت نداءات "ندى" لها قد توقفت، والفتاة نفسها اختفت، كان أبوها قد نهرها بغضبٍ وأكرهها على دخول المنزل، وهناك خاطبها بقسوةٍ محذرًا إياها من أن تنبس ببنت شفة عما حدث، برر وهو يواصل تمسيد يده المتضررة، والغضب يغلي نارًا محرقة في مقلتيه المتسعتين اللامعتين:

- "بنت قليلة الأدب، سأشكوها إلى والدها وأمها، أمسكت بيدها لأجعلها تجلس حتى تعودي أنتِ، فظنتني واحدًا من الشباب الذين ترافقهم وتخرج معهم دون معرفة أبيها.. سأفضحها أمام أهلها لتتربى".

لم تسمع "ندي "شيئا مما قيل، كانت منهارة ومصدومة، فالآن تأكدت كل شكوكها وريبها المؤلمة، تركت أباها يكذب ويزور ويبرر ويزيف الحقائق، ثم

هملته دون كلمة وهرعت نحو الطابق العلوي، هناك ستعتصم بوحدتها القاسية لتفكر في أمرها: هل تخبر أمها وأختها بما حدث، أو تخرس وتلوذ بالصمت؟!

....

بوغتت الست "هدى" بعودة ابنتها قبل موعد انتهاء درسها، فقط أقل من نصف ساعة بعد مغادرتها للمنزل، فأقبلت نحوها وعلى وجهها قلقٌ معقول، سألتها بحرص:

- "هل ألغت الأبلة الحصة؟!".

لكن منظر ابنتها أكد لها أن هناك أمرًا جللًا قد حصل، كان صدر البنت يعلو ويهبط ووجهها ملتهب، الاسكارف الذي غطت به جزء من شعرها كان منزاحًا لأسفل، وشعر ابنتها الأسود اللامع ظاهر كله تقريبًا، أدواتها وكتبها المدرسية ملقاة بإهمال فوق ذراعها اليسرى، بمجرد أن طرحت الأم السؤال حتى خرج الأب من المطبخ، كان هناك يتشمم الأوعية خلسة، ليحاول معرفة ماذا ستطبخ لهم زوجته اليوم، كان في إجازة اعتيادية من عمله حتى يوم الاثنين القادم، لكن عودة ابنته المفاجئة، ومنظرها المريب نحى كل ذكر للطعام أو لشهوة البطن من تفكيره.

بلا خوف وقفت "راوية" أمام والديها، كانت الأم في المقدمة تتطلع إليها بخوفٍ وترقب، إحساسها وغزيرة أمومتها تخبرانها أنها ستسمع شيئًا مروعًا الآن، وقف الأب خلفها يراقب ويتصبر، فجأة أزاحت البنت حجابها غير المحكم، ومدت ذراعها إلى أسفل، تاركة كتبها وأدواتها تسقط أرضًا، وهتفت دون خوف، مواجهة إياهما لأول مرة بالحقيقة التي طالما أنكراها وتهربا من الاستماع إليها:

- "هذا العجوز القذر لقد تحرش بي في بيته، لمسني وحاول أن يمسك جسدي، لقد ضربته وهشمت أصابع يده، وهذه ليست أول مرة يفعل ذلك.. لقد فعلها من قبل".

اتسعت عينا الأب مرتاعًا ومتألمًا، وضربت الأم على صدرها بقوة، تسارعت أنفاسها، بينما غطى الأستاذ "عبد العزيز" وجهه براحتي يديه المبسوطتين، تجمد الموقف لبضع لحظات، قبل أن يتقدم الأب، متخذًا موقعه الطبيعي كقائد وحامٍ لأسرته، وأمسك ابنته من ذراعها، قادها بلطف إلى أقرب مقعد إليها، وقال وهو يجلس قبالتها متخذًا مظهر الصرامة والقوة:

- "ماذا حصل بالضبط يا راوية؟ أخبريني كل شيء.."

وهكذا راحت الفتاة تروي لأول مرة كل ما حدث.. دون خوفٍ أو وجل، ما كان في الماضي القريب، السر المؤلم الذي منعت من التصريح به أو إعلانه، وحتى ما جرى منذ لحظاتٍ قليلة، تقول وتعترف بكل شيء بصراحة ودون خوف أو تردد، لأنها الآن فقط تحظى بدعم وحماية أسرتها، ولأنهم أيضًا قرروا أن يصدقوها.. لأول مرة قرروا أن يصدقوا ابنتهم، ويثقوا في كل ادعاءاتها!

■■■

الفصل الحادي عشر

في السابعة والنصف صباحًا كانت "راوية" تغادر البيت بصحبة أبيها، تلك أول مرة تقريبًا يذهب الوالد مع ابنته إلى مدرستها، صحيح أن الطالبة المشاغبة هُددت مرات عدة باستدعاء ولي أمرها، وجيء بأبويها قسرًا مرة واحدة فعلًا، لكنها أول مرة يكون الأمر فيها خيارًا لا إجبارًا، الليلة الماضية كانت عادية وهادئة، لقد حكت البنت كل شيء، كل شيء فلم تدع سرًا إلا وأفشته، روعت أسماع الأبوين بما قيل لهما، وما تكشف أمامهما من أسرارٍ مروعة ومخزية، احتفظت الأم بقناع البرود، غير أن نارًا كانت تتلظى بين جوانحها، أما الأب فقد أخذته العزة وطغت نخوته ونقحت عليه الرجولة، فقرر أن يذهب اليوم إلى منزل "راضي" هذا، جرده أخيرًا من ألقاب الحاج والشيخ ومعالم التعظيم والإجلال ليحطم رأسه، ويعلمه الأدب، كان قرار الأب مرتجلًا وسريعًا، وراجعًا إلى حمية القوام والرجل الذي يحس أن شرفه قد أُنتهك أو كاد.. غير أن انتظار ساعتين ونصف أمام بوابة المدرسة، ريثما تنتهي ابنته من تأدية امتحانها الأخير والنهائي في هذا الفصل الدراسي، قد غير كثيرًا من معالم تفكيره ونواياه، أحس بتضاعف المسؤولية، وأُحيط به بفرضياتٍ لا آخر لها، فماذا لو أنكر الرجل الأريب التهمة أو ردها على البنت نفسها.. فرماها بسوء السلوك وبالانحراف والفجور، ماذا لو اشتبك الرجلان في عراكٍ حقيقي، واستصرخ الرجل الآثم أولاده وذريته للدفاع والمحاماة عنه، ثم الفضيحة التي يمكن أن تحدث!

أمام بوابة المدرسة المغلقة وقف السيد "عبد العزيز" لمدة ساعات قليلة، غير أن تلك الوحدة المقيتة مع النفس، مقلبًا في ذهنه احتمالات وخيالات شتى، غيرت

تفكيره بشكلٍ كامل.. من ناحيتها لم تكن "راوية" راغبة في أي مواجهة أخرى مع معذبها ومنتهكها، لم تكن تحلم تحديدًا بأن يواجهه أبوها، لأنها تحب والدها جدًا، ولا تريد له أن يتحمل بأي قدرٍ من الأذى أو العنت، يكفيها جدًا أنه صدقها ودعمها، وأنه جاء معها الآن ليفرد جناح حمايته عليها، فكل ما كانت تريده هو التصديق، أن يثق ذوها بها، ويؤمنوا بحقيقة ما تقول، حقها رجع إليها كاملًا حين ردت عن ذاتها العدوان، إن تصديها بنفسها للرجل المجرم، وتحطيمها لعظامه، وكسرها لطوق المهابة المضروب حوله، لَنصر وبلسم أعظم عندها من وقوف كتيبة كاملة من رجال أسرتها خلفها، لو أن والدها ذهب إليه وأوسعه ضربًا، وكسر عظامه عظمة.. عظمة، ما أحست بكل ذلك القدر من الثقة والأمان اللذين يملآن نفسها الآن.

وبتلك الثقة الجارفة شارف اليوم على الانتهاء بتحقيق انتصار أعظم، انتصار علني تلك المرة، ظفر شهدت عليه طالبات الصف الثالث بمدرسة (أسماء بنت أبي بكر) الإعدادية للبنات كلهن، أو معظمهن على الأقل، حين قررت بعض الطالبات، عقب نهاية أعمال اللجنة وجمع الأوراق، استهلال الفصل الدراسي الجديد بالتقدم بشكوى جماعية، وافقت بعض الطالبات بمنتهى الشجاعة والإقدام، على التوقيع عليها بأسمائهن الصريحة دون خوف، يتهمن فيها الأستاذ "س. س. م"، معلم المجال الزراعي، بالتحرش ومضايقة الفتيات بقصد وتعمد ظاهرين، ما لم يرتدع ويتوقف عن مخازيه بعد انتهاء إجازة نصف العام، وعودة الطلاب إلى المدارس، مع بداية الفصل الدراسي الثاني!

كان ذلك مشروعًا طموحًا وخطيرًا للغاية، لكن الفكرة كانت فكرة "راوية"، تجمعت الفتيات لمناقشة الأمر بعد نهاية الامتحانات، ومن بينهن "مريم"، صاحبة الهاتف المسروق، والذي لم تستعده ولم تُعرف سارقته أبدًا، و"سامية"

رفيقة درب "راوية" وزميلتها العتيدة، ورأس الفساد "هناء"، التي كانت لا تزال توزع قنابلها الموقوتة على الطالبات الأخريات سرًا، لكن كان من المدهش أن المجموعة التي أضمرت التربص بالمعلم المعتدي الآثم، وقررن تحويل حياته إلى جحيم بشكوى جماعية قد تطيره من المدرسة بأسرها، وترمي به إلى مدرسة أرياف نائية، وتبعد شره ولو قليلًا عن الفتيات المستهدفات الأخريات، كانت بينهن "نور"، نجمة المستقبل مع إيقاف التنفيذ، فقد حضرت البنت مناقشة الأمر عرضًا، غير أن "راوية" لاحظت أن غريمتها وعدوتها اللدودة، التي تضمر كلٌ منهما شرًا مستطيراً وتربصًا تجاه الأخرى، قد تلون وجهها بالفزع، وتاهت نظراتها وكأنها مسحورة حينما ذُكر اسم المدرس الحقير، وأُستذكرت في الفصل الهادئ سيرته الشائنة، لاحظتها "راوية" بتركيز، وفي لحظة تبدلت كل مشاعرها الساخطة والناقمة نحوها، فلقد عرفت البنت المجربة، بسابق خبراتها القليلة المؤلمة، أن تلك النظرات التائهة تعني أن "نور"، المعتدة بنفسها، قد طالها فيما يبدو تحرش فعلي ومباشر من قبل المعلم المنبوذ!

كانت هناك مئات من الأشياء التي يمكن أن تقال، غير أن الشيء الوحيد الذي كان يمكن فعله هو المهم وحسب، لأول مرة تبادلت "نور " مع "راوية" حديثًا يخلو من الحقد والكراهية والخصام المتبادل، لم تغرق كلٌ منهما الأخرى بالقبلات أو ترتمي في أحضانها، غير أن فتورًا غير مؤذٍ حل محل الحرارة اللاهبة التي كانت تفصل بين البنتين المتصارعتين، حزام النار تحول إلى رمادٍ بارد، ليس هناك من كبيرٍ خطر في السير عليه، للوصول إلى الناحية الأخرى بأمان.

قرابة الساعة الثانية عشر ظهرًا كانت "راوية" ووالدها على مشارف بيتهم، لقد توقف بها الأب قرب محل عصير ومرطبات، وأصر أن يسقيها مشروب مانجو

طازج، كانت الليلة الماضية قد غيرت الكثير من تفكير الأب والأم، وقررا أن العصا لا يجب أن توجه تجاه صدور أبنائهما، ليس في كل وقتٍ على الأقل، لكن عصا الأسرة وسلاحها وقوتها يجب أن تُستعمل فقط لحماية الذرية المهددة، المحاجاة على الأولاد أهم من تخويفهم وتهديدهم وترهيبهم بألف مرة، وُئد مشروع المواجهة المرتقبة بين الأب وقريب الأسرة المسن المعتدي.. فقد قرر الوالد، دون أن يجد في صدر ابنته انتقاصًا منه أو لومًا له، أن يمنع العجوز الآثم من الاقتراب من منزله، مكتفيًا بما أعطته إياه البنت الشجاعة من دروسٍ ومواعظ تكفيه بقية عمره القصير، كان الأب فخورًا بابنته، وإن كان شك ما قد خامره للحظة في أقوالها، إلا أن اختفاء الحاج "راضي"، وعدم ظهوره مرة أخرى على عتبة منزلهم، أكد لهم جميعًا أن البنت لم تكن تكذب من مبتدئ الأمر، لم تكن تكذب، وها هي شهادة العجوز الصامتة على نفسه تدمغه بالإثم والخطيئة، وتبرئ ساحة فتاة طالما أُسيء فهمها، ورُميت بكل التهم والأوصاف الباطلة!

سينصرم يناير ومعه كل تلك الأحداث الهائلة، وبعده يأتي الشهر الثاني، فبراير الودود الذي يرحب بكل الآراء، ولا يحجر على أي فصل من فصول العام أن يمارس ألعابه، وينشر روائحه الخاصة فيه، ومع قدوم فبراير سيكون معتدٍ آخر، يظن نفسه في مأمن وملجأ آمن أشد، على المحك، ينتظر قرارًا عاجلًا وغير قابل للنقض، فإما أن يجد نفسه مطلوبًا للحساب والفضح على رؤوس الأشهاد والمدعين، أو ينسحب من تلك المهلكة مغادرًا كفأرٍ جبان، ليبحث عن جحر عفن يمارس فيه تسلطه البدني، وتعدياته على ضحايا آخرين أقل فهمًا، وأكثر قابلية للسيطرة عليهم، وانتهاكهم دون مقاومة، أو مخاطر الدخول في معركة صامتة ما.

تمت



ج.م.ع
الإسكندرية
Email: mazagelkotob@gmail.com
Mobile: 01024541339